

عائشوراء .. ثقافة النهضة والبناء

حسن بن موسى الصفار

عائذ بالله من
ثقافة النهضة والبناء

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

محفوظة
جميع الحقوق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين اللهم صلّ على محمد
خاتم الأنبياء وتمام عدة المرسلين وعلى آله
الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

كلمات في البدء

الإحياء الحسيني سمةٌ من أهم وأبرز سمات المجتمع المنتمي لأهل البيت (عليه السلام)، وهو توجيهٌ من توجيهات الأئمة الطاهرين (عليهم السلام)، فقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: «أحيوا أمرنا. رحم الله من أحيى أمرنا».

والسؤال المهم: هل كل من يهتم ويحيي ذكرى الأئمة (عليهم السلام) بشكل عام، وعاشوراء بشكل خاص، يُحركهم دافعٌ واحد؟ أم أن هناك اختلافاً بين الناس وتفاوتاً؟ بكل بساطة يمكننا الجزم بوجود الاختلاف والتفاوت، وعلى كل فرد أن يتأمل ذاته ليكتشف حقيقة الدوافع التي تحركه للإحياء الحسيني، وحقيقة علاقته مع هذه الشعائر، فالنجاح في الكشف عن ذلك سيكشف لك عن مستوى الوعي الحقيقي الذي تنتمي إليه، ومهم جداً أن تتحرى الصدق في ذلك؛ لأن عدم دقتك في التأمل في ذاتك سيعكس نتائج سلبية يعود ضررها عليك.

نعم، إن الدافع الحقيقي للإحياء الحسيني يختلف من شخص لآخر. وأستعرض هنا سبعة من الدوافع التي لا شك أن أحدها هو الدافع الأبرز الذي يحرك اندفاعك باتجاه الإحياء الحسيني، كما أنه قد يكون لديك أكثر من دافع.

والمطلوب منك بدايةً أن تفهم بعمق طبيعة كل دافع، وتعرّف على ما يميزه عن غيره لتكون قادراً على التمييز بين هذه الدوافع المتعددة.

وعليك أن تدرك أن هذا الدافع إنما هو تعبيرٌ عن مستوى وعيك ومستوى نضج علاقتك مع القضية الحسينية. ولا يعني ذلك أن هذا المستوى هو قدرك ولا يمكنك الارتقاء منه لمستوى أعلى، إلا أن ذلك مرهون بمدى جدّيتك وهمّتك وإرادتك، فالمرء يطير بهمّته، كما يطير الطير بجناحيه.

أولاً: الذات البدائية

حين يكون غاية تفكير الإنسان هو تأمين الاحتياجات الفسيولوجية لذاته، فإنه يتعامل مع كل ما يُحيط به بصورة بدائية، وفي أدنى المستويات. وينطبق هذا الكلام على الإحياء الحسيني، حين ينطلق الفرد ضمن هذا المستوى لإحياء عاشوراء محاكياً بذلك والديه، أو لتأمين احتياجاته الفسيولوجية إن كان الإحياء الحسيني يؤمن له ذلك.

ثانياً: الانتماء العائلي

ينمو الإنسان وتنمو معه احتياجاته، فحين يشعر بالحاجة إلى التكاتف والتلاحم يبدأ في التداخل مع محيطه العائلي الكبير، والهدف من ذلك: تعزيز حالة التكاتف والتلاحم، وإرضاءً للعائلة وشيخها الكبير.

وبذات المستوى من الوعي قد يُحيي الفرد الشعائر الحسينية، بحيث يكون دافعه رضا عائلته، وتعزيزاً لقوّتها في المحيط الاجتماعي الذي ينتمي إليه.

ثالثاً: الذات الأنانية

حين ينظر الإنسان إلى ذاته فقط، ويرى نقاط قوّته، فيسعى لفرصها وبسط سيطرته على المحيط من حوله، فإنه بهذه الذات يكون أنانياً، ولا يرى إلا نفسه.

وبهذا الوعي الأناني قد يُحيي الإنسان الشعائر الحسينية، ويسعى جاهداً ليكون وجوده فوق الجميع، وحين يدخل طرفاً في المنافسة، وإن كانت إيجابية،

فإنه مستعدٌ لاستخدام منطق القوة ليبقى هو بارزاً، ويتجاهل تماماً أنه يعيش في رحاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

رابعاً: البيئة المقيّدة

يواجه الإنسان في حياته العديد من الجهات التي تفرض رأيها ونفوذها عليه. ولا يخلو أيُّ مجتمع من المجتمعات من وجود مثل هذه الجهات، فتارةً تتمثل في زعاماتٍ أو وجّهاتٍ اجتماعية، وتارةً تتمثل في عاداتٍ وأعرافٍ قد ألزم المجتمع بها نفسه، فتمس كل من ينتمي لهذا المجتمع. وهنا يجد الإنسان نفسه مضطراً للخضوع والخنوع لهذا الواقع، فيقيّد نفسه بالأعراف والتقاليد السائدة، ويتهيج رأي وفكر الرموز والزعامات التي يتأثر بها، فهو هنا أسيرٌ مقيّد، بل قد يبالغ البعض ليصل به المطاف لدرجة تقديس هذا الواقع، فتصبح الأعراف والتقاليد والرموز، أمراً مقدّساً لا يُمكن المساس بها، أو نقدها، ومن يجرؤ على ذلك، قد يُتهم في انتمائه والتزامه الديني والقيمي.

وقد يُحيي الإنسان الشعائر الحسينية بهذا المستوى من الوعي، ووسط قيود المجتمع، وما إن يكون بعيداً عن تلك القيود تراه بعيداً أيضاً عن الشعائر الحسينية.

خامساً: الذات الربحية

حين يعي الإنسان مصالحه الشخصية، ويتعزز في نفسه مفهوم الربح والخسارة، فإنه قد يضرب بعرض الحائط القيود الاجتماعية، فيتّجه نحو منطق الربح والخسارة.

والفرد ضمن هذا المستوى أرقى من الأناني، فعلاقته مع الآخر علاقة ربحية محسوبة، دون أن يكون فيها لجوءٌ للعنف أو القوة، وإنما المصلحة هي الحاكمة

في الأمر.

وفيما يرتبط بالشعائر الحسينية فضمن هذا المستوى من الوعي يكون دافع الفرد هو الربح بشكل أساس، فطالما هناك ربح مادي أو معنوي فإنه يتفاعل مع الشعائر، وإذا قلّ مستوى الربح فإنّ تفاعله يتراجع.

سادساً: الروح الإنسانية

يرتقي الإنسان وعباً، فيرتقي سلوكاً وروحاً، فهو في هذا المستوى يؤمن بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، فالإنسان من حيث هو إنسان يبقى مكرماً عنده.

فتراه يشيع بين أقرانه روح المحبة والسلام والتسامح والتعايش والألفة والتعاون والاحترام، دون انتظار مقابل، فهو كالشمعة التي تحترق من أجل الآخرين، وبذلك يُقدّم نموذجاً رائداً في العلاقات البشرية كالنحلة أينما كانت، فإنها تقدّم رحيقها للجميع، بلا استثناء. وقد يعيش البعض ضمن هذه الحالة بطبيعته الفطرية، والبعض يعيشها وعباً، لتُمثّل له دوراً في الحياة.

وتتجلى هذه الروح في خدام أبي عبد الله الحسين عليه السلام الذين نذروا أنفسهم لخدمة الشعائر الحسينية، بعيداً عن اعتبارات الانتماء العائلي، أو القيود الاجتماعية، إنهم يبذلون عطاءهم بدافع ذاتي، وروح إنسانية، وقلب يفيض بالمحبة لعشاق أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

سابعاً: الذات التكاملية

حين يرتقي الإنسان بفكره ووعيه، ويتأمل في ذاته ووجوده، فيُدرك أن وجوده في الحياة لم يكن عبثاً، وأن الله سبحانه إنما خلقه ليكون خليفته في الأرض، وحين يتعزز في نفس الإنسان تقديره لذاته، فيرى أنه يمتلك من الكفاءة والقدرة ما يستحق التقدير، عند ذلك تجده يسعى للارتقاء بفكره ووعيه، وتحقيق دوره في الحياة.

والإنسان ضمن هذه الحالة وإن كان ينظر لذاته نظرة تقديرٍ واعتزاز، إلا أنه في ذات الوقت يحفظ للآخر موقعيته ومكانته وحقه الطبيعي في أخذ دوره في الحياة. بل إنه ضمن الفريق الواحد يسعى لأن يكون العمل تكاملياً بحيث كل كفاءة تأخذ موقعيتها في النشاط والعمل. فهو يؤمن بأن الحياة تتسع للجميع، وبهذا الوعي يتحقق التكامل بين أصحاب الرسالات الرائدة في الحياة.

وفي هذا المستوى من الوعي فإن الإنسان يُحيي موسم عاشوراء ضمن دورٍ وجد نفسه وروحه فيه، سواءً على مستوى الخطابة الحسينية، أو إقامة المآتم، أو المشاركة بنشاطٍ جمعيٍّ أو فردي، إنه يبحث عن ذاته من خلال دورٍ نذر نفسه له، كما أنه يرى في عاشوراء الحسين عليه السلام موسماً يستلهم من بركاته وفضائله ما يُحقق له الدور الريادي الذي يتطلع إليه.

ماذا بعد؟

سؤالٌ حائرٌ ينبغي أن تطرحه على نفسك دوماً، وعليك أن تكون صادقاً مع نفسك، إلى أي مستوى تنتمي علاقتك مع القضية الحسينية؟ وما هو الدافع الأكثر بروزاً فيها؟

عندها فقط ستدرك ضمن أي مستوى أنت تُحيي الشعائر الحسينية، وبإمكانك أن ترتقي بذاتك وعباً لتكون علاقتك في أعلى مستوى من النضج، كما أنه بإمكانك أن تبقى حيث أنت، شريطة أن تكون صادقاً مع نفسك، ومدركاً لمستوى وعيك، ومستوى نضج علاقتك مع القضية الحسينية.

وفضيلة الشيخ حسن الصفار يُمثل نموذجاً رائداً ضمن هذا المستوى من الوعي في إحياء عاشوراء الحسين عليه السلام، والكتاب الذي بين يدي القارئ العزيز إنما هو ثمرة من ثمار الدور الريادي الذي يقدمه للأمة من خلال خطابٍ حضاري أصيل.

ففي عام ١٤٣٠هـ وبهمة مجموعة من الأصدقاء المهتمين بنشاط الشيخ الصفار

في موسم عاشوراء سعينا لصياغة تقارير يومية تتضمن أبرز المحاور الجوهرية التي تحدث عنها فضيلته في محاضراته العاشورائية.

كما قام بعض الإخوة بتحرير المحاضرات نصاً. وأوكل لي فضيلة الشيخ الصفار، مشكوراً، دور تحرير صياغة جميع المحاضرات لذلك العام لتظهر في صورتها الأخيرة التي نتطلع من خلالها لأن تكون إضافةً رائدةً للخطباء، وللمهتمين بإحياء عاشوراء الحسين عليه السلام ويتطلعون للاستفادة النوعية من بركات هذا الموسم العظيم.

أسأل الله تعالى أن يجعل في هذا المجهود المتواضع بركةً تعم كل من يصل إليه الكتاب، وأسأله تعالى أن يحفظ فضيلة الشيخ الصفار وأن يديم عليه الصحة والعافية ليواصل مسيرة العطاء والدور الرسالي في خدمة الشرع الشريف.

د. تركي العجيان

١٧ شوال ١٤٣٣ هـ

مقدمة

إحياء ذكرى عاشوراء ليس رحلة من الزمن الحاضر إلى التاريخ الغابر.
ولا انشغالاً بحدث أكل عليه الدهر وشرب.
ولا هو طقس مذهبي لتكريس هوية طائفة.
وليس مسرحاً لتفجير العواطف والمشاعر تنفيساً للهموم والأحزان.
وإذا كان البعض يتخيّل شيئاً من ذلك في رؤيته لهذه المناسبة، فهو إما غافلاً
عن حقيقة عاشوراء ومضامينها، أو متأثراً بأجواء بعض الممارسات القشرية في
إحيائها.

إن عاشوراء مدرسة زاخرة بالقيم والمعاني السامية، وإحيائها يستهدف
استحضار تلك المبادئ والقيم في حياة الفرد والأمة.

وفي طليعة المبادئ والقيم العاشورائية: مبدأ تحمّل المسؤولية تجاه الدين
والمجتمع، والقيام بواجب الإصلاح في ساحة الأمة، والانتصار للحقّ والحرية
والعدل، ورفض الظلم والجور والفساد.

إن عاشوراء أبعد ما تكون عن المذهبية والطائفية، فحدوثها سابق لنشأة
المذاهب والطوائف، والحسين رمز تجمع الأمة على إجلاله وإعظامه بكل طوائفها
ومذاهبها، وخطابات الإمام الحسين لا أثر فيها لجدل عقدي أو فقهي أو تاريخي.

بل إن خطابات الإمام الحسين في عاشوراء منشور إصلاح، ومشروع خلاص للأمة من الاستبداد والظلم والفساد.

فالحسين يعلن في بدء نهضته أن هدفه الإصلاح في الأمة «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر».

والحسين يدعو أبناء الأمة لاتخاذ موقف تجاه انحراف السلطات وجورها، وعدم السكوت والخنوع: يقول ﷺ: «أيها الناس، إني سمعت رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهده مخالفاً لسنة رسوله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر ما عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله».

كما يؤكد الإمام الحسين أن لا قيمة للحياة إذا ساد فيها الباطل والفساد، وانتهكت فيها الحقوق والمبادئ، يقول ﷺ: «ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محققاً، فإني لا أرى الموت إلا سعادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا برماً».

ويستثير الحسين في نفس الإنسان كإنسان نزعته إلى الحرية والكرامة، بغض النظر عن الدوافع الدينية، مطالباً إياه بعدم التفريط بحريته: «إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم».

وإحياء عاشوراء إنما يعني استحضر وتمثل هذا الخطاب الحسيني، والمواقف البطولية المجسدة له في ملحمة كربلاء.

لكن ما يجب الاعتراف به هو القصور والتقصير في بعض مشاهد إحياء عاشوراء، عن محاكاة الخطاب الحسيني واستحضار قيمه ومضامينه، بل قد تحصل بعض الممارسات وتطرح بعض الخطابات المخالفة لمقاصد الثورة الحسينية، لجهل أو غفلة أو سوء فهم أو غرض مصلحي.

ولخطباء المنبر الحسيني دور أساس في توجيه إحياء مناسبة عاشوراء لتحقيق أهدافها المقدسة، وتبعث في نفوس أبناء الأمة روح المسؤولية والتزام الحق، والسعي لإقامة العدل.

إن مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة تعاني من واقع التخلف، وهيمنة الاستبداد، وغياب العدل، وانتهاك الحقوق، ولا خلاص لها إلا بحراك نهضوي، ينطلق من الشعور بالمسؤولية، والثقة بالذات، والاستعداد للبذل والتضحية، وكل ذلك يمكن استلهامه من مدرسة عاشوراء.

وقد تختلف البيئات وأوضاع المجتمعات، مما يستدعي تفاوتاً في أولويات الطرح ومستويات الخطاب، إلا أن المهم هو استهداف الإصلاح والتغيير، والتحفيز نحو النهوض والفاعلية وتجاوز معوقات التنمية والبناء.

والكتاب المائل بين أيدي القراء الكرام هو تجربة متواضعة لتمثل هذا الخطاب المطلوب، حيث أقيمت هذه المحاضرات في موسم عاشوراء لسنة ١٤٣٠ هـ- ٢٠٠٩م في مجلس الشيخ محمد صالح المبارك في القطيف، وقام بعض الإخوة الأعزاء مشكورين بكتابتها وتحريرها، وأجريت عليها شيئاً من التعديل والتنقيح، ويسعدني أن أقدمها للقراء الأعزاء، وخاصة لإخوتي وزملائي من خطباء المنبر الحسيني، بهدف تدوير التجربة، والاستفادة من ملاحظاتهم ونقدم البناء.

أسأل الله تعالى القبول والتوفيق.

والحمد لله رب العالمين.

حسن موسى الصفار

٥ ذو الحجة ١٤٣٣ هـ

٢١ أكتوبر ٢٠١٢م

المظالم الكبرى في ذاكرة التاريخ

- الموقف من ظلمات التاريخ
- ضحايا الرأي
- فاجعة كربلاء في التاريخ الإسلامي

” وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ (٢) وَشَاهِدِ
 وَمَشْهُودِ ۝ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ (٤) النَّارِ ذَاتِ
 الْوُقُودِ ۝ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ
 بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا
 بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ (٨) [سورة البروج، الآيات: ١-٨] “

□ الموقف من ظلمات التاريخ

حفل تاريخ البشرية الطويل بالكثير من المظالم وحالات العدوان، فلا يكاد يخلو عصر من العصور ولا زمن من الأزمان من وقوع الظلمات والاعتداءات بين بني البشر. وتفاوتت هذه المظالم في حجمها وفي سعة رقعتها وتأثيرها، فقد أثار جانب من هذه المظالم على أفراد، فيما نال قسط آخر من جماعات، في حين دفعت أثمانها الباهظة مجتمعات وأمم بأكملها في حالات أخرى.

إن من أبسط ما تسالم عليه العقلاء هو رفض الظلم، فلا يرتضي الإنسان العاقل وقوع الظلم، ذلك يكاد يكون من البديهيات ومما تحكم به فطرة الإنسان وتفكيره السوي، علاوة على رفض الشرائع السماوية لارتكاب الظلم بحق الناس أنى كانوا.

غير أن السؤال الذي يطرح نفسه على طاولة البحث هنا، هو عن ماهية الموقف المناسب إزاء الظلمات التي وقعت في الماضي وعبر مختلف العصور، سواء تلك التي كانت محدودة التأثير أو كانت واسعة النطاق. فهل من واجب الإنسان أن يكون له موقف من تلك الظلمات؟

أم أن المطلوب تجاهلها وتناسيها واعتبارها مجرد قضايا عفى عليها الزمن، قد فني المتورطون فيها كما رحل ضحاياها؟

وتبعاً لذلك قد يقول قائل: ما الداعي لأن نجدد ذكر هذه الظلامة أو تلك وقد تطاول عليها الزمن عبر القرون وتعاقبت عليها الأجيال؟

فيما قد يتساءل آخر مشككاً عن جدوى الانشغال في هذا الزمن بتلك القضايا التاريخية مستدلاً بالآية الكريمة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٣٤].

من هنا نشأت الجدلية حول الموقف من الظلمات التي حصلت في الماضي والتي تراوحت بين الانشغال أو التجاهل حيال تلك الظلمات.

حقيقة الأمر، يجب أن يكون الموقف من شتى أنواع الظلم والعدوان الذي يقع على البشر حاسماً وواضحاً ووضوح الشمس لكل ذي عينين، إذ لا يفترض بأي عاقل التغاضي عن مطلق الظلم والعدوان، في هذا العصر، أو العصور السالفة على حدٍ سواء، ذلك هو منهج القرآن الكريم، الذي طالما سلط الضوء على مظالم حصلت في التاريخ الماضي وأحداث جرت على الأجيال السالفة.

والسؤال هنا: كيف نوفق بين الآية الكريمة الآنفه وبين آيات أخرى تدعو الإنسان إلى التأمل في سير وأحوال الأمم الغابرة؟

يقول ربنا عزَّ وجلَّ في محكم كتابه العزيز: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [سورة يوسف، الآية ١٠٩]، والآية الكريمة تورد هنا أمراً إلهياً صريحاً بأن يسير الإنسان في الأرض فينظر في مصير وأحوال الأمم والأقوام السابقين.

كما أن آي الذكر الحكيم تشير بوضوح إلى فائدة ذكر الأحداث السابقة لغرض أخذ العظة والعبرة، فقد ورد في الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي

الألْبَابِ ﴿سورة يوسف، الآية ١١١﴾، وفي آية أخرى: ﴿فَأَفْضِصِ الْقُضْصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية ١٧٦].

وعلاوة على ذلك، كثيراً ما نجد القرآن الكريم يخلد بعض المظالم السابقة، الفردية منها فضلاً عن الجماعية، فقد تناول الكتاب العزيز ظلامة هابيل بن آدم، وسرد تسلسل واقعة العدوان والقتل التي راح ضحيتها على يد أخيه قابيل، فجاء في الآية الكريمة: ﴿وَإِثْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية ٢٧]. لقد تناول القرآن الكريم قضية هابيل في عدة آيات، لا لمجرد سرد حادثة مقتل أخ على يد أخيه، بقدر ما هي تخليد لظلامة عظيمة راح ضحيتها أحد الصالحين لتكون درساً تُستلهم منه العبر والعظات.

كذلك تناول ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بالتفصيل قضية معاناة نبي الله يوسف ﷺ وما لقي من إخوته، وماذا حصل له منذ تغييبه في الجبّ على يد إخوته، ومعاناته في السجن لاحقاً، ثم عفوّه عن إخوانه فيما بعد، حتى اعتقاله عرش مصر في نهاية المطاف، جميع ذلك خلده القرآن الكريم بالتفصيل في سورة كاملة، حملت اسم نبي الله يوسف.

وفي ذات السياق خلّدت سورة كريمة ثالثة، هي سورة البروج، ظلامة أخرى جرت على شهداء الأعداء. إن هذا يظهر بوضوح: أن المنهج القرآني لا يدعو بأي حالٍ إلى تجاهل الأحداث السابقة، ولا يدعو إلى نسيان المظالم التي وقعت في التاريخ الماضي، بخلاف ما فهمه البعض من الآية الكريمة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾.

وهذا ما يجرّنا إلى فهم الآية الكريمة على نحو مختلف، وهي أنها جاءت ضمن سياق ذم الافتخار والتباهي بأمجاد وفضائل الأمم الغابرة، فهذه الأمجاد ليست أمجادكم أنتم، ولن تحسب لكم اليوم بأي حال، إن لم تكن لكم أمجادكم

الخاصة. لقد جاءت الآية الكريمة في هذا السياق، وإلا فمنهج القرآن الكريم هو الحديث عن عبر وأحداث التاريخ، لغرض أخذ الدروس منها، كما أن ذلك من سيرة عقلاء البشر، فهم يحتفون ويخلدون المظالم التي جرت عبر تاريخهم.

والسؤال هنا: لماذا يخلد الناس المظالم التي حصلت في التاريخ؟

في الحقيقة، يعدّ استحضار تلك المظالم دافعاً لتقبيح الظلم في عيون الناس، وتأكيداً على إدانة العدوان، وتحصيناً للمجتمعات عن تكرار مثل تلك المظالم، هذا هو هدف عقلاء البشرية من تخليد المظالم السابقة.

ذكرى هيروشيما

نجد مثلاً كيف أن اليابانيين يحيون ذكرى إلقاء القنبلة الذرية الأولى على مدينة هيروشيما يوم السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥م، تلك المدينة الواسعة التي كان يسكنها مليون وأربع وأربعون ألف نسمة، فأحرقت القنبلة على نحو مباشر مساحة ١٣ كم مربع، وراح ضحيتها بين سبعين إلى مئة ألف نسمة منذ اللحظة الأولى، عدا عن آلاف الإصابات والموتى بسبب الإشعاع الذري الذي تركته تلك القنبلة، وكما هو معروف، ألقى الأمريكيون بعد ذلك بثلاثة أيام قنبلة ثانية على مدينة ناجازاكي اليابانية، الأمر الذي قاد لاحقاً لاستسلام اليابان لقوات الحلفاء، ونهاية الحرب العالمية الثانية^(١).

اللافت أن اليابانيين ومع علاقاتهم الوطيدة بالأمريكان، الذين ضربوا بلادهم بالقنبلة الذرية، لكن ذلك لم يمنعهم من أن يحتفلوا سنوياً بذكرى ضحاياهم، بجانب الأطلال التي خلفتها القنبلة في الميدان الرئيس لمدينة هيروشيما، وأصبح هذا اليوم في اليابان عطلة سنوية رسمية يتخلله احتفال رسمي وشعبي بذكرى هذه

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج ٢٦، الطبعة الثانية ١٩٤١هـ، (الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر)،

الظلامه التي حصلت. ويأتي المغزى الفعلي للاحتفال بهذه الذكرى المؤلمة، لتوجيه رسالة لأجيال البشرية جيلاً بعد آخر، مفادها بأن الإبادة واستخدام أسلحة الدمار الشامل كانت وستظل مستقبحة، وأنها لا ينبغي أن تتكرر مرة أخرى في تاريخ البشرية.

هذا النوع من إحياء الظلامه هو منهج عقلائي يحتفي بالمناسبة على نحو إيجابي، هو أبعد ما يكون عن اجترار وتوارث الأحقاد بينهم وبين الأمريكيين المعاصرين، فهم إنما يحتفون لإدانة الفعل ذاته، وإدانة من اتخذ القرار بإلقاء القبلة في وقته وعصره.

هولوكوست اليهود

وغير بعيد عنّا كيفية تعاطي اليهود مع ذكرى المحرقة، وأفران الغاز، التي راح ضحيتها مجاميع كبيرة من اليهود على يد النازيين الألمان، بقيادة الزعيم الألماني أدولف هتلر سنة ١٩٤١ و ١٩٤٢ والمعروفة بالهولوكوست. فقد ضخم اليهود هذه المأساة الحقيقية، وأعطوا أرقاماً مبالغاً للضححايا بلغت الستة ملايين، وهي أرقام لا يقبلها الكثير من العلماء والباحثين، ويصفونها بالتهويل. غير أن ما يهمنا هنا هو التمعن في كيفية استثمار اليهود لهذه الحادثة، في كسب المزيد من التعاطف الدولي لإيجاد وطن قومي خاص بهم في فلسطين، على حساب أهل الأرض الأصليين، ضمن سلسلة من المطامع التي تقاطعت مع مصالح الإدارات الغربية. وقد بلغ من أمر الاهتمام بهذه الذكرى أن أصبح مجرد التشكيك في أرقام الضحايا جريمة يحاسب عليها القانون في عدد من الدول، هذا إلى جانب تحديد الأمم المتحدة عام ٢٠٠٥م يوماً عالمياً للاحتفاء بذكرى المحرقة يصادف يوم ٢٧ يناير من كل عام.

إن إحياء ذكرى الهولوكوست يفترض أن يكون في جوهره إدانة للظلم والعدوان، لكن - وفي مفارقة لافتة - وجدنا كيف مارس هؤلاء الذين يعتبرون

أنفسهم ضحايا لعدوان النازيين ما هو أبشع مما مارسه النازيون بحقهم. فقد شرّد الإسرائيليون منذ إنشاء دولتهم الغاصبة على أرض فلسطين عام ١٩٤٨ شعباً كاملاً من أرضه، وبنوا دولتهم على أنقاضه، بعدما احتلوا أرضه، ومارسوا التنكيل والإبادة الجماعية في حق الشعب الفلسطيني، وذلك ضمن سلسلة متواصلة حتى اليوم من مشاهد الحرب المفتوحة، والحصار والتجويع والتخويف والقمع والإرهاب المنظم المدعوم من قبل الدول الغربية، وعلى مرأى ومسمع من العالم.

إحياء الظلمات منهج عقلائي

من هنا يتضح بأن منهج عقلاء العالم ينزع باتجاه تخليد المظالم السابقة في التاريخ، في سبيل تأكيد قبح الظلم وتحصين النفوس والمجتمعات من تكرار وقوع تلك الفظائع.

هنا تجدر الإشارة، كما أسلفنا، إلى أن الاحتفاء بتلك المناسبات الأليمة، لا يعني الانشغال بالماضي على حساب الحاضر، وليس توارثاً للأحقاد ضد من قاموا بتلك الأفعال، سيما وقد رحلوا عن هذه الحياة وانتهوا، بقدر ما هو إدانة الفعل ذاته والمنهج الذي خلف مثل هذه الأفعال العدوانية.

إذاً فالموقف المناسب من الظلمات التاريخية هو موقف الاهتمام بتلك الظلمات من أجل أخذ الدروس والعبر منها، ومن أجل تأكيد إدانة الظلم والظالمين في كل عصر من العصور؛ لأن الظلم والعدوانية من الجرائم التي لا تسقط بتقادم الزمن، فلا يمكن للظالم أن يتحول إلى قديس وعادل مع مرور الزمن. فالظالم، وإن تطاولت الأيام على ظلمه وتعاقبت الحقب على عدوانه، سيظل ظالماً معتدياً يستحق اللعن من الله والناس، وآيات القرآن الكريم تزخر بالكثير من الآيات في لعن الظالمين، ويزداد مقدار اللعن والطرده من رحمة الله بقدر حجم الظلامة، واتساع نطاقها، وأهمية الأشخاص الذين طالتهم؛ فإن عذاب الله وعقابه سبحانه وتعالى على الظالم سيكون أشد وأعظم.

وقد سبقت الإشارة إلى أن هناك لوتين من الاهتمام بحوادث التاريخ المؤلمة، أحدهما سلبي، يغرق في التفاصيل، ويرتب آثاراً على حساب مصالح الحاضر، والآخر إيجابي، يعنى بأخذ الدروس والعبر. فالحديث عن مظالم التاريخ يأتي بهدف التحصين دون تكرارها، ولتأكيد إدانتها والبراءة منها ومن مرتكبيها، وتهويل وقوع وأثر الظلم في النفوس.

□ ضحايا الرأي

تحدث القرآن الكريم في سورة البروج عن ظلامه تاريخية طالت شهداء الأعداء، الذين قضوا حرقاً على يد أعدائهم، لقاء إيمانهم بالله، وتمسكهم باعتقادهم، حتى آخر لحظة من حياتهم. وقبل الحديث عن هذه الظلامة التي تحكي مأساة من يطلق عليهم اليوم بضحايا الرأي، نشير إلى جدلية تناولها الفقهاء المسلمون بإسهاب حول مسائل القسم والحلف بغير الله عزَّ وجلَّ. فالسورة الكريمة تبدأ بأقسام متعددة ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدِ وَمَشْهُودِ ﴿٣﴾، فالله تعالى يقسم بالسماء ذات البروج، أي ذات الكواكب والنجوم، واليوم الموعود، أي يوم القيامة كما يرى أكثر المفسرين، وهو ما يتوافق مع قسم آخر في آية أخرى ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿٤﴾﴾ [سورة القيامة، الآية ١].

غير أن آراء المفسرين تضاربت بشأن المقصود من قول الله تعالى: ﴿وَشَاهِدِ وَمَشْهُودِ ﴿٣﴾﴾، فهناك من ذهب إلى أن الشاهد هو نبينا محمد ﷺ مستشهداً بقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [سورة الفتح، الآية ٨]، فالنبي ﷺ إذاً هو الشاهد، أما «المشهود» فقد قيل هو يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [سورة هود، الآية: ١٠٣]، وقيل هو يوم الجمعة، وفي قول ثالث أنه يوم عرفة، فيما ذهب بعض المفسرين إلى أنه لا يقصد من ذلك شيء بحد ذاته، وإنما يقسم الله تعالى بكل من يشهد شيئاً، وبكل شيء يُشهد.

الحلف بغير الله

لقد أقسم الله سبحانه وتعالى في آيات عديدة بمختلف الكائنات والمخلوقات، وغرض ذلك - حسبما نعتقد - لفت أنظار الناس إلى عظمتها التي تتجلى من خلال تلك المخلوقات والكائنات، فقد أقسم بالشمس: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ [سورة الشمس، الآيات ١-٣]، وأقسم بالتين والزيتون، وأقسم بالفجر وليال عشر، وهذا ما فجر نقاشاً محتدماً بين الفقهاء حول القسم بغير الله تعالى. إذ يتفق فقهاء المسلمين حول عدم صحة انعقاد القسم بغير الله وأسمائه وصفاته المختصة به، فلا تعتقد اليمين ولا يترتب عليها أي أثر ما دام بغير الله تعالى، فالحلف بغير الله لا يصح في القضاء وفض الخصومات، بل لا بد من الحلف بالله أو بإحدى صفاته التي هي رمز لذاته. لكن الاختلاف القائم هو في مدى جواز أن يحلف المسلم بغير الله.

ومردّ هذا الجدل يعود إلى أنه إذا كان الله تعالى يقسم بسائر مخلوقاته، كما يتضح من العديد من آيات القرآن الكريم، فكيف يكون القسم بها شركاً أو كفراً كما ذهب بعض الفقهاء؟، فقد رأى فقهاء الحنابلة على وجه الخصوص حرمة حلف الإنسان بغير الله، ويعضدون رأيهم هذا بأحاديث لإثبات أن الحلف بغير الله شكل من أشكال الشرك، فمن حلف بغير الله فقد أشرك على حدّ اعتقادهم. أما بقية المذاهب كالأحناف والمالكية والشافعية فيرون أن الحلف بغير الله مكروه، إما كراهة تحريم أو كراهة تنزيه، فهم يذهبون إلى أن الحلف بغير الله في أصله ليس حراماً ولا يصل عندهم إلى حد الشرك. فذهب الأحناف إلى كراهة الحلف بالأب والحياة من قبيل؛ وأبيك وحياتك وما شابه. وعلى ذات المنوال ذهب الشافعية إلى كراهة الحلف بغير الله إذا لم يكن باعتقاد الشرك. فيما أورد المالكية قولين في القسم بالعظماء والمقدسات كالنبي والكعبة، وهما: الحرمة والكراهة، والمشهور عندهم الحرمة.^(١)

(١) الموسوعة الفقهية. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ (مصر: دار الصفة)، ٧/ ٢٦٥.

ولعل السؤال هنا - كما أسلفنا - هو: كيف يكون الحلف بغير الله شرك، والله سبحانه وتعالى نفسه يقسم في القرآن الكريم بمخلوقاته! فهل يعقل أن يقول سبحانه وتعالى كلاماً أو يقسم قسماً وهو في حد ذاته شرك؟

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوتيه ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال: هل علي غيرهن؟ قال: لا، إلا أن تطوع وصيام شهر رمضان، فقال: هل علي غيره؟ فقال: لا، إلا أن تطوع، وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة، فقال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفَلَحَ وأبِيهِ إن صدق» أو قال: «دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَبِيهِ إن صدق»^(١).

ففي هذا الحديث يقسم رسول الله ﷺ بأبي ذلك الإعرابي حيث يقول: «أفَلَحَ وَأَبِيهِ إن صدق»، أي أقسم بأبيه.

أصحاب الأخدود

وبالعودة إلى مأساة أصحاب الأخدود الذي أوردت الآيات مأساتهم، وجعلت ربنا سبحانه وتعالى يسبق الحديث عنهم بالقسم بآياته، بما يوحى بعظم هذه الحادثة المهمة، فالأخدود هو الحفرة أو الشق الواسع في الأرض، وأصحاب الأخدود، هم الذين شقوا هذا الأخدود في الأرض وأوقدوا فيه النار. وتشير النصوص والآثار التاريخية إلى أن هؤلاء القوم حفروا حفرة عميقة في الأرض وأوقدوا فيها ناراً عظيمة، ثم جاؤوا بالمؤمنين الذين آمنوا بالله سبحانه وتعالى، وعرضوا عليهم أن

(١) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. صحيح مسلم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (الرياض: دار المغني) حديث ٩، ص ٢٥.

يتراجعوا عن إيمانهم، أو أن يلاقوا مصيرهم بأن يلقوا في النار، فرفض المؤمنون التراجع عن إيمانهم، والتنازل عن دينهم، فألقوا جراً مواقفهم الإيمانية في تلك النار المضطربة المتقدمة، ليقاها وجه ربهم.

وقد خلّد الله سبحانه وتعالى هذه الحادثة استنكاراً وإدانة لها، وتحصيئاً للمجتمعات عن تكرار أمثالها، فلم يتحدث القرآن الكريم عن تفاصيل مكان وقوع الحادثة، أو من قام بها؛ لأن منهج القرآن في الحديث عن التاريخ، ينزع باتجاه التركيز على جوهر القضايا، وهذا ما يدعونا للاستفادة من هذا المنهج، من خلال البعد عن الإغراق في التفاصيل على حساب جوهر القضية محلّ البحث.

فالقرآن لم يتحدث عن تفاصيل كثيرة حول قضية أصحاب الأعداء، وقد اختلفت أقوال المفسرين والمؤرخين حولها، ولكن من أشهر الآراء في هذا الصدد أن هذه الحادثة وقعت في اليمن، في عهد ذي نواس الذي كان آخر ملوك حمير، فقد تهوّد هذا الملك، أي أصبح يهودياً، وكان في نجران نصارى منذ عهد نبي الله المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، فغزاهم هذا الملك، وطلب منهم الرجوع عن دينهم فرفضوا، فحفر لهم الأعداء، وحينما أصروا على موقفهم قتلهم وألقاهم في تلك النار المضطربة المتقدمة^(١)، لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾، واختلف المفسرون في مغزى الفعل ﴿قُتِلَ﴾ وما إذا كان متعلقاً بالمقتولين أو القاتلين، فقد ذهب مفسرون إلى أن المقصود هنا هم المقتولين، بمعنى أن الآية تريد الإخبار بنبا مقتل أصحاب الأعداء، غير أن القول الأرجح هو أن المقصود في الآية هم القاتلون، والمعنى وفقاً لهذا القول بـ ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ أي لعن القوم الذين شقوا هذا الأعداء، فوصفتهم الآية بأصحاب الأعداء، ومما يرجح هذا القول أن الضمائر الأخرى في الآيات التي تلت هذه الآية كلها تعود

(١) ناصر مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، (بيروت: مؤسسة البعثة)، ٨٦/٢٠.

على أولئك القوم ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعود على أصحاب الأخدود، وهذا يرجح أن يكون المقصود من ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ يعني الفاعلين والقائمين بذلك القمع، ﴿الثَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ نار متقدة مضطربة، وتأتي في ذات السياق الآيتان: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا فُعُودٌ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، أما عن سبب ارتكابهم لهذا الفعل فتجيب الآية الكريمة بالقول: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

إن من أقبح أنواع الظلم أن يتعرض بنو البشر للاضطهاد نظير آرائهم أو اتجاهاتهم الفكرية، فيتحولون بذلك إلى ضحايا رأي، وفق التعبير الحديث. فمن المفهوم قيام الصراعات نتيجة تضارب المصالح الخاصة، والتنافس على المكاسب الذاتية، أما ارتكاب الظلم بحق الآخرين نتيجة اعتناقهم لآراء مختلفة، فهذا من أقبح أنواع الظلم. إذ كيف يجيز إنسان لنفسه أن يعاقب آخرين؛ لأن لهم رأياً يختلف عن رأيه، فكما أن لك رأيك فلا الآخرين آراؤهم، ومن حق الإنسان أن يكون له رأي، وأن يعبر عن رأيه، ولا يصح ولا يجوز أبداً أن يكون هناك اعتداء على إنسان؛ لأن له رأياً مختلفاً أو لأنه عبر عن رأيه.

من ضحايا الرأي في العهد الأموي

ومن أسف نقول بأن تاريخ البشرية شهد الكثير من المظالم التي طالت ضحايا لم يكن لهم من ذنب سوى أن لهم آراء مغايرة. وقد شهد تاريخنا الإسلامي وقائع كثيرة مؤسفة من هذا القبيل، فما هو ذنب الصحابي الجليل المعروف بالعبادة والفضل والورع حجر بن عدي رضوان الله تعالى عليه حتى يقتل صبياً؟ وما الجريمة التي قتل بسببها؟ هل كان له نزاع على ملك أو على سلطة أو على مكسب؟ فقد أوتي به هو وأصحابه إلى منطقة مرج عذراء، وعرض عليهم البراءة من أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام، فمن قبل البراءة أطلق سراحه، وقد أطلق سراح نصفهم بعدما تظاهروا بالبراءة من علي عليه السلام، أما من رفض البراءة كحجر وأصحابه فكان نصيبهم

القتل والشهادة، وذلك نزولاً عند أوامر معاوية بن أبي سفيان القاضية بأن يعرض عليهم البراءة من صاحبهم، أي الأمام علي بن أبي طالب، فإن لم يقبلوا تضرب أعناقهم، وبالفعل ضربت أعناقهم ظلماً وقتلوا صبراً، فأثار ذلك احتجاج الكثير من المسلمين، حتى إن أم المؤمنين عائشة احتجت على معاوية جراء قتله حجراً، ولذلك يبقى السؤال قائماً: لماذا قتل حجر؟ وبأيّ ذنب قتل هو أصحابه؟. ويروي ابن كثير في هذا السياق أن معاوية جعل يغرغر بالموت وهو يقول: (إن يومي بك يا حجر بن عدي لطويل)^(١)، مما يعني أن هذه الحادثة الشنيعة كانت شاخصة أمام بصره وقد ندم على فعلها حتى آخر لحظات احتضاره وموته.

وعلى غرار ما سبق، وقعت أحداث مؤسفة كثيرة، ومنها ما جرى على خبيب بن عبيد الله بن الزبير عند مخالفته الوليد بن عبد الملك لما أراد الأخير إضافة الحُجَر - أي بيت رسول الله ﷺ - إلى المسجد النبوي الشريف. فقد كان رأي خبيب أن إضافة الحُجَر إلى المسجد ستعني تلقائياً إلغاء آية من كتاب الله تعالى وهي ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ فأثار ذلك غضب الوليد، فأمر عامله بأن يجلد خبيب مئة سوط، وأن يلقي عليه قربة ماء بارد في يوم قارس البرودة، ونفذ ذلك الأمر بالفعل فمات خبيب في وقته وساعته^(٢).

وقد روى لنا التاريخ حوادث جمّة، راح ضحيتها أصحاب رأي، كان كل ذنبهم أن تمسكوا بأرائهم الخاصة. ولعل القرآن الكريم عندما أورد حادثة الأخدود أراد أن يشير إلى أن السبب وراء ذلك لم يكن سوى القمع والعدوان على أصحاب الرأي، وليسלט الضوء على بشاعة الاعتداء على أي صاحب رأي لمجرد تبنيه رأياً مخالفاً. وقد جاءت المواثيق الحقوقية الدولية وشرعة حقوق الإنسان لتقرر

(١) الحافظ بن كثير الدمشقي. البداية والنهاية ج ٨، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص ٥٨.

(٢) أحمد بن أبي يعقوب بن وهب الكاتب. تاريخ يعقوبي. ج ٣، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ، (النجف: المكتبة الحيدرية)، ص ٢٩.

هذه الحقيقة التي قررها القرآن الكريم في إدانة العدوان على أي أحدٍ على أساس رأيه، فضلاً عن رفض معاقبة أو انتهاك حقوق أي جماعة وممارسة التمييز ضدهم، والاعتداء على حقوقهم لا لشيءٍ إلا لأنهم يرون رأياً مختلفاً، أو يعتنقون مذهباً معيناً، ويؤمنون بفكرة مغايرة، هذا من أبشع أنواع الظلم، وهؤلاء المعتدى عليهم يدخلون حتماً في عداد ضحايا الرأي.

□ فاجعة كربلاء في التاريخ الإسلامي

تعتبر فاجعة كربلاء منعطفاً كبيراً في التاريخ الإسلامي، مع أن أحداثاً كثيرة قد حصلت في تاريخ الأمة، إلا أن تلك الأحداث كانت مشوبة بشبهة الصراع السياسي، والاختلاف على المصالح، والنزاع على المكاسب، وهذا لا يلغي حقيقة أن هناك محققاً ومبطلاً في جميع هذه الأحداث، فهذا أمر واضح لا يمكن تجاهله أو التنكر له. لكن ما يميز واقعة كربلاء هو تجلي أعلى قمم البشاعة والوحشية التي ارتكبت من قبل جنود بني أمية، ضد عترة رسول الله ﷺ، وعلى رأسهم الإمام الحسين ﷺ. فلا أحد من المسلمين يجهل مكانة الإمام الحسين ﷺ، لا من الماضين ولا من المعاصرين، وأحاديث رسول الله ﷺ في فضل الحسين ثابتة عند جميع المسلمين، فطالما رأى الأصحاب رسول الله ﷺ وهو يحمل الحسن والحسين على صدره ويقول عنهما: هذان (سيّدا شباب أهل الجنة)^(١)، وقد روي عن النبي ﷺ أنه يطيل السجود عندما يمتطي الحسين ظهره ﷺ فيسأل فيقول: (ابني هذا امتطي ظهري فما أحببت أن أزعجه حتى ينزل من تلقاء نفسه)^(٢)، فالمسلمون جميعاً يعرفون فضل الحسين، ومقام الحسين، فماذا فعل الحسين حتى يواجه

(١) علاء الدين علي المتقي الهندي. كنز العمال. ج ٧، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص ٢٦.

(٢) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار. ج ٣٨، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، (بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي)، ص ٨١.

بالقتل على هذا النحو البشع، سوى إعلان رأيه الديني والسياسي في رفض البيعة ليزيد بن معاوية، وقد قالها صراحة في خطابه للجيش الأموي: (وإن كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم)^(١)، ولكنهم حاصروه وأصروا على قتله، بتلك الطريقة الشنيعة هو وكوكبة من أهل البيت. فقد قال الحسن البصري: (قتل مع الحسين بن علي ستة عشر من أهل بيته ما كان لهم على وجه الأرض شبيه)^(٢)، فلم يكونوا أشخاصاً عاديين، كما لم تكن المسألة داخلية ضمن دائرة الحروب المألوفة، حيث القتال والقتل المتبادل، لينتهي بغلبة جهة معينة وينتضي الأمر، وإنما مارس الجيش الأموي أبشع أنواع التمثيل والوحشية بجسد الإمام الحسين عليه السلام، حيث أوطؤوا الخيول جسده الشريف، حتى كسرت أضلاعه، ومزقت أشلاءه إنفاذاً لأمر ابن زياد لعمر بن سعد حيث كتب له: (فإن قتلت حسيناً فأوطئ الخيل صدره وظهره)^(٣)، وهجموا على خيام النساء والأطفال وفعلوا ما فعلوا، وكانت فيها زينب بنت أمير المؤمنين و بنت فاطمة الزهراء، ومعها أطفال وأيتام إلى جانب النساء المثكولات في أزواجهن وأبنائهن، بل لم يكتف القتل بذلك حتى حملوا رأسه الشريف عليه السلام ورؤوس الهداة من أهل بيته و طافوا بها في البلدان.

هذه البشاعة الشديدة هي التي توجب تخليد هذه الظلامية، وأن يحتفى بها كل عام، بل كل يوم، حتى تبقى في ذاكرة الأمة شاهداً على ما أصاب ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله من بلاء، وشاهداً على قبح الظلم والعدوان، وحتى يستفاد منها الدروس والعبر.

(١) باقر شريف القرشي. حياة الامام الحسين بن علي، ج٣، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، (بيروت: دار

البلاغة)، ص ٧٥

(٢) المصدر نفسه. ٤٥ ص ٦٤.

(٣) حياة الإمام الحسين بن علي، ج٣، ص ١٣١.

إن إحياء هذه الفاجعة لم يكن أمراً من وحي ردود الفعل السياسية والاجتماعية من الشيعة، وإنما كان بتعاليم وتوجيهات من أهل البيت عليهم السلام، فهم وجهوا شيعتهم لإحياء ذكرى هذه الفاجعة، فقد كان الإمام الرضا عليه السلام يحث شيعته على الاحتفاء بهذه المناسبة، وكان يشجع الشعراء على إنشاء القصائد في هذه المأساة، حتى إنه عليه السلام لم يكن يخفي ألمه وحزنه وبكاءه عندما يستمع لتلك القصائد، كما حدث عندما دخل عليه دعبل الخزاعي وأنشد أمامه قصيدته الرقيقة، وتناول فيها المآسي والفجائع التي حلّت بأهل البيت، وكان مما قاله دعبل:

أفطم لو خلت الحسين مجدلاً	وقد مات عطشاً بشط فرات
إذن للطمت الخد فاطم عنده	وأجريت دمع العين في الوجنات
أفطم قومي يا ابنة الخير واندبي	نجوم سماوات بأرض فلاة

علي نفس الرسول

- قيمة القرب من رسول الله
- خصائص الإمام علي
- علي حاجة العصر

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ
تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ
وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى
الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦١]

□ قيمة القرب من رسول الله

لا شك أن الاقتراب من أي عظيم من العظماء يكسب الإنسان قيمتين: قيمة ذاتية، وأخرى اعتبارية. فعلى المستوى الذاتي يستفيد الإنسان من علم وتجارب وأخلاق العظيم الذي يقترب منه، ولهذا كانت صحبة الأخيار والعلماء أمراً محبذاً ومرغوباً فيه؛ لأن صحبة هؤلاء الصالحين تكسب الإنسان من صلاحهم وفضلهم.

أما من الناحية الاعتبارية فيكتسب القريبون من العظماء احترام وتقدير من حولهم، وذلك انبثاقاً من احترام الناس لذلك العظيم أو الزعيم.

ضمن هذا السياق نفهم جانباً من علة توجيه الشريعة للتواصل مع أصدقاء الأبوين، فقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: (من البر أن تصل صديق أبيك)^(١)، ذلك لأن المحبة التي تكنها لأبيك يفترض أن تدفع بك لاحترام وحب من كان إلى جانب أبيك. من هنا درج الناس على النظر باحترام إلى من يكون بقرب أي عظيم من العظماء.

(١) كنز العمال ج١٦، ص٤٦٥، حديث ٤٥٤٦٣.

لا ريب بأن رسول الله ﷺ هو أعظم عظماء البشرية، وأفضل خلق الله، وبذلك يكون القرب منه ﷺ بحد ذاته قيمة وسبباً من أسباب الفضل. ذلك أن القريين منه ﷺ يفترض فيهم الإفادة والاكْتساب من هدي الرسول وفضله، كما أن قريهم كفيل بخلق الحظوة والمكانة لهم بين الناس. لكن هذه الفضيلة لن تكتسب ما لم تكن لدى الإنسان الأهلية والاستعداد حتى يكتسب من فضيلة القرب من هذا العظيم.

إذ إن مجرد ملازمة بعض الناس لأيّ عالم من العلماء، فضلاً عن أحد العظماء، دون أن يكون لديهم الاستعداد والاهتمام في التلقي والاكْتساب، فإنه لن يجديهم هذا القرب نفعاً. كذلك الأمر بالنسبة لمن عاصر النبي الأكرم ﷺ، فليس من الحتمي اكْتساب جميع معاصريه ﷺ من هديه وفضله، إلا بمقدار ما توفرت لديهم الأهلية والرغبة في اكْتساب المعرفة والفضائل. وقد أشارت الآيات الكريمة إلى هذا المعنى، من خلال تناول صنف من الناس ممن لم يستفيدوا مطلقاً من وجود هذا النبي العظيم بينهم، لانعدام الصدق والإخلاص فيهم، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠١].

وقد عاش رأس المنافقين عبد الله بن أبي مع رسول الله وكان يحضر المسجد ويسمع خطب رسول الله ﷺ، ويؤدي الصلاة معه، ويشارك في بعض الغزوات، لكن هذا القرب من النبي لم يستفد منه بن أبي شيئاً، حيث اشتهر بالنفاق وانعدام الصدق والإخلاص. ويذكر في هذا السياق أن بن أبي عندما داهمه مرض الموت، حضر ابنه عبد الله عند النبي الأكرم وكان مؤمناً، فقال: (يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إنك إن لم تأت أبي كان ذلك عاراً علينا)^(١)، فاستجاب رسول الله ﷺ وجاء لعيادته في مرضه الذي مات فيه، حتى إن عبد الله بن أبي طلب من رسول الله ﷺ

(١) بحار الأنوار ج ٢٢، ص ٩٦.

أن يعطيه قميصه ليكفن به، وخاطب النبي ﷺ قائلاً: (يا رسول الله، ليس بحين عتاب! هو الموت، فإن مت فاحضر غسلني وأعطني قميصك أكفن فيه. فأعطاه الأعلى، وكان عليه قميصان فقال: الذي يلي جلدك. فنزع قميصه الذي يلي جلده فأعطاه)^(١)، غير أن قرب عبد الله بن أبي من النبي لم يعد عليه بفائدة تذكر؛ لأنه كان عديم الصدق والإخلاص، إذ لا توجد نتيجة حتمية واحدة لمجرد معاصرة النبي، فقد أحصى المؤرخون أن من كانوا حول رسول الله ﷺ ورأوه وسمعوا حديثه، يزيد عددهم على مئة ألف من الرجال والنساء، جميعهم يطلق عليهم بالعنوان العام اسم الأصحاب أو الصحابة، فهل كانت استفادة هؤلاء من وجودهم قرب رسول الله ﷺ بمستوى واحد؟ وهل كانوا جميعاً بدرجة واحدة من الصدق والإخلاص؟

إن هناك إجماعاً لدى الأمة على أن أصل القرب من الرسول ﷺ يشكّل قيمة وفضيلة، حتى مع إقرار القرآن الكريم بوجود بعض المنافقين حول النبي ﷺ. وقد اتفق المسلمون على فضل ومكانة أهل بيت رسول الله ﷺ، ليس لأنهم ذرية النبي فحسب، ولكن لأنهم كانوا الأقرب منه ﷺ، فنهلوا واكتسبوا من علمه ﷺ، ولأنهم اخلصوا وصدقوا واستقاموا، لهذا وردت النصوص بفضلهم، وأمر رسول الله ﷺ بمحبتهم، كما فرض القرآن مودّتهم، يقول تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٣].

فضل الصحابة

كذلك الأمر بالنسبة لصحابة رسول الله وزوجاته ﷺ، فقد اتفق المسلمون على أن الأصل أن لهم فضل الصحبة، وأن لزوجات النبي حرمة باعتبارهن أمهات المؤمنين بنص القرآن الكريم ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾

(١) محمد بن عمر بن واقد. كتاب المغازي ج ٣، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص ١٠٥٧.

[سورة الأحزاب: الآية ٦]، فصحبة رسول الله ﷺ فيها فضل على اختلاف بين المسلمين مداره الجدلية حول مطلق عدالة الصحابة، وهل أن كل واحد منهم عدل، وكلامه حجة يؤخذ به؟

الشيعة أتباع نهج أهل البيت لا يرون مطلق العدالة لجميع الصحابة، إنما يعتقدون بأن صحبة النبي الأكرم مشروطة بالصدق والإخلاص الاستقامة، وأن ذلك ما يفترض أن يكون الأصل في الصحابة إلا إذا ثبت العكس، عندها ينتفي ذلك الفضل، وتبعاً لذلك لا يكون كل صحابي عدلاً، ولا يعد كلام كل واحد منهم حجة.

على الطرف الآخر، يرى جمهور أهل السنة مطلق عدالة الصحابة بشكل عام. الشيعة يعتقدون بأن أصل صحبة النبي الأكرم فيه فضل، وعليه لا صحة للاتهامات التي تطال شيعة أهل البيت من أنهم يقفون بالصد من الصحابة، وأنهم يبغضونهم ويسبونهم. ذلك لأن شيعة أهل البيت يقرؤون القرآن الكريم، ويقرؤون قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩]، كما يقرأ الشيعة كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ في نهج البلاغة وهو يمتدح جهاد وإخلاص من كانوا حول رسول الله ﷺ، فيقول في إحدى خطبه: (لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَمَا أَرَى أَحَدًا يُشَبِّهُهُمْ مِنْكُمْ لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثًا غُبْرًا وَقَدْ بَاتُوا سُجَّدًا وَقِيَامًا يَرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ)^(١).

وفي السياق نفسه، ورد في الصحيفة السجادية في الدعاء الرابع من أدعية الإمام زين العابدين ﷺ الذي خصه للصلاة على أصحاب الرسل وأتباعهم، وخص بإحدى فقراته أصحاب رسول الله ﷺ بقوله: (اللَّهُمَّ وَأَصْحَابَ مُحَمَّدٍ

(١) نهج البلاغة. خطبة ٩٧، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، ص ١٤٣.

خَاصَّةً الَّذِينَ أَحْسَنُوا الصَّحَابَةَ وَالَّذِينَ أَبْلَوْا الْبَلَاءَ الْحَسَنَ فِي نَصْرِهِ، وَكَانْفُوهُ، وَأَسْرَعُوا إِلَى وَفَادَتِهِ، وَسَابَقُوا إِلَى دَعْوَتِهِ، وَاسْتَجَابُوا لَهُ حَيْثُ أَسْمَعَهُمْ حُجَّةَ رِسَالَاتِهِ. وَفَارَقُوا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ فِي إِظْهَارِ كَلِمَتِهِ، وَقَاتَلُوا الْأَبَاءَ وَالْأَبْنَاءَ فِي تَثْبِيتِ بُيُوتِهِ، وَأَنْتَصَرُوا بِهِ. وَمَنْ كَانُوا مُنْطَوِينَ عَلَى مَحَبَّتِهِ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ فِي مَوَدَّتِهِ. وَالَّذِينَ هَجَرَتْهُمْ الْعَشَائِرُ إِذْ تَعَلَّقُوا بِعُرْوَتِهِ، وَأَنْتَفَتْ مِنْهُمْ الْقَرَابَاتُ إِذْ سَكَنُوا فِي ظِلِّ قَرَابَتِهِ^(١). لذلك لا صحة للمزاعم التي يروجها البعض من أن الشيعة يحترمون أربعة من الصحابة فقط.

حاکمية القيم

إن مجمل الرؤية الشيعية تجاه موضوع الصحابة تنلخص في حاكمية القيم على الجميع، وعليها يقوم معيار الصواب والخطأ في أقوال وأفعال جميع الناس، سواء كانوا صحابة أو غيرهم، فهم لا يرون أن جميع الصحابة عدول، وأن كل فرد منهم كلامه حجة، بل يقيسون أعمال كل واحد منهم بمعيار القيم. فالشيعة ليسوا ضد الصحابة، بل يحبونهم ويوقرونهم، ويكفي أن نقول أن من الصحابة من قاتل إلى جانب علي عليه السلام في حرب صفين، ومنهم أكثر من سبعين بدرياً، وثمان مئة من أصحاب بيعة الرضوان، وأربعمائة من سائر صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وجاء في مروج الذهب أن عدد الصحابة الذين كانوا في صف الإمام علي عليه السلام في صفين ألفان وثمان مئة صحابي^(٢)، فيما لم يتجاوز عدد الصحابة الذي كانوا مع معاوية بن أبي سفيان أصابع اليد، فكيف يصح القول بأن الشيعة لا يقبلون الصحابة، ولا يحبونهم، ولا يحترمونهم؟ هذا كلام ليس صحيحاً.

إن من إحدى المشاكل التي ابتليت بها الأمة هي النظر إلى الشخصيات وإلى

(١) صحيفة زين العابدين. دعاء رقم ٤ (دعاؤه في الصلاة على أتباع الرُّسُل ومُصَدِّقِيهِمْ)، ص ٤٦.

(٢) علي بن الحسين بن علي المسعودي. مروج الذهب، ج ٢، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ، (قم المقدسة: دار الهجرة)، ص ٢٥٢.

العظماء من زاوية طائفية ضيقة. فهناك من لا زال يحجم عن الحديث عن فضائل أهل البيت عليهم السلام متوهماً بأن مثل هذا الحديث هو انتصار للشيعة، وفي المقابل هناك من يحجم عن الحديث عن الصحابة لأن في ذلك انتصاراً لأهل السنة من وجهة نظره. وينطبق الأمر ذاته على الدائرة الأوسع، فمع إيمان المسلمين بجميع الأنبياء وعدم التفريق بين أحد منهم، إلا أننا نواجه النظرة الضيقة ذاتها، فلا تجد الاحتفاء بنبي الله عيسى عليه السلام أو نبي الله موسى عليه السلام بالقدر المطلوب، وكأن في الاحتفاء بهما محاباة لليهود والمسيحيين.

أخبرني أحد الباحثين في الرياض أنه طلب منه إعداد برنامج إذاعي حول شباب الصحابة ممن كانوا حول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأبدي موافقته واختار البدء في أول حلقاته بالحديث عن شخصية الإمام الحسين عليه السلام، إلا أنه جوبه باعتراض مسؤول البرنامج، وعندما استنكر الباحث رفض ذلك المسؤول تناول شخصية الإمام الحسين في البرنامج، أوضح المسؤول بأن الحديث عن الحسين قد يفسر بأنه استجابة لتأثير شيوعي!!، إن التفكير على هذا النحو مسلك خطأ، وهو يعادل التصور الخطأ لدى بعض الشيعة من أن الحديث عن فضل الصحابة هو استجابة لتأثير سني.

□ خصائص الإمام علي

إذا كان القرب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُمثل قيمةً وشرفاً عظيماً، فعلينا أن نتساءل: من كان الأقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ لأنه من الطبيعي أن يكون الأوفر حظاً، والأكثر نصيباً، من هذه القيمة والشرف. وحين نتأمل، ونتصفح تاريخ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلن نجد أحداً أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد نال من ذلك ما لا يوازيه فيه أحد من الصحابة. ونذكر هنا جملةً من الخصائص التي اختص بها الإمام علي عليه السلام دون سواه في مجال صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقرب منه:

أولاً: عليُّ نفس الرسول

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

وقد ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «أكبر فضيلة لعلي في القرآن الكريم آية المباهلة»^(١)، لأن الآية الكريمة تنزل للإمام علي عليه السلام بمنزلة النفس من رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد ترجم ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله عملياً حين خرج لمباهلة نصارى نجران، ففي السيرة النبوية: أن رسول الله صلى الله عليه وآله أقبل إلى نصارى نجران ليباهلهم، وكان معه عليٌّ، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام، وذكر الألويسي، وهو من علماء أهل السنة، في تفسيره (روح المعاني): «أن أسقف نجران لما رأى رسول صلى الله عليه وآله مقبلاً ومعه عليٌّ وفاطمة والحسنان عليهم السلام قال: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تباهلوا وتهلكوا»^(٢)، وقال: «وفي القصة أوضح دليل على نبوته صلى الله عليه وآله وإلا لما امتنعوا عن مباهلتهم، ودالتهما على فضل آل رسول الله صلى الله عليه وآله مما لا يمتري فيها مؤمن»^(٣).

وقد اتفق المفسرون أن ﴿أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ تعني: الحسن والحسين عليهم السلام، ﴿وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ تعني: فاطمة الزهراء عليها السلام، ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ تعني: علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو نفس رسول الله.

فإذا كان القرآن الكريم يصف علياً بأنه نفس رسول الله صلى الله عليه وآله، فمن الطبيعي أن تكون نفس الرجل أفضل من أصحابه، وجميع من حوله.

(١) بحار الأنوار. ج ١٠٩، ص ٤.

(٢) شهاب الدين السيد محمود الألويسي. روح المعاني، ج ٣، الطبعة الرابعة ١٩٨٥ م، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص ١٨٨.

(٣) المصدر نفسه. ص ١٨٩.

ثانياً: عليّ نشأ في حجر الرسول

من ناحيةٍ أخرى، فإننا إذا قرأنا التاريخ نرى عمق العلاقة التي تجمع بين رسول الله ﷺ والإمام عليّ عليه السلام. فالرسول ﷺ نشأ في بيت عمه أبي طالب عليه السلام، وبرعايته ورعاية فاطمة بنت أسد عليها السلام، وهما والدا الإمام عليّ عليه السلام. وشاءت حكمة الله تعالى، أنه بعد ولادة الإمام عليّ عليه السلام، يصبح الوضع الاقتصادي لأبي طالب وضعاً صعباً، فتحدّث رسول الله ﷺ مع عمّه العباس وقال له: يا عم، إن أبا طالب وضعه الاقتصادي ضعيف، فلو ذهبنا إليه لتأخذ أنت واحداً من أولاده، وأخذ أنا واحداً منهم، نكفيه مؤونتهما، فقال العباس: نعمت المشورة، فذهبنا إلى أبي طالب وعرضنا عليه الأمر، فقال أبو طالب: «دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتما»^(١)، لأن أبا طالب كان يُحبّ عقيلاً حباً مميّزاً، ولذا روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحبّ عقيلاً حبّين: حبّاً له، وحبّاً لحبّ عمي أبي طالب إياه»^(٢). فأخذ العباس جعفر بن أبي طالب، وأخذ رسول الله ﷺ علياً عليه السلام، وكان صغير السن، فتربى عليّ عليه السلام في حجر رسول الله ﷺ، وقد أشار لهذا الأمر في إحدى خطبه، يقول ﷺ: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزَلَةِ الْخَصِيصَةِ وَصَعْنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ وَيُمَسِّنِي جَسَدَهُ وَيُسَمِّنِي عَرَفَهُ وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ»^(٣)، وورد عنه عليه السلام أنه قال: «استوهبني رسول الله ﷺ عن أبي في صباي وكنت أكيله وشريبه ومؤنسه ومحدثه»^(٤)، وقال ﷺ: «كنت في أيام رسول الله كجزء من رسول الله»^(٥).

(١) أبو الفرج الأصفهاني. مقاتل الطالبين، (بيروت: دار المعرفة)، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، ص ٢٦.

(٢) علي بن برهان الدين الحلبي. السيرة الحلبية، ج ١، (بيروت: دار المعرفة)، ص ٤٣٢.

(٣) نهج البلاغة. خطبة ١٩٢، ص ٣٠٠.

(٤) الشيخ الصدوق. الخصال، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، (بيروت: دار المرتضى)، ص ٥٧١.

(٥) ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة ج ٢٠، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: دار الجيل)، ص ٢٢٦.

ثالثاً: عليُّ زوج البتول

وحينما بلغت فاطمة الزهراء عليها السلام مبالغ النساء، جاء كبار الصحابة لخطبتها، وينقل لنا التاريخ أن أبا بكر، وعمر بن الخطاب، وعددًا من الصحابة قد خطبوا الزهراء عليها السلام، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله اعتذر إليهم. وحينما أقبل الإمام علي عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله خاطباً الزهراء عليها السلام جاء الأمر الإلهي لرسول الله صلى الله عليه وآله: «زوج النور من النور، قال: من ممن؟ فقال: فاطمة من علي»،^(١) وهذه من الخصائص الفريدة لعلي عليه السلام.

رابعاً: عليُّ أخو الرسول

وينقل لنا التاريخ مفصلاً عمق العلاقة التي جمعت بين رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام، فحين جاء صلى الله عليه وآله إلى المدينة آخى بين أصحابه، من المهاجرين والأنصار، فقال علي عليه السلام: يا رسول الله إنك قد آخيت بين أصحابك فمن يكون أخي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أما ترضى يا علي أن أكون أباك؟ فقال علي: بلى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»^(٢)، وهذه ميزة أخرى تُضاف لمناقب علي بن أبي طالب عليه السلام.

وقد استمرت العلاقة الوثيقة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام إلى آخر لحظة من حياة الرسول الكريم، يقول الإمام علي عليه السلام يقول: «وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي فَأَمَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ صلى الله عليه وآله وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي... فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا»^(٣).

خصائص الإمام

فهل هناك أحدٌ أولى برسول الله وأقرب إليه من الإمام علي؟! الذي تميّز

(١) بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١١١.

(٢) محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. المستدرک علی الصحیحین ج ٣، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص ١٦، حديث ٤٢٨٩.

(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٩٧، ص ٣١١.

علاقته بحيث لم يحظَ بمثلها أحدٌ من ذوي القربى ولا من الصحابة، فقد خصَّ رسول الله ﷺ الإمام علياً ؑ بلقاءٍ خاص يومياً، وقد ذكر النسائي هذا الأمر في كتابه عن خصائص الإمام علي ؑ، فنقل ما قاله الإمام علي ؑ في ذلك: «كان لي لرسول الله ﷺ مدخلان: مدخل بالليل ومدخل بالنهار»^(١)، وقال ؑ: «كُنْتُ إِذَا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَانِي وَإِذَا سَكَتُ ابْتَدَأَنِي»^(٢).

ولذا فإن عدداً من علماء المسلمين، من السنة والشيعة، كتبوا حول خصائص الإمام علي ؑ، ومنهم: المحدث النسائي، صاحب سنن النسائي، الذي ألف كتاباً حول خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ، وكذلك الطبري له كتابٌ حول خصائصه، وغيرهما.

وقد سئلت عائشة عن أحب الناس إلى رسول الله، فقالت: فاطمة، قيل من الرجال، قالت: زوجها.^(٣)

وبالعودة لحديث المباهلة، وهو الحديث الثابت والمتفق عليه، والذي لا يماري في صحته أحد، ورد في صحيح مسلم في باب فضائل علي بن أبي طالب عن سعد بن أبي وقاص أن معاوية بن أبي سفيان عاتبه بالقول: يا سعد، ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال سعد: ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ، فلن أسبه أبداً، لو أن لي واحدة منهن كان خيراً لي من حمر النعم. الأولى حين خلفه رسول الله ﷺ في المدينة في بعض مغازيه - غزوة تبوك - فقال علي ؑ: تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبوة بعدي»، والثانية في خيبر حينما قال ﷺ: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فتناولت أعناقنا، فدعا علياً فجاء وهو أرمد،

(١) أحمد بن شعيب النسائي. خصائص النسائي، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ص ٢٢٠، حديث ١١٧.
 (٢) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. سنن الترمذي ج ٤، الطبعة الأولى ١٤٠٢١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص ٤٧٦، حديث ٣٧٢٢.
 (٣) المستدرک علی الصحیحین. ج ٣، ص ١٥٨.

فبصق من فيه، فأصابته عينه، وأعطاه الراية، والثالثة لما نزلت قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ خرج رسول الله ﷺ ومعه علي وفاطمة والحسنان^(١)، وقد صحح الحديث ابن تيمية في منهاج السنة بقوله: (أما أخذه علياً والحسن والحسين في المباهلة فحديث صحيح رواه مسلم)^(٢).

فهذا الحديث الصحيح يثبت دون شك أن علياً ﷺ هو الأقرب إلى رسول الله ﷺ وهو أكثر من استفاد من علمه وهديه وأخلاقه، ولذلك عدّه الرسول ﷺ كنفسه، ناهيك عن الأحاديث الكثيرة الأخرى، ومنها قوله ﷺ: (علي مني وأنا من علي)^(٣)، وفي صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال له: (يا علي، أنا منك وأنت مني)^(٤)، فعلاقة النبي بعلي كانت وثيقة وعلى مستوى من العمق بحيث لا تجاريها علاقة أخرى بين النبي وأي أحدٍ آخر.

□ عليُّ حاجة العصر

حينما نتحدث عن علي بن أبي طالب ﷺ، ونتمسك بولايته، ونكرر في دعائنا: اللهم ثبتنا على محبته وولايته؛ فهذا إنما يُعبّر عن التزامنا بمنهجه الذي نحتاج إليه في كلِّ عصر، وخاصةً في هذا العصر. فالإمام علي ﷺ ليس مجرد شخص في التاريخ، وليست المسألة مجرد إعجابٍ بشخصيته؛ وإنما لحاجة البشرية اليوم لفكره وهديه وسيرته، فذلك يمثل المطلب الأساس لتجاوز البشرية ما تعيشه من

(١) صحيح مسلم، حديث رقم ٣٢.

(٢) أحمد بن تيمية الحراني. منهاج السنة النبوية ج ٤، الطبعة الأولى ١٣٢٢ هـ (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية)، ص ٣٤.

(٣) كنز العمال ج ١١، ص ٦٠٣.

(٤) محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري ج ٣، الطبعة الأولى ١٩٩٩ م، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص ٨٣، حديث ٤٢٥١.

ظلام الجهل والاستبداد والتخلف.

فأهمّ ما تحتاجه البشرية اليوم، هو العدل الغائب عن هذا العالم، وأهم خطرٍ تعاني منه البشرية هو الظلم والجور، وعلي بن أبي طالب عليه السلام سطر في سيرته وحياته أروع نموذج للعدل. وحين تحدث عنه الأديب المسيحي جورج جرداق وألف كتابه عن سيرته في خمسة مجلدات أطلق عليه عنوان: الإمام علي عليه السلام صوت العدالة الإنسانية.

وحين نتأمل في فكر الإمام علي عليه السلام نجد أنه يركز على العدل، كما أن سيرته قامت على تشييد العدل، ومقاومة الظلم، يقول الإمام علي عليه السلام: «العدل أساس به قوام العالم»^(١)، ويقول عليه السلام: «العدل حياة»^(٢)، ويقول عليه السلام: «بالعدل تتضاعف البركات»^(٣)، ويقول عليه السلام: «ما عمرت البلاد بمثل العدل»^(٤). فما أحوج البشرية لهذا الفكر، وما أحوجها لهذه السيرة.

ومع الأسف، فإن سيرة الإمام علي عليه السلام غائبة عن البشرية اليوم، ولا شك أن أتباع علي عليه السلام مقصرون في ذلك؛ لأنهم لم يكتشفوا حقيقة شخصيته عليه السلام، ولم يعرضوها للعالم في صورتها المشرقة، فهو لا نظير له في تاريخ البشرية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول عليه السلام: «وَاللَّهِ لَأَنَّ آيَةَ عَلِيٍّ حَسْبُكَ السَّعْدَانِ مُسَهَّدًا أَوْ أُجْرَ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّدًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ وَغَاصِبًا لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ»^(٥) ويقول في مورد آخر: «وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيَ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ

(١) بحار الأنوار. ج ٧٥، ص ٨٣

(٢) عبدالواحد الأمدي التميمي. غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص ٢٠، حكمة ٣٠٧.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم. ص ٢٩١، حكمة ٣٣.

(٤) حسين النوري الطبرسي. مستدرک الوسائل ج ١١، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ص ٣٢٠.

(٥) نهج البلاغة. خطبة ٢٢٤، ص ٣٤٦.

أَفَلَا كَيْهًا عَلَيَّ أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبَهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»^(١).

صوت العدالة

فهذا الرجل عاش للعدل، وخالف كل ما يخالف العدل، ولو كان في ذلك ذهاب أهم المكاسب الدنيوية، والمناصب السلطوية. فحينما آلت إليه الخلافة والحكم ساوى بين الناس في العطاء، فحذّره البعض من أن هذه المساواة قد تفقده الكثير من الأتباع والأعوان، فالشخصيات المرموقة إن لم يميّزوا لا يقفون إلى جانبه، ولكن علياً عليه السلام رفض ذلك، وقال في جوابه لهؤلاء: «أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ وَاللَّهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ».

ولهذا عاش الناس في ظل علي بن أبي طالب عليه السلام وهم ينعمون بالعدل، والرفاهية، وقد خاطب الإمام علي عليه السلام أهل الكوفة أو آخر حياته بقوله: «ما أصبح أحد في الكوفة إلا ناعماً، وإن أدناهم منزلة لمن يأكل من البر، ويسكن في الظل، ويشرب من ماء الفرات»^(٢)؛ يأكل من البر: أي لديه ما يكفيه من الطعام، ويسكن في الظل: بمعنى أن عنده سكناً يأوي له.

وقد كان الإمام علي عليه السلام يتأوه ويتألم لاحتمال أن هناك جائعاً في مناطق بعيدة عن العاصمة، يقول عليه السلام: «وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفِّي هَذَا الْعَسَلِ وَبَابَ هَذَا الْقَمْحِ وَنَسَائِجَ هَذَا الْقَزِّ وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخْيِيرِ الْأَطْعَمَةِ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشَّبَعِ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَانًا وَحَوْلِي بَطُونٌ غَرْنِي وَأَكْبَادٌ حَرَى»^(٣).

فما أحوج البشرية إلى هذا النهج، وما أحوج المسلمين في بلدانهم إلى سيرة

(١) المصدر نفسه.

(٢) المستدرک علی الصحیحین. ج ٢، ص ٤٤٥.

(٣) نهج البلاغة. كتاب ٤٥، ص ٤١٧.

الإمام علي عليه السلام، فالمسلمون بما لديهم من ثروات وخيرات إلا أنهم يعانون من حالات الفقر والحرمان، فأين تذهب أموال المسلمين؟

روح العزة والكرامة

من ناحية أخرى، فإن الأمة بحاجة إلى روح العزة والكرامة، وخاصة في هذا العصر، حيث تكالبت وتضافرت قوى الشر والاستكبار على المسلمين، فما أحوج المسلمين إلى أن يمتلكوا روح العزة والكرامة، روح الشجاعة والبطولة التي تجسدت في شخصية علي بن أبي طالب عليه السلام في كل المعارك التي خاضها، فحينما برز له عمرو بن عبد ود، قيل له: يا علي، إنه عمرو، فقال عليه السلام: «وأنا علي بن أبي طالب». فما كان يخاف ولا يخشى ولا يهاب، وكان يقول: «والله لا بن أبي طالب آس بالموت من الطفل بثدي أمه»^(١). وكان يتأوه حينما يرى حالات الخنوع والذل في المجتمع من حوله. فقد تحدث في أعقاب غارة شنها جيش معاوية بن أبي سفيان على منطقة الأنبار، وقال عليه السلام: «وهذا أخو غامد [و] قد وردت خيله الأنبار...، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها وفلائدها ورعته ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام ثم انصرفوا وأفرين ما نال رجلاً منهم كلم ولا أريق لهم دم فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً»^(٢).

الحرب على غزاة

فكيف بالإمام لو يرى ما يحصل اليوم في غزاة بفلسطين، وما يحصل من انتهاكات واعتداءات وحشية صارخة، من قبل شرذمة من الصهاينة المعتدين، وعددهم في العالم كله لا يزيد على اثنين وعشرين مليوناً، بينما الأمة الإسلامية

(١) نهج البلاغة. خطبة ٥، ص ٥٢.

(٢) نهج البلاغة. خطبة ٢٧، ص ٦٩.

تبلغ أكثر من مليار وربع المليار في هذا العالم، ولكنهم يقفون موقف الذل والخنوع أمام هذا الكيان الغاصب، الذي يضم ستة ملايين يهودياً في محيط عربي يضم أكثر من مئتين وخمسين مليوناً.

إسرائيل تمعن في اضطهاد أهل غزة بقصف المنازل، ومنع الإمدادات الطبية، والحصار الشامل، وكل ذلك على مرأى ومسمع من العالم، فلو أن علي بن أبي طالب عليه السلام يشهد هذا المشهد، وهو القائل: «فَلَوْ أَنَّ أُمَّراً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسْفَافاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً»، فماذا سيقول عن واقع العرب والمسلمين هذا اليوم؟!

إن المسلمين اليوم بحاجة إلى روح علي عليه السلام، وإلى شجاعته وبطولته؛ كي تستعيد الأمة كرامتها واعتبارها، وهذا لا يتحقق عبر المفاوضات، حيث جرب العرب هذا الطريق الفاشل؛ لأن الصهاينة مردوا على العدوان، وعلى العنف والإرهاب، فلا يمكن للأمة أن تستعيد عزّتها إلا بروح المقاومة، وبمواقف الثبات والصمود.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يفيض على إخواننا في غزة روح الصمود والثبات.

وحينما نحتفي بشهادة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، إنما من أجل أن نستمد من موقف أبي عبد الله عليه السلام روح الكرامة والعزة، حيث كان شعاره الذي أطلقه يوم عاشوراء: «هيهات منا الذلة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»^(١).

(١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٦٢.

صناعة الإحسان

- الإحسان شريعة أخلاقية
- مجالات الإحسان وآلياته
- ثقافة الإحسان وتنميته

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية:
١٩٥].

□ الإحسان شريعة أخلاقية

الإحسان لغة: من الحُسن، وهو ضد القبح، والإساءة. واصطلاحاً: يقصد به أحد معنيين:

الأول: بمعنى الإتقان، أي إتقان الشيء، وأحسنت الشيء يعني أتقنته، وأديته متقناً على خير وجه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَوِّرْكُمْ فَأَحْسِنَ صُورَكُمْ﴾ [سورة التغابن، الآية: ٣]، يعني جعل صوركم متقنة، ومنه قول رسول الله ﷺ: «إذا صليت فأحسن ركوعك وسجودك»^(١) أي أتقن ركوعك وسجودك.

الثاني: بمعنى فعل الخير للغير، أو فعل ما ينفع الغير، بأن تعمل عملاً ينفع الآخرين، وهذا يطلق عليه إحسان.

وباعتبار أن الإنسان يُحب ذاته، فمن الطبيعي أن يفعل ما ينفع نفسه وما يخدم ذاته. أما أن يعمل الإنسان عملاً ينفع الآخرين، فهذا يعتبر درجة متقدمة، واستجابة للفطرة النقية؛ لأن الفطرة الإنسانية تدفع الإنسان لكي يخدم وينفع الآخرين.

دوافع الإحسان

١. الدافع الديني: قد يندفع الإنسان نحو خدمة الآخرين بدافع ديني، فهو يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر، ويؤمن بالقيم الإنسانية السامية، ويخدم الآخرين

(١) بحار الأنوار. ج ٦٨، ص ٢٤٧.

استجابة لإيمانه، لأن الله تعالى يرضيه خدمة عباده، ويقابلها بأعظم الأجر والثواب، حيث ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خصلتان ليس فوقهما من البر شيء: الإيمان بالله والنفع لعباد الله»^(١).

٢. الفطرة والمشاعر الإنسانية: وقد يندفع الإنسان لخدمة الآخرين بسبب حسّه الإنساني، وفطرته السليمة.

٣. الوعي الاجتماعي: وقد يندفع الإنسان للإحسان استجابة لوعيه الاجتماعي؛ لأنه يدرك أن خدمته للآخرين تعود عليه بالخير، وبالمكسب، من خلال قوة مجتمعه الذي هو جزء منه، ومن خلال ما يعود عليه من مكاسب شخصية عبر خدمته للآخرين.

فضل الإحسان

تحدث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن الإحسان ومشتقات هذه الكلمة، إضافة إلى الأمر بالإحسان والإشادة بالمحسنين بمختلف الاشتقاقات، فيما يزيد على مئتي آية قرآنية، وبالتالي فإن هذا المفهوم (الإحسان) هو من أكثر المفاهيم الأخلاقية وروداً في القرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [سورة النحل، الآية: ٩٠]، وهذا أمرٌ صريح من الله سبحانه لك أيها الإنسان بأن تكون محسناً للآخرين ونافعاً لهم. وفي آيات كثيرة جاء الحديث حول فضل الإحسان، ومكانة المحسنين، ويكفي من ذلك أن الله تعالى خصهم واعتبرهم من أهل محبته، كما هو صريح الآية الكريمة: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وآيات أخرى تتحدث عن أن الله تعالى يرافق بعنايته من يحسن إلى الناس: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وذلك يعني أن عناية الله ترافقك إذا كنت تحسن إلى الناس، وفي آية أخرى يشير الله سبحانه وتعالى إلى أن

(١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٣٧.

رحمته ولطفه قريب من المحسنين: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ومما لا شك فيه أن الإنسان في حاجة إلى رحمة الله في الدنيا والآخرة، وهذه الآية تؤكد أن الطريق الأقرب إلى رحمة الله تعالى يكمن في الإحسان. وفي آية أخرى يُقدّم الله تعالى البشارة للمحسنين، فيقول جلّ شأنه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ولا يقتصر الفضل على الإحسان للبشر فقط، بل يتعداه للإحسان لسائر المخلوقات، ففي الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر. قد ادلع لسانه من العطش فنزعت له بموقها فغفر لها»^(١)؛ لأنها أحسنت، ورحمت كلباً يلهث من العطش والظمأ، فكيف لو أحسن الإنسان إلى أخيه الإنسان.

وجاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة»^(٢) ويشرح هذا الحديث الإمام جعفر الصادق ﷺ بقوله: «أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة يقال لهم: إن ذنوبكم قد غفرت لكم فهبوا حسناتكم لمن شئتم»^(٣).

ومعنى ذلك أن ما لديكم من رصيد من الحسنات التي لا تحتاجون إليها وزعوها على الآخرين المحتاجين، فالمحسنون إلى الناس في الدنيا يعطيهم الله تعالى كذلك فرصة تقديم الإحسان للآخرين يوم القيامة؛ لأن هؤلاء المحسنين لديهم ما يكفيهم من الحسنات ليدخلوا الجنة بسلام آمين. أضف إلى ذلك، أن الإحسان ونفع الآخرين يحفظ الإنسان من المكاره، وكم من الروايات والنصوص الكثيرة الواردة بشأن حفظ وسلامة الإنسان العامل بالمعروف، والمحسن للآخرين، فصنائع المعروف تقي ميتة السوء كما ورد في الرواية عن علي ﷺ:

(١) صحيح مسلم، ص ١٢٣٣ حديث ٢٢٤٤.

(٢) محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة ج ١٦، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ص ٢٨٨.

(٣) محمد بن يعقوب الكليني. الكافي ج ٤، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، (بيروت: دار الأضواء)، ص ٢٩.

(وصنائع المعروف فإنها تدفع ميتة السوء)^(١).

إن صنع المعروف للناس والإحسان للآخرين، يجلب المحبة ويجذب قلوب الناس لصاحب الإحسان، فمن أحسن إلى الناس فإنه يستقطب عواطفهم ومشاعرهم ويجذب قلوبهم.

وكما قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان
إن الإحسان شريعة أخلاقية، وكل إنسان مهما كان دينه، ومهما كان توجهه، فإن فطرته السليمة تدفعه إلى الإحسان وعمل الخير ونفع الآخرين. وقد تناولت آيات القرآن الكريم والنصوص الشريفة جملة من آثار الإحسان ونتائجه، ومنها:

أولاً: العطاء الإلهي الكبير، ومن ذلك:

- محبة الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، تكرر في خمس آيات ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- عناية الله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- القرب من رحمة الله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- البشارة من الله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَبَشِّرِ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.
- الضمان من الله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تكرر في أكثر من مورد، ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.
- الثواب في الآخرة: عن علي عليه السلام قال: «زاد المعاد الإحسان إلى العباد».

ثانياً: جذب القلوب: وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»، وبالإحسان تملك القلوب، يقول

(١) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٢٨٩.

علي عليه السلام: «من كثر إحسانه أحبه إخوانه»، «من كثر إحسانه زاد خدمه وأعوانه»^(١).

ثالثاً: الأثر الاجتماعي، فالإحسان للناس يودي بطبيعة الحال إلى المزيد من التماسك المجتمعي، وصناعة القوة الاجتماعية، وقد عبرت الآية الكريمة عن هذا المفهوم في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، وكذلك في الآية الكريمة: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾.

فدوافع الإحسان لدى الناس تنطلق غالباً من ثلاثة منطلقات، هي: الفطرة السليمة إلى جانب الإيمان بالله تعالى، والإدراك والوعي الاجتماعي. كما خص الله تعالى المحسنين بجملة خواص، منها: راحة النفس، وسعادة القلب، والوعد بالعطاء الإلهي في الآخرة، ومحبة الناس وانجذاب القلوب نحوهم، إلى جانب ما يتحقق للمجتمعات التي يكثر فيها الإحسان من القوة والمنعة والتماسك.

□ مجالات الإحسان وآلياته

الكلمة الطيبة والرأي النافع

إن أول مجال من مجالات الإحسان وآلياته هي الكلمة الطيبة والرأي النافع، وذلك بخلاف ما قد يتبادر إلى الأذهان غالباً حول ارتباط الإحسان بالإنفاق المالي، ومساعدة المحتاجين والمعوزين تحديداً، مع أن الإنفاق يشكل بالفعل أحد مجالات الإحسان، لكنه ليس الوحيد.

إن بذل الكلمة الطيبة للناس، المتمثلة في إبداء التقدير والاحترام، وفي تقديم التجربة الشخصية، والخبرة العامة، والرأي النافع، يشكل أحد مجالات الإحسان الضرورية التي تحتاجها مجتمعاتنا. فكثير من الناس في مجتمعاتنا يعانون من ضعف الخبرة والتجربة في إدارة الحياة، فهم يواجهون مصاعب في ترتيب أمور حياتهم،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة ٩٦٠.

وحل مشاكلهم على اختلافها، وهذا ضعف ملحوظ، خاصة مع التطورات الكبيرة التي طرأت على المجتمع، إن متطلبات الحياة أخذت في التشعب والتعقيد، وسط انعدام الخبرة والتجربة لدى أكثر الناس، في مقابل تنامي حاجاتهم الحياتية. من هنا كان تمرير التجارب الشخصية الناجحة في أوساط الناس، وتقديم الخبرة والرأي النافع أحد مجالات الإحسان، وهذا ما عبرت عنه الشريعة بالكلمة الطيبة، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٢٤]، وورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدال على الخير كفاعله»^(١)، وجاء في حديث آخر عنه ﷺ: (الكلمة الطيبة صدقة)^(٢).

وتتراوح مجالات تقديم الخبرة من إرشاد الطلبة المتخرجين في الثانوية لاختيار الكليات المناسبة لهم، إلى المساعدة في توفير فرص العمل، وتقديم الاستشارة للشباب في مجال تأسيس المشاريع والأعمال الحرة، وصولاً إلى مساعدة أبناء المجتمع في مجال إنشاء الشركات والمشاريع الكبرى.

فهناك آلاف الطلاب من خريجي الثانوية كل عام يواجهون خيارات محيرة في اختيار تخصصاتهم الجامعية المناسبة لسوق العمل. إن تقديم النصيح والإرشاد لهؤلاء هو شكل من أشكال الإحسان وآلية من آلياته.

وكثير من الشبان ليست لديهم معرفة بالفرص الوظيفية المتاحة أمامهم، وهم بذلك أحوج ما يكونون إلى من ينصحهم ويرشدهم ويقدم لهم الخبرة، ولهذا كان إنشاء لجان التأهيل الوظيفي في الجمعيات الخيرية استجابة لهذه الحاجة، فهو مجال من مجالات الإحسان، غير أننا بحاجة في السياق ذاته إلى أن نعطي لأبنائنا وشبابنا خبرة وتجربة في اقتحام مجال الأعمال الحرة، وأن نرشدهم باتجاه إدارة المشاريع الناجحة، وتأسيس المؤسسات والشركات الانتاجية. لا بدّ من القول هنا

(١) كنز العمال. ج ٦ ص ٣٥٩ حديث ١٦٠٥٢.

(٢) وسائل الشيعة. ج ٥، ص ٢٣٣.

بأن الوظيفة ليست هي الخيار الوحيد، بل ليست هي الخيار الأفضل، فالأعمال الحرة أفضل بكثير من الحصول على وظيفة. إن كثيراً من أبنائنا وبناتنا لا يمتلكون الخبرة اللازمة في هذا المجال، ولذلك هم بحاجة ماسة إلى دعم وإلى إرشاد ومساعدة.

وضمن مجال تقديم الخبرة الطوعية نشير هنا إلى إنشاء فرع ما يعرف بصندوق المئوية في محافظة القطيف، والمنوط به منح القروض المالية للشباب الراغب في إنشاء المشاريع التجارية، والأهم من ذلك هو تولي هذا الصندوق تقديم الخبرة والاستشارات التطوعية للشباب. إن صندوق المئوية في كل أنحاء البلاد يحتاج إلى متطوعين من رجال الأعمال الناجحين، لتقديم خبراتهم في مجالات التجارة والصناعة وإطلاق المشاريع من خلال اللقاء المباشر بالشباب، هذا عمل مهم، وهو شكل من أشكال الإحسان.

الأعمال الحرة خيار أفضل

وتحضرني في هذا السياق تجربة طيبة لمجموعة من الشيعة المقيمين في أوروبا وبعض بلاد أفريقيا، والمعروفين بالخوجة، هذه المجموعة تعود أصولها لشبه القارة الهندية قبل أن تنتشر حول العالم، من المعروف بأن هؤلاء الخوجة أغلبهم من التجار ورجال الأعمال، ويروون سرّ تجربتهم الناجحة التي تتمحور في تربيتهم لأولادهم منذ الصغر على نبذ العمل الوظيفي، والتوجه عوضاً عن ذلك صوب التجارة والأعمال الحرة، وهم يعمدون في هذا المجال نحو مساعدة بعضهم البعض في تأسيس الأعمال التجارية الكبيرة في مختلف المناطق، ولذلك تجدهم باستمرار من أبرز التجار والأثرياء أينما تواجدوا، وقلما تجد بينهم من هو فقير محتاج؛ ذلك لأنهم يتوارثون الخبرة والتجربة، ومساعدة بعضهم على نحو دائم.

وعلى ذات المنوال يمكن النظر إلى تجربة اليهود كمثال آخر، فاليهود في

مختلف أنحاء العالم تحولوا من مجتمع منبوذ ضعيف إلى مجتمع قوي، نتيجة اهتمامهم بالتجارة والاقتصاد والعمل الحر. فقد درج اليهود على تبادل الخبرات فيما بينهم، فكل رجل أعمال منهم يشعر أن من مسؤوليته أن يساعد أبناء جماعته على أن يصبحوا تجارًا، وأصحاب مؤسسات، ورجال أعمال ناجحين. إن تقديم الخبرات مجال مهم من مجالات الإحسان نحن في أمس الحاجة إليه.

الاستشارات العائلية

وينسحب الإحسان بالكلمة الطيبة كذلك على المجال الاجتماعي، فهناك الكثير من المشاكل العائلية القائمة في المجتمع، التي لا تحتاج في كثير من الأحيان لأكثر من كلمة طيبة يتقدم بها بعض المصلحين لذات البين. فالكلمة الطيبة مفتاح لمعالجة الكثير من المشاكل، من هنا نحتاج إلى أناس يتفرغون إلى تأسيس وإنتاج ثقافة التماسك والانسجام العائلي واحتواء المشاكل الأسرية. وهنا نشيد بانطلاق تجربة الهاتف الاستشاري القائمة في بعض الجمعيات الخيرية، التي تحتاج إليها كل منطقة من مناطقنا، فمهمة هؤلاء الاستشاريين المتطوعين تقديم العون والاستشارة للأسر التي تعصف بها الخلافات العائلية، سواء بين الزوج وزوجته، أو بين الأولاد وأبويهم، فلا يتطلب الأمر سوى مكالمة هاتفية لطلب المساعدة في حل المشكلة، لا شك بأن هذا شكل من أشكال الإحسان عبر المشاركة بالرأي والكلمة الطيبة.

ترشيد الممارسات الشبابية

إن الكلمة الطيبة والرأي النافع يلعبان دورًا محوريًا في احتواء ومواجهة التصرفات الخاطئة من قبل بعض أبناء المجتمع. وقد قرأت في هذا الصدد عن تجربة أوردتها مجلة (ديستنسايون سانتيه) الفرنسية، أجريت في جامعة كاليفورنيا وغرضها مساعدة المدخنين على التوقف عن هذه الممارسة، من خلال تقديم المساعدة المباشرة من متخصصين عبر الهاتف. وقاد هذه التجربة الدكتور

(شو انغ زو) من جامعة كاليفورنيا، الذي نجح مع فريقه المؤلف من عشرات التلاميذ في معالجة ٣٣٠٠ مدخن، فقد كان هؤلاء الطلبة يتصلون بالمدخين يوميًا، ويحادثونهم عن مخاطر وأضرار التدخين، وتأثيره السلبي والمباشر على سلامة أعضاء بدنهم. وتورد المجلة أنه بعد مرور شهر واحد على التجربة، ألق نحو ثلث هؤلاء المدخين عن عادتهم، وامتنع عن التدخين بعد أشهر قليلة ٩٦٪ من المشاركين في هذه التجربة، وقال بعضهم عن الدعم الذي قدمه لهم تلامذة شو بأنه كان مهماً كثيراً وكمعالجة نفسية^(١)، فهؤلاء الطلبة استطاعوا عبر الاتصالات والحديث الهاتفي مع المدخين أن يسهموا في حل مشكلة لدى هؤلاء الناس.

كما نذكر في هذا السياق تجربة تأسيس اللجان المحلية لمساعدة المدمنين على المخدرات في التعافي والإقلاع عن هذه العادة المدمرة. وتتركز مهمة هذه اللجان على معالجة وتوجيه المتورطين في بلاء المخدرات. إن من الأصح أن نطلق على المدمنين عنوان المرضى؛ ذلك لأن النظرة للمدمن باعتباره مجرمًا يستحق العقوبة والردع باتت من الماضي، فقد تغيرت النظرة للمدمنين اليوم حيث صنفوا باعتبارهم مرضى يستحقون العلاج والمساعدة في تجاوز هذه الحالة المأسوية. إن «مجموعة زمالة المدمنين المتعافين» في المنطقة تعتمد في برامجها على الاتصال واللقاء المباشر بين الأعضاء المتعافين من مشكلة الإدمان بالمتورطين في تعاطي المخدرات، لنقل تجربتهم في تخطي معضلة الإدمان، وإقناعهم من ثم بالتخلي عن تعاطي المخدرات، وقد تمكن أعضاء اللجنة في منطقتنا من التأثير على عدد من المتورطين في مشكلة الإدمان وإنقاذهم من هذا المرض.

من هنا، فالإحسان قد يكون بالكلمة الطيبة، وبالرأي النافع. فهناك الكثير من المرضى الذين ربما لا يعرفون كيفية الوصول لسبل العلاج، وآخرون لديهم مشاكل

(١) جريدة الحياة. صحيفة يومية تصدر من لندن، العدد ١٤٤٦٤ بتاريخ ٢٠ شعبان ١٤٢٣ هـ الموافق ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٢ م.

مختلفة، قد تكون قابلة للحل بقليل من الجهد، من قبيل التورط في الديون المالية، أو التوقيف لأي سبب آخر، ولا يعرفون سبل الخروج من هذا المأزق، فهؤلاء بأمس الحاجة إلى من يرشدهم ويعينهم، ولذا تبرز الحاجة إلى قيام مؤسسات استشارية، مهمتها تقديم الحلول والاستشارات المجانية للناس، فللرأي قيمة كبيرة، وهو مجال مهم من مجالات الإحسان.

ثانياً: بذل المال

بذل المال والعطاء من أهم تجليات الإحسان، وفي مجتمعنا نشعر بالحاجة إلى تنمية حالة البذل والعطاء، إذ إن واقع مجتمعات أخرى في هذا الجانب أفضل مما هو عليه واقع مجتمعنا. وقد يقول قائل: إن مجتمعنا تنقصه رؤوس الأموال الكبيرة، إلا أن هذا الكلام ليس دقيقاً، فمجتمعنا فيه خير كثير، إضافة إلى أن البذل والعطاء مطلوبٌ من الجميع وليس من الأثرياء فقط، فالله تعالى في كتابه الحكيم يُشجّع الإنسان على الإنفاق والبذل مما آتاه الله تعالى من فضله، يقول تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [سورة النور، الآية: ٣٣]، كما أن الله تعالى وعد بأن يُعوّض على الإنسان ما أنفق، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سورة سبأ، الآية: ٣٩]، وورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما نقص مال من صدقة قط فأعطوا ولا تجبنوا»^(١)، وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه ينزل ملك كل ليلة في الثلث الأخير ينادي: «اللهم أعط كل منفق خلفاً وأعط كل ممسك تلفاً»^(٢).

لقد آن الأوان لأن يلتفت الأثرياء لحاجات مجتمعهم من خلال إطلاق المشاريع الاقتصادية التي تخدم الناس، عوضاً عن الاكتفاء بإعطاء الصدقات الصغيرة هنا وهناك. المجتمع في حاجة ماسة إلى من ينفق في مجال إسكان

(١) محمد بن علي بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق). من لا يحضره الفقيه ج ٤، الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ،

بيروت: دار المرتضى، ص ٣٨١.

(٢) بحار الأنوار. ج ٧٤، ص ١٦٤.

الفقراء والمحتاجين، ودعم البعثات الدراسية للطلبة المحتاجين، وتزويج العزاب، وتأسيس المستوصفات والمستشفيات لخدمة المجتمع، إن جميع ذلك من مجالات الخير والإحسان.

ثالثاً: السعي العملي

ومن تجليات الإحسان السعي على نحو عملي في مساعدة الناس لحل مشاكلهم، وتذليل العقبات أمامهم. فهناك الكثير من الناس ممن يواجهون مشاكل المرض أو السجن وما أشبه ذلك، لكن تعوزهم الحيلة ويحتاجون لمن يقف بجانبهم، ويدلّهم ويأخذ بأيديهم، ويتحرك لمساعدتهم، هذا سعي عملي مطلوب في خدمة الناس، وهو مجال من مجالات الإحسان وآلياته، وفي ذلك أجرٌ كبير، وفضل عظيم عند الله تعالى، فعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «من سعى في حاجة أخيه المسلم، فاجتهد فيها، فأجرى الله على يديه قضاءها كتب الله عزّ وجلّ له حجة وعمره، واعتكاف شهرين في المسجد الحرام وصيامهما، وإن اجتهد ولم يجز الله قضاءها على يديه، كتب الله عزّ وجلّ له حجة وعمره»^(١). فالسعي العملي في حوائج المؤمنين بحد ذاته من الإحسان ويستحق عليه الإنسان الأجر والثواب.

فحريٌّ بنا جميعاً أن نُعزّز في أنفسنا هذه التجليات، لنكون من المحسنين الذين يُحبّهم الله تعالى، ويكتب لهم من فضله عظيم الأجر والثواب.

□ ثقافة الإحسان وتنميته

إن واحدة من أبرز نقاط الضعف في أي مجتمع هي قلة عدد المحسنين فيه، وهذا ما يتطلب معالجة خاصة نأتي عليها. فلا يكاد يخلو مجتمع من المجتمعات من المحسنين، لكن تكمن المشكلة الحقيقية في قلة عدد هؤلاء المحسنين، وبقاء هذه الممارسة ضمن إطارها الفردي ودائرتها المحدودة. إن الوضع الأمثل في أي

(١) وسائل الشريعة، ج ١٦، ص ٣٦٩، حديث ٢١٧٨٧.

مجتمع هو أن يصبح الإحسان وأعداد المحسنين حالة ظاهرة سائدة في المجتمع، لا مجرد حالات فردية تعدّ على الأصابع، ينبغي أن تكون هناك حالة إحسان في المجتمع بأنواعه ومجالاته المختلفة. فكيف نصنع مثل هذه الحالة وننميها في مجتمعنا؟ هناك عدة أمور ينبغي الالتفات لها لتحقيق هذا التطلع النبيل:

أولاً: التربية على الإحسان

إن أولى لبنات صناعة الإحسان في أي مجتمع هي تربية الأبناء على الإحسان. فالأب ينبغي أن يربي أبنائه على الإحسان منذ نعومة أظفارهم، وقد رأينا كيف يمارس بعض الآباء هذا النوع من التربية، فهم حينما يعطون أبناءهم نفقتهم أو ما يعرف بالمصروف اليومي، يضعون عليه مبلغاً رمزياً يحثون الابن على التصدق به للفقراء والمساكين، وبهذا ينشأ الابن وقد تربى على فعل الإحسان في حقّ الغير، فكم هو رائع أن تربي العائلة أبنائها على مساعدة المحتاجين والتبرع للصناديق الخيرية المخصصة لمساعدة الفقراء، ذلك حتى يتربى الولد على هذه الحالة، فيكون مسلماً أساسياً يسير فيه طوال حياته، في دراسته وعمله وعلاقاته الاجتماعية، فالتربية عامل أساس ومهم في تشجيع الأبناء على العطاء والإحسان وخدمة الآخرين.

ثانياً: نشر ثقافة الإحسان

وثاني لبنات صناعة الإحسان في مجتمعاتنا: نشر ثقافة الإحسان في الأوساط العامة. جنباً إلى جنب مع ثقافة حث الناس على العبادات من الصلاة والصيام والحج. فالمطلوب ألا يقتصر خطابنا الديني على حث الناس على جانب العبادات فحسب، بل الواجب أيضاً حثهم على عمل الخير، وقضاء الحوائج، وتفريج الكرب، والوقوف إلى جانب المضطرين والمحتاجين. إن نشر ثقافة الإحسان يجب ألا تغيب عن مجالسنا ومحاضراتنا وكتاباتها ووسائل إعلامنا، فهذا أمر في غاية الأهمية.

ثالثاً: مؤسسة الإحسان

ينبغي أن يتحول عملنا الخيري والاجتماعي إلى عمل مؤسسي منظم في كل مجال من المجالات. المطلوب منا مؤسسة الإحسان، عبر تحويله من العمل الفردي المحدود، إلى حال المؤسسة القائمة في كل مجال من المجالات. فكل حاجة من حاجات المجتمع، ينبغي أن ترعاها مؤسسة قائمة بذاتها، تتولى سدّ الفراغ في ذلك الجانب.

وقد أصبح هذا الأمر بحكم البديهيات في المجتمعات الأخرى، فمنظمات المجتمع المدني باتت تغطي كل مجالات الحياة في الكثير من المجتمعات المتقدمة، بدءاً من حماية البيئة، ولجان أصدقاء المرضى، ولا تنتهي عند منظمات رعاية الحيوانات. بل ينسحب الأمر في مجالات العمل التطوعي إلى رعاية الطلبة الأجانب في تعلم اللغات المحلية، فهناك في بعض الجامعات الغربية متطوعون لمساعدة الطلبة الأجانب في تعلم اللغة الإنجليزية على نحو منظم، ففي بعض الجامعات قوائم بأسماء المتطوعين من أبناء البلد المستعدين لصرف الوقت في مساعدة الطلبة المستجدين على تعلم اللغة الإنجليزية، عبر المحادثة المباشرة. وقد أخبرني أحد طلابنا في أستراليا أن متطوعاً من الأستراليين خصص له ساعات محددة يصرفها معه في سبيل أن يتعلم منه اللغة الإنجليزية، فقد فرغ ذلك المواطن الأسترالي نفسه لعدة أسابيع لمساعدة هذا الطالب الغريب على تعلم اللغة، هذا نوع من الإحسان. من هنا كان من اللازم أن تنشأ لدينا مؤسسات تطوعية في مختلف المجالات.

ان مما يؤسف عليه تكرر شكوى مختلف المؤسسات من ضعف التفاعل الاجتماعي معها، فالجمعيات الخيرية تشكو من ضعف التفاعل مع أنشطتها، والأندية الرياضية تشكو من ضعف الإقبال عليها، وصناديق الزواج ومراكز الأسرة تشكو الأمر ذاته. هنا لا يمكن إنكار تفاعل بعض الخيرين مع مختلف الأنشطة

الاجتماعية، إلا أنه لا يزال محدوداً ودون مستوى الحاجة والتطلع. ولذلك تبرز الحاجة لنشر ثقافة الإحسان ومأسسة عمل الإحسان والبذل في خدمة الآخرين.

رابعاً: تشجيع الإحسان

إن أحد أهم جوانب تعزيز ظاهرة الإحسان في المجتمع، يكمن في شكر المحسنين، وتقدير دورهم من قبل المجتمع، إن تقدم ظاهرة الإحسان مرهون في جانب منه بتقدير حالة الإحسان وشكر المحسنين، بينما المجتمع الذي يتجاهل محسنيه، ولا يقدر العاملين والساعين بالمعروف تنخفض وتتضاءل فيه حالة الإحسان.

من هنا نجد النصوص الدينية تشجعنا على شكر المحسن، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»^(١)، وأبعد من ذلك، يحثنا ربنا سبحانه وتعالى حتى عند ردّ التحية البسيطة بأن نرد بأحسن منها ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٦]. فالواجب علينا أن نشكر المحسنين وأن نقدّر دورهم، فهذا أمر مطلوب ومهم للغاية، وقد ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام فصل في رسالة الحقوق بعنوان حق ذي المعروف عليك، جاء فيه «وَأَمَّا حَقُّ ذِي الْمَعْرُوفِ عَلَيْكَ فَإِنَّ تَشْكُرَهُ وَتَذْكُرُ مَعْرُوفَهُ وَتَنْشُرَ لَهُ الْمَقَالََةَ الْحَسَنَةَ، وَتُخْلِصَ لَهُ الدُّعَاءَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ»^(٢)، فحق الإنسان المحسن على المجتمع أن يشكره ويذكر إحسانه، وهذه روحية يفتقدها بعض الناس على المستوى الشخصي مع شديد الأسف، فهؤلاء لم يتربوا على شكر المعروف.

قرأت قبل أيام في إحدى الصحف مقالة لأحد الكتاب ذكر فيها كيف تغير سلوك ابنه الصغير بمجرد عودته للبلاد من بعثته الدراسية، يقول الكاتب عندما

(١) أبو داؤود سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داؤود ج ٢، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ، (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية، بيروت: مؤسسة الريان)، ص ٦٧١، حديث ٤٨١١.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٧.

كنت في الخارج مع عائلتي، تربي ابني الصغير على شكرنا أنا ووالدته على أي عمل قدمه له مهما كان صغيراً، ونحن نقابله بذات التصرف أيضاً، فنحن نشكره على أي عمل يقوم به تجاهنا مهما صغر، ويضيف الكاتب أنه تفاجأ بعد عودته للبلاد بشهر، بأن ابنه كفَّ عن مقابلة والديه بالشكر كما درج على ذلك سابقاً، وذلك حين أعطاه هدية فلم ينطق بكلمة شكرًا، فلما سأله عن سبب إحجامه عن تقديم الشكر مقابل الهدية التي تلقاها، قال الولد: الناس هنا لا يقولون شكرًا، فهذا الولد لم يعتد على سماع كلمة الشكر في بلاده بخلاف ما كان عليه أيام بقائه في الخارج.

إن تقديم الشكر للمحسنين على المستوى الفردي أو المجتمعي أمر واجب، إذ ينبغي لنا ردّ الإحسان لمن أحسن إلينا. المؤسف في الأمر أن بعض المجتمعات لديها حالة من الجفاء والجفاف، فمن السهل أن تجد أحدهم يأتيك لحاجة فيُظهر لك الاحترام والتقدير حينها، ومتى ما انتهت حاجته، فكأنه لم يعرفك، ولم يرك، وقد لا يسلم عليك. نحن في الوقت الذي نؤمن فيه بضرورة أن يكون الإحسان خالصاً لوجه الله تعالى، كما قال الله تعالى عن أولئك المخلصين الصادقين من أهل البيت عليهم السلام: ﴿إِنَّمَا نُنْطَعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [سورة الإنسان، الآية: ٩]، لكن الإنسان، أي إنسان يبقى بشراً يتأثر بالتشجيع، ويطرب للثناء، فلماذا لا نشجع المحسنين عبر شكرهم والدعاء لهم بالخير والأجر والثواب. وذلك بخلاف تصرف بعض الناس الذين يجتهد الآخرون في معالجة مشاكلهم، فيصرفون أوقاتهم، ويبدلون ماء وجوههم لغرض المساعدة، فإذا ما انتهت مشكلتهم يخلون حتى بنسبة المعروف لأهله، ويستنكفون عن شكر من ساعدتهم، إن هذا نكران للمعروف.

المطلوب أن يشجع الناس بعضهم بعضاً على عمل المعروف وشكر الإحسان، والدعاء لمن يحسن إلينا فيما بيننا وبين الله. ولو ضربنا مثلاً ببعض المتطوعين

الذين يعملون في الجمعيات الخيرية جزاهم الله خيراً، فالكثير منهم موظفون ولديهم عوائل ومسؤوليات وأعمال، لكنهم مع ذلك يصرفون أوقاتهم الخاصة في العمل كمتطوعين في هذه الجمعيات، لكنهم كثيراً ما يقابلون بالكران، وفوق ذلك تطالهم الاتهامات بدلاً من أن يشكرهم المجتمع.

النقد البناء

نشير هنا إلى أن بعض الانتقادات العنيفة التي تطال هؤلاء قد تكون نتيجة أخطاء معينة، ولا يوجد أحد معصوم من الخطأ، لكن مقابلة هذه الأخطاء ينبغي أن تكون على نحو بناء، وليس بالتشهير والإسقاط، فالمجتمع الذي يشهر برجاله، ويسقط العاملين للخير فيه، لا يمكن أن يتقدم، وقد تنحسر في هذا المجتمع حالة الاهتمام بالعمل التطوعي، والانخراط في الشأن العام، ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»^(١)، أقل الواجب أن نستمر في الدعاء لصاحب المعروف المرة تلو الأخرى حتى نتأكد من أننا أدينا الواجب اللازم علينا اتجاهه.

في هذا الإطار لا بد وأن نقدر عالياً بروز مؤسسات اجتماعية تعنى بتقدير العاملين والناشطين في الحقل العام ومنها لجنة التكريم الأهلية في القطيف، وقد كان لها مبادرات طيبة لتكريم شخصيات المجتمع، والعاملين للخير من أجل المجتمع، كما نشيد بتأسيس لجنة جائزة القطيف للإنجاز المهمة بتكريم المبدعين من الشباب في مختلف مجالات العلوم والأدب والفنون والعلوم الإدارية والاقتصادية، هذا عمل حضاري ينبغي أن يشكر القائمون عليه.

نحن نحتاج إلى ثقافة تشجيع الإحسان وتنمية الإحسان، فالمحسن نفسه يكسب قبل أن يكسب الآخرون، ولذلك يقول تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧] فالإحسان ينعكس عليك أنت، فأحسن كما أحسن

(١) سنن أبي داود ج ٢، ص ٣٧٧، حديث ١٦٦٩.

الله إليك، واعلم أن ما عندك من خير من الله، فابذل للناس يعطيك الله المزيد من الخير، قال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٥٨]، إن من يحسن إلى الناس هو أول من يشعر بالراحة النفسية، ففي الإحسان لذة لا يشعر بها إلا من وفق إليها، فإذا وفق إنسان لتفريج كربة إنسان آخر، تغمره راحة نفسية، ولذة روحية لا تعادلها أية لذة، علاوة على اكتساب حب الناس.

ولنا في سيرة الإمام الحسين عليه السلام مثل أعلى، فقد كانت داره في المدينة المنورة مقصداً للفقراء والمحتاجين، ولذا فإن خروج الحسين عليه السلام إلى مكة المكرمة كان كالصاعقة على الناس في المدينة، إذ ليس هناك من يسد الفراغ الذي يحدثه الحسين عليه السلام بخروجه.

وفي مكة المكرمة كانت دار الحسين، أيضاً، مقصداً للمحتاجين، وكان الحجاج مسرورين بوجود الحسين عليه السلام إذ إنهم سيحجون بحجه وفي ظل بركة وجوده معهم، إلا أنهم يتفاجؤون بخطاب الحسين عليه السلام في اليوم السابع من ذي الحجة، إذ أعلن عزمه على الخروج من مكة تاركاً صدمة لم تكن في حساب أي أحد من الحجيج، فكان مما قال عليه السلام: «الحمد لله ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكر بلاء، فيملأن مني أجربة سغباً، وأكراشاً جوفاً، لا محيص عن يوم خط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه فيوفينا أجور الصابرين، ألا من كان باذلاً فينا مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا فإني راحل مصباحاً إن شاء الله»^(١).

تجربة في البناء والتغيير: الإمام الصدر نموذجاً

- القراءة الواعية لتجارب الآخرين
- الحالة الشيعية في لبنان
- دور الإمام موسى الصدر

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ
بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ
وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج:
الآية ٤٦]

□ القراءة الواعية لتجارب الآخرين

إن أبرز ميزة ميّز الله بها الإنسان على سائر الكائنات أن أعطاه القدرة على اختزان ومراكمة التجارب والاستفادة منها، الأمر الذي ساهم في تطور البشرية على نحو كبير وعلى مختلف المجالات. فالإنسان يبني على تجارب من سبقه، ويستفيد من خبرات الآخرين.

ولو أن كل إنسان جاء إلى هذه الحياة وبدأ ممارسة الحياة من الصفر، لما اتسعت حياته لفعل أشياء تذكر؛ لأن مجالات الحياة واسعة متعددة وأكثر من أن تحصى، وأصعب من أن تستوعب خلال فترة زمنية قصيرة من حياة الإنسان.

فالإنسان يستفيد من تجارب من سبقه، ويتلقى هذه التجارب عن طريق التربية، وعن طريق البيئة والتعليم، ثم يبني عليها جيلاً بعد جيل.

فما وصلت إليه البشرية في مجال علم الطب على سبيل المثال، إنما هو حصيلة لتجارب قرون وأجيال من أبناء البشر، وهكذا في مختلف مجالات الحياة، فتراكم التجارب وحده هو ما أوصل الإنسان إلى هذا المستوى المتقدم، وإلا فإن كل إنسان يأتي إلى هذه الحياة فهو بمفرده لا يعلم شيئاً، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ

مِنْ بُظُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿سورة النحل: الآية ٧٨﴾.

لقد أعطى الله أبناء البشر وسائل التعلم، وجعل قيمة كل إنسان ومستواه مرهوناً بقدرته على الاستفادة من علوم وتجارب سابقه، سواء كان ذلك على المستوى الفردي أو المجتمعي. فالمجتمع الذي يستفيد من تجارب المجتمعات الأخرى سيتقدم، بينما الذين لا يستفيدون من خبرات وتجارب الآخرين مصيرهم التأخر والتخلف.

من هنا جاء الأمر في القرآن الكريم للناس بأن ينظروا في تجارب الأمم ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [سورة الحج: الآية ٤٦]، إن هذه دعوة للإنسان لأن يتجاوز المحيط المحدود الذي يعيش فيه؛ لأن العالم لا يتلخص في هذا المحيط الضيق.

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تدعو الإنسان إلى السير في الأرض حتى يرى حياة الأمم والشعوب الأخرى، فينظر كيف كانت حياتهم وأوضاعهم فيستفيد من تجاربهم. وينطوي التأكيد القرآني على حقيقة مفادها أن لحياة المجتمعات أنظمتها وقوانينها، تماماً كما للقضايا المادية معادلاتها، فليس من قبيل الصدفة المحض أن تجد مجتمعاتٍ تحقق أقصى درجات التقدم، فيما تنغمس مجتمعات أخرى في حضيض التخلف، فالتقدم له قوانينه والتخلف له أسبابه. من هنا تأتي أهمية دراسة المعادلات والأسباب التي تنتج مجتمعاً متقدماً وآخر متخلفاً، يقول تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٦٢]، وفي آية أخرى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [سورة فاطر: الآية ٤٣].

إن على الإنسان أن يقرأ تجارب الآخرين، دون اشتراط التوافق الفكري المسبق بينه وبين من يقرأ تجاربهم. فالمنطق العقلي يحثنا على الاستفادة من تجارب جميع الأمم بما فيها تلك التي تختلف معنا في الدين أو الفكر، وقد ورد عن رسول الله ﷺ

أنه قال: «اطلبوا العلم ولو بالصين»^(١)، وورد عنه عليه السلام «الحكمة ضالة المؤمن فحيثما وجدها فهو أحق بها»^(٢)، فالاستفادة من تجارب الأمم والمجتمعات الأخرى أمر مطلوب.

ويقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «العاقل من وعظته التجارب»^(٣)، وروي عنه عليه السلام أيضاً: «في التجارب علم مستأنف»^(٤)، و: «حفظ التجارب رأس العقل»^(٥)، و: «كفى بالتجارب مؤدباً»^(٦)، كما أشار الإمام علي عليه السلام إلى تجربته في الاستفادة من تجارب الغير في كلمته التي يقول فيها: «إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمَرُتُ عُمَرُ مَنْ كَانَ قَبْلِي فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَسِرَّتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدُّوْتُ كَأَحَدِهِمْ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمَرْتُ مَعَ أَوْلِيهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدْرِهِ وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ»^(٧).

الاستفادة الواعية

وبالرغم من كثرة النصوص الدينية التي تدعو الإنسان للاستفادة والنظر في تجارب الآخرين، إلا أن ذلك لا يعني التقليد الأعمى أو الاستنساخ الكامل. حيث إن لكل مجتمع آلياته الخاصة، ولكل بيئة ظروفها، وعليه قد لا يكون ممكناً أو صالحاً استنساخ تجربة حدثت في بيئة معينة عبر نقل كل تفاصيلها إلى بيئة أخرى تختلف عنها، فالأوضاع في العراق مثلاً تختلف عنها في إيران، كما يختلف الوضع في هذه الأخيرة عنها في لبنان، وذلك تبعاً لظروف وبيئة كل بلد. وكما أن من الخطأ

(١) كنز العمال. ج ١٠، ص ١٣٨، حديث ٢٨٦٩٧.

(٢) بحار الأنوار. ج ٢، ص ٩٩.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم. ج ١، ص ٥٧، حكمة ١٢٣٣.

(٤) بحار الأنوار. ج ٩٨، ص ٣٤٢.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم. ج ١، ص ٣٤٤، حكمة ٤٩.

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم. ج ٢، ص ٩٥، حكمة ٧٠.

(٧) نهج البلاغة. كتاب ٣١.

الاستنساخ الساذج للتجارب، وكذلك من الخطأ جعل بعض الفروق البسيطة مبرراً لعدم التفاعل مع تجارب الآخرين. ذلك لأن هناك من يتذرع بالفروق الجزئية بين مجتمع وآخر، ويجعل ذلك مبرراً لعدم الاستفادة من التجارب الناجحة. المطلوب هو الاستفادة من جوهر ومضمون تجارب الآخرين، وليس محاكاتها في الجزئيات والهوامش الجانبية.

فما أحوج مجتمعاتنا الإسلامية إلى الاستفادة من تجارب الأمم الرائدة في تقدمها العلمي والتكنولوجي، واستقرارها الاجتماعي والسياسي. كما ينطبق الأمر ذاته على ضرورة الاستفادة المجتمعات الإسلامية نفسها من بعضها البعض، على غرار التجربة التنموية المتقدمة للشعب الماليزي؛ فلماذا لا نقرأ تجربة هذا الشعب ونستفيد منها؟.

□ الحالة الشيعية في لبنان

شكل الانبعاث الكبير للطائفة الشيعية في لبنان تجربة متقدمة ومتطورة، لفتت الأنظار إقليمياً ودولياً، ونالت الإعجاب والتقدير، وهي بذلك تستحق الدراسة والاستفادة منها. فالشيعية في لبنان لهم تاريخ عريق وضارب الجذور، يرجعه بعض المؤرخين إلى منتصف القرن الأول للهجرة. وعادة ما يطرح تساؤل دارج عند الحديث عن الشيعية في لبنان، يتمحور حول ظروف دخول التشيع إلى لبنان ومنطقة بلاد الشام، بالنظر إلى خضوع تلك المنطقة إلى ظروف لا تخدم انتشار التشيع. فالشام منذ أن فتحها المسلمون وانتقلت ولايتها إلى معاوية بن أبي سفيان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، تحولت إلى بيئة أموية خالصة لا تساعد على انتشار التشيع، فكيف انتقل التشيع إلى الشام ومنه إلى لبنان؟.

هناك قول مشهور يرى أن التشيع انتقل إلى لبنان وبلاد الشام عبر الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضوان الله عليه، هذا الصحابي الجليل الذي كان رابع أو

خامس من أسلم من الصحابة، والذي قال في حقه رسول الله ﷺ تلك الشهادات العظيمة، فقال ﷺ: «ما أقلت الخضراء ولا أظلت الغبراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر»^(١)، وقال عنه ﷺ حينما رآه يمشي وحده في تبوك: «يا أبا ذر، رحمك الله، تعيش وحدك وتموت وحدك وتحشر يوم القيامة أمة وحدك وتدخل الجنة وحدك»^(٢)، هذا الرجل الصادق الشجاع كان في المدينة المنورة في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فلاحظ أن هناك ممارسات غير منسجمة مع تعاليم الإسلام، فيما يرتبط بالتصرف في أموال المسلمين، وفي تولية بعض المتنفذين القرييين عائلياً من الخليفة، فصار يجهر باعتراضه على تلك الممارسات، فأمر الخليفة عثمان بإخراجه من المدينة، ونفاه إلى الشام على عهد معاوية بن أبي سفيان. وتروي كتب السير أن معاوية حاول استمالة أبي ذر عبر إغداق المال عليه، ظناً منه أن أبا ذر يمكن أن يتأثر بهذا الأمر، فأرسل معاوية إلى أبي ذر بصرة من الدنانير مع غلام له، وقال: اذهب بها إلى أبي ذر، فإن قبلها منك فأنت حرٌّ لوجه الله، فرفضها أبو ذر، فحاول الغلام أن يستعطفه، «يا أبا ذر خذها ففي ذلك عتقي»، فأجابه أبو ذر: «ولكن فيها رقي»^(٣).

هناك في الشام أيضاً أبدى أبو ذر اعتراضه على جملة ممارسات منحرفة لمعاوية خصوصاً على الصعيد المالي، فكان يقرأ الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فلفت أنظار الناس هناك، فانزعج معاوية فكتب إلى الخليفة عثمان «إن كان لك بالشام حاجة أو بأهله فابعث إلى أبي ذر فإنه قد أوغر قلوب الناس»^(٤) فنفي رضوان الله عليه إلى الربذة

(١) المستدرک علی الصحیحین. ج ٣ ص ٣٨٧ حديث ٥٤٦٧.

(٢) بحار الأنوار. ج ٢٢ ص ٤٢٩.

(٣) الشيخ البهائي. الكشكول، ج ١، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، (قم المقدسة: المطبعة الحيدرية)، ص ٢٠٨.

(٤) الإمام شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. سير أعلام النبلاء، الطبعة الحادية عشرة

١٤١٧هـ - ١٩٩٦ م، (بيروت: مؤسسة الرسالة). ج ٢ ص ٦٩.

حتى توفي غربياً فيها سنة ٣٢ هـ.

بداية التشيع في الشام

وبناءً عليه ابنتت مقولة أن بذرة التشيع في الشام زرعتها أبو ذر حين تواجد في قرى وبلدات غرب الشام، المعروفة بجبل عامل في لبنان. وجاء في أمل الآمل: «لما خرج أبو ذر إلى الشام بقي أياماً فتشيع جماعة كثيرة، ثم أخرجه معاوية إلى القرى فوق في جبل عامل فتشيعوا من ذلك اليوم»^(١)، لكن أحد الباحثين المعاصرين أثبت أن هذا المبرر وهذا التفسير ليس دقيقاً، وهو العلامة الشيخ جعفر المهاجر في دراسة تضمنت بحثاً علمياً موثقاً تحت عنوان (التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا) أثبت فيه أن انتشار التشيع في لبنان وفي بلاد الشام لم يكن عن طريق أبي ذر الغفاري، واستند في هذا الرأي إلى قصر المدة التي مكثها أبو ذر في لبنان، مستبعداً أن تكون تلك المدة كافية لانتشار التشيع. واجتهد العلامة المهاجر في مقابل ذلك في جمع الأدلة والشواهد على أن علة انتشار التشيع وبدايته في لبنان وسوريا، كان بسبب زحف قبيلة همدان اليمنية إلى بلاد الشام، وقد كانت هذه القبيلة من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) كما هو معروف، فقد أسلمت هذه القبيلة على يد علي (عليه السلام) وأقام بينهم سنتين، فحفظت القبيلة وغيرها من القبائل اليمنية ولاءها لأهل البيت، من هنا نسب للإمام علي قوله فيهم:

ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقد كان من الهمدانيين في الكوفة إبان عهد علي (عليه السلام) حشد غفير، حيث كان في الكوفة تجمع عساكر المسلمين، وقدر باحثون عدد الهمدانيين الذين كانوا متواجدين في الكوفة، آنذاك بين أربعين إلى خمسين ألف شخص، وبعد مقتل الإمام علي (عليه السلام) ضاقت بهم الأمور في الكوفة فانزاحوا إلى مختلف المناطق فرادى

(١) محمد الحسن الحر العاملي. أمل الآمل. ج ١، (النجف الأشرف: مكتبة الأندلس، تحقيق السيد أحمد الحسيني)، ص ١٣.

وجماعات، فانتقل عدد كبير منهم إلى بلاد الشام، في حمص وطرابلس، وإلى مناطق مختلفة، فأقاموا هناك، وأثروا في محيطهم الاجتماعي الجديد مع مرور الزمن، فكانت بداية التشيع في لبنان.

كانت أغلب مناطق لبنان حواضر شيعية. فطرابلس مثلاً كانت حاضرة شيعية كبرى، حتى أسقطها الصليبيون سنة ٥٠٢هـ - ١١٠٩م، وجبال كسروان أيضاً كانت كذلك حتى القرن الثامن الهجري، وقد كانت أكثرية سكان لبنان من الشيعة، لولا الضغوط الهائلة التي تعرضوا لها أيام العثمانيين، وأيام الاستعمار الفرنسي على حد سواء. فقد أفتى بعض رجال الدين المتشددين أيام العثمانيين، ومنهم الشيخ نوح الحنفي، بإباحة دماء الشيعة، حتى إن قسماً كبيراً من الشيعة تواروا عن الأنظار واختفوا، وغير الكثير منهم مذهبهم. ولذلك يذكر في هذا السياق أن عوائل مسيحية في لبنان تعود في أصولها إلى الشيعة، مثل عائلة جوزيف الهاشم، الأديب اللبناني المعروف، فهو مسيحي من أصول شيعية، وقد تحولت عائلته إلى المسيحية على غرار الكثير من العوائل نتيجة الضغوط الدينية والسياسية التي فرضتها السلطات آنذاك.

الانبعاث الشيعي

ومع ذلك، لا يزال الشيعة في لبنان يشكلون غالبية السكان بالقياس إلى بقية الطوائف. فمع نسبتها التي تبلغ نحو ٤٠٪ من الشعب اللبناني تعد الطائفة الشيعية في لبنان اليوم أكبر الطوائف تعداداً. وللشيعة في هذا البلد تاريخ علمي وثقافي عريق، فقد كان كبار علماء الشيعة من لبنان، من أمثال صاحب اللمعة الدمشقية الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي، الذي استشهد سنة ٧٨٦هـ، وكذلك الشهيد الثاني صاحب الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، وهو كتاب لا يزال يدرس في الحوزات العلمية، وقد استشهد سنة ٩٦٦هـ، ومن أبرز علماء الشيعة في لبنان أيضاً الحر العاملي صاحب وسائل الشيعة المتوفى سنة ١١٠٤هـ والشيخ البهائي

المتوفي سنة ١٠٣٠ هـ.

لقد حفل تاريخ الشيعة في لبنان بنشاط علمي وفكري وثقافي على امتداد الزمن، حتى قال الحر العاملي في كتابه المشهور أمل الآمل في تراجم علماء جبل عامل: «إن علماء الشيعة في جبل عامل يبلغون نحو الخمس من علماء الشيعة في جميع الأقطار مع أن بلادهم أقل من عشر العشر - أي جزء من مائة جزء من البلدان -»^(١). وينقل في هذا السياق حول حياة الشهيد الثاني أنه في إحدى قرى جبل عامل، شارك في تشييع جنازة واحدة سبعون مجتهداً، فضلاً عن بقية العلماء والطلبة والأدباء^(٢). فتاريخ الشيعة هناك حافل بالعلم والفكر والنشاط.

ويعدّ الانبعاث الشيعي في لبنان في العصر الراهن أبرز ظهور للشيعة في العالم العربي. وقد عزز من ذلك ظهور المقاومة الإسلامية، والنصر الذي تحقق على يديها على العدوان والاحتلال الإسرائيلي، الأمر الذي جعل الشيعة في لبنان وجهاً بارزاً للتشيع في العالم، ولهذا ينبغي دراسة حالتهم وقراءة تجربتهم.

لا شك أن تجربة الشيعة في لبنان تجربة متقدمة متطورة، نالت الإعجاب والتقدير، فتوجهت نحو دراستها مراكز الأبحاث والدراسات في الغرب والشرق. ولكن يبقى السؤال المحوري القائم هنا؛ كيف أصبح وضع الشيعة في لبنان بهذا المستوى الذي هم عليه الآن؟ ولعلّ مبرر التساؤل هو أن أكثر الناس لا يلتفتون إلى الشجرة إلا في مرحلة إثمارها، لكنهم غالباً ما يتناسون ظروف غرس ورعاية هذه الشجرة على مدى فترة طويلة، وهو الجانب الأهم في دراسة التجارب.

إن قراءة التجارب تتطلب عودة إلى الجذور وتاريخ التأسيس، ودراسة العقبات التي صاحبت النشأة، لا مجرد الاكتفاء بالنظر إلى التجربة في لحظتها الراهنة، وقد وصلت إلى مرحلة الإثمار والإنتاج، فالوقائع القائمة اليوم تفرض نفسها، وتتناولها

(١) أمل الآمل. ج ١، ص ١٥.

(٢) أمل الآمل. ج ١، ص ١٣.

وسائل الإعلام يومياً، بينما يغيب الحديث عن خلفيات التأسيس.

□ دور الإمام موسى الصدر

عند الحديث عن الانبعاث الشيعي الجديد في لبنان، لا أحد يماري في أن هذا الانبعاث إنما تبلور على يد الإمام السيد موسى الصدر، المغيب في ليبيا منذ سنة ١٩٧٨، فهو باعث هذه الحالة الجديدة في لبنان.

ينحدر الإمام الصدر من أسرة علمية عريقة، أسرة آل الصدر في العراق، فكان أبوه السيد صدر الدين الصدر يدرس في النجف الأشرف، ومنها هاجر إلى إيران، وبقي في مدينة قم، فكان من مؤسسي الحوزة العلمية إلى جانب مؤسسها الأول الشيخ عبد الكريم الحائري، عاش الصدر الأب في قم، وتزوج سيدة من مدينة مشهد، وقد ولد السيد موسى الصدر في قم سنة ١٩٢٨م وهو ابن عم الشهيد السيد محمد باقر الصدر المتزوج من أخت السيد موسى الصدر.

ولد السيد موسى في قم، وعاش فيها، ودرس هناك الدراسة الأكاديمية، ثم التحق بالحوزة العلمية سنة ١٩٤١م لعشر سنوات، قبل أن يلتحق بجامعة طهران سنة ١٩٥٠م، فكان أول عمامة تدخل جامعة طهران، درس في قسم الحقوق الاقتصادية، وتحصل على البكالوريوس سنة ١٩٥٣، وتعلم اللغتين الإنكليزية والفرنسية، إلى جانب إتقانه الفارسية والعربية، ويعتبر أول شخصية دينية شيعية في العالم العربي يكون لها نشاط سياسي، فبرز سياسياً وثقافياً واجتماعياً، من هنا يستحق أن تقرأ تجربته وأن تدرس سيرته.

درس الإمام الصدر في الحوزة العلمية ما تعرف بدروس السطوح والمقدمات والسطوح العالية، ومن تلامذته الشيخ هاشمي رفسنجاني رئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام، والمرجع الديني الشيخ يوسف الصانعي، وحضر الصدر بعض أبحاث الخارج في حوزة قم، ثم انتقل إلى النجف الأشرف، وبقي فيها أربع

سنوات، حضر على مراجعها كالسيد محسن الحكيم، والسيد أبو القاسم الخوئي، والشيخ حسين الحلبي، والسيد محمود الشاهرودي، وكانت له مباحثات مع السيد محمد باقر الصدر في الفقه والأصول والفلسفة، ثم عاد بعدها إلى قم سنة ١٩٥٨م، وكان له دور في تأسيس بواكير النشاط الإسلامي الحديث في إيران، فقد فكر هو وبعض العلماء في إصدار مجلة فكرية، وكان إنشاء مجلة فكرية في الحوزة في تلك المرحلة مهمة شاقة، وغير مرحب بها، لكن السيد موسى الصدر غامر وتحمل الصعوبات والانتقادات، وأصدر أول مجلة في حوزة قم تحت اسم (مكتب إسلام) باللغة الفارسية، كما أنشأ مدرسة أهلية ابتدائية، فكانت أول مدرسة أهلية تنشأ في قم بالتعاون مع الشهيد الدكتور بهشتي الذي أصبح لاحقاً أول رئيس لمجلس الشورى الإسلامي بعد قيام الثورة.

وقد حظّ السيد موسى الصدر رحاله في لبنان لأول مرة سنة ١٩٥٩م بعد رحيل السيد عبدالحسين شرف الدين المرجع الديني في لبنان، وهو من نفس أسرة آل الصدر. فقد طُلب من السيد موسى الصدر الذي كان في عقده الثالث آنذاك أن يأتي إلى لبنان ليحل محل السيد عبد الحسين شرف الدين، وقد قال في حقه السيد جعفر شرف الدين «لقد رحل عنكم السيد عبد الحسين شرف الدين وهو يحمل على أكتافه سبعة وثمانين عاماً وعاد إليكم الآن وهو في الحادية والثلاثين من العمر».

مارس الإمام الصدر منذ بواكير تواجده في لبنان أدواراً سياسية وثقافية واجتماعية غير مسبوقه على مستوى علماء الدين في تلك المرحلة. ومن تلك الأدوار:

أولاً: التصدي للشأن العام

إن أول ما لفت نظر الإمام الصدر إبان قدومه إلى لبنان هو المستوى المعيشي المتدني للشيعة هناك، لدرجة لم يكونوا يحملون معها بطاقات هوية تحفظ لهم

أبسط حقوق المواطنة. لقد كان السكان الشيعة مهضومي الحقوق على كافة المستويات، بدءاً من التهميش السياسي التام - ومن كان من الشيعة ذا حظوة سياسية فلم يكن يتجاوز في ذلك مصالحه الخاصة والضيقة - وصولاً إلى الفقر والمرض الذي يعيش في مناطقهم، وأبرز مناطقهم ما عرف بـ (حزام البؤس) حول بيروت، الذي ضمّ السكان النازحين نتيجة العدوان الإسرائيلي المتكرر على قراهم في الجنوب اللبناني. ولعلّ آثار الإهمال التنموي للمناطق الشيعية في تلك المرحلة لا تزال ماثلة حتى اليوم في مناطق البقاع وجنوب لبنان.

إزاء هذا الوضع السيئ الذي يعيشه الشيعة في لبنان، مارس الإمام الصدر منذ بواكير تواجده أدواراً غير مسبوقة على مستوى علماء الدين في تلك المرحلة، فقد كان اهتمام العلماء آنذاك منحصراً في الجانب الديني فقط، بعيداً عن أي اهتمام بالوضع السياسي والاقتصادي والتعليمي، فتصدى السيد الصدر لهذا الأمر، وبدأ في تجاوز التفكير المنحصر في المسائل الدينية إلى النهوض الحضاري بالطائفة الشيعية في لبنان.

لقد شكلت خطابات ومحاضرات السيد الصدر انعطافة ثقافية كبرى على المستوى الحياتي للناس. وكان يرى أنه بدوره هذا يسدّ الفراغ الذي تركه انشغال العلماء بالأمر الديني والعقائدية الخاصة. علماً بأنه لم تكن تنقصه الكفاءة الدينية، فقد كان عالماً فقيهاً مجتهداً، ويقول بعض أقرانه أنه لو بقي في النجف لبضع سنوات أخرى لأصبح من كبار المراجع، كما ينقل عن المرجع الراحل السيد الخوئي، أنه أسف كثيراً لخروج السيد موسى الصدر من النجف، وكان يرى ضرورة بقاء الصدر في النجف ليصبح أحد المراجع في المستقبل. غير أن الإمام الصدر أثر أن يرضى مشروع النهضوي الجديد التي كانت أولى لبناته بث الوعي الثقافي والحياتي في أوساط الناس.

رأى الصدر أن من أهم أسباب ضعف الشيعة في لبنان فقرهم الاقتصادي،

فشدد على ضرورة تقوية أنفسهم اقتصادياً. فأحدث على هذا الصعيد نقلة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها، عبر تأسيس الكلية المهنية بجبل عامل، مستهدفاً تخريج الكفاءات المهنية في مختلف مجالات العمل. وكان يشجع الناس على العمل والتجارة، كما أسس معهداً للتمريض لتخريج الممرضات، وأنشأ مؤسسة لتعليم حياكة السجاد، وهكذا كان له دور كبير في دفع الناس للتجارة والعمل والتصنيع والفاعلية.

كما أولى السيد الصدر اهتماماً كبيراً بالوضع الاجتماعي للشيععة، فقام بتأسيس نادٍ للشباب، ومركز طبي، ودار للمعوقين والعجزة. كما أسس (هيئة نصره الجنوب) على أثر العدوان الإسرائيلي، وهي هيئة مشكلة من مختلف الطوائف الموجودة في لبنان، ناهيك عن دوره الفاعل في تشكيل ما يعرف بمجلس الجنوب.

ثانياً: استثمار وسائل الإعلام

بخلاف ما كان سائداً وسط الطبقة الدينية آنذاك، اتجه الإمام الصدر إلى استثمار الإعلام المفتوح الذي يملأ الساحة اللبنانية من الصحف والمجلات والإذاعات والتلفزيونات ووكالات الأنباء. فقد كان العلماء يتجاهلون وسائل الإعلام، وكانوا يرون أن التعاطي معها نوع من البروز غير اللائق برجال الدين، غير أن السيد الصدر كان يحاججهم بضرورة الاستفادة من فرص الوصول لوسائل الإعلام، وكان يرى بأن هذا الظهور هو إثبات لوجودنا أولاً، وإيصال صوتنا للآخرين ثانياً، مستشهداً بقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام لتلميذه أبان بن تغلب: «اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس فإنني أحب أن يرى في شيعتي مثلك»^(١)، فكان أول عالم دين في لبنان يستقبل الصحفيين ووسائل الإعلام، ويصنع علاقة طيبة معهم، ويتواصل معهم، وكان يطلق على الصحفيين مصطلح (الناطقون بالحق) وكان يردّد مقولة (الإعلام نار ونور)، فاستفاد من الفرص المتاحة في هذا المجال إلى حدٍّ كبير.

(١) وسائل الشيعة. ج ٣٠ ص ٢٩١.

ثالثاً: الانفتاح الديني

لقد أدرك الإمام الصدر أن الشيعة في لبنان لا يعيشون في جزيرة نائية، وإنما هم جزء من تشكيلة واسعة من الطوائف في بلدهم، فأسس لعلاقات وطيدة عابرة للطوائف. واهتم بإقامة العلاقات والانفتاح على التجمعات والطوائف الأخرى، من المسيحيين والدروز والسنة. لقد أقدم الصدر على هذه الخطوة في وقت لم يكن معظم علماء الدين يرون أنفسهم معنيين بأيّ شأن خارج مجتمعهم وطائفتهم. بدأ الإمام موسى الصدر بالتواصل مع رؤساء الطوائف المختلفة، فكان أول عالم دين مسلم في لبنان وربما في العالم العربي يدخل الكنيسة، عندما ألقى محاضرة في كنيسة (مار مارون) في طرابلس، وقد كان يدعى في بعض الأحيان لإلقاء عظة الأحد. وقد أوجد هذا التحرك ضجة كبرى ضد السيد الصدر في لبنان وخارجها.

رابعاً: الانفتاح السياسي:

لقد كان الإمام الصدر أول عالم دين شيعي استطاع أن يقتحم المجال السياسي العربي من أوسع أبوابه، عبر منهجية أثارت الإعجاب. فقد اتسم تحرك الصدر بانفتاح سياسي على حكومات المنطقة، تحاشياً لأي سوء فهم لتحركاته السياسية والاجتماعية في لبنان. وقد سافر إلى مصر، وربطته علاقة جيدة مع الرئيس المصري آنذاك جمال عبد الناصر، وعقد معه عدة لقاءات، كما حضر إلى المملكة والكويت بدعوات رسمية من قادتها السياسيين، وكان له اتصال وثيق مع الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد، وأقام علاقات جيدة مع الحكومات العربية، وكان بذلك أول عالم دين شيعي يخترق هذا الميدان.

إن من المهم التوضيح هنا بأن العمل السياسي واللقاء مع الأنظمة ورؤساء الحكومات كان ينظر إليه آنذاك في بعض الأوساط باعتباره عملاً مشبوهاً. إلا أن السيد الصدر كانت له نظرة ثاقبة، وقد وُطن نفسه على تحمل المضاعفات والنتائج، خصوصاً مع مخالفة بعض كبار العلماء في لبنان لمنهجيته. وتذكر بعض التراجم

في هذا السياق أن العالم المعروف الشيخ محمد جواد مغنية كان مخالفاً لحركة السيد موسى الصدر، وقد ألقى عدة خطابات وكتابات ضده، فقد كانت عنده وجهة نظر أخرى، على غرار علماء آخرين مضوا في ذات السبيل.

وقد طلب الصدر من كثير من العلماء أن يتعاونوا معه في إنشاء المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، لكنهم رفضوا، واعتبروا هذا المشروع مشبوهاً، فلم يكن هناك إجماع عليه، ولم يكن هناك فهم لطبيعة حركته، ومع ذلك مضى السيد الصدر في تأسيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الذي أصبح فيما بعد كياناً للطائفة منذ عام ١٩٦٩م، وأسس بعد ذلك (أفواج المقاومة الإسلامية) المعروفة اليوم بحركة أمل وذلك سنة ١٩٧٥.

وقد سبق ذلك وقوف الصدر إلى جانب القضية الفلسطينية منذ سنة ١٩٧٠ بعيد واقعة أيلول الأسود في الأردن. فقد حث الإمام الصدر الشيعة في الجنوب اللبناني على احتضان إخوانهم الفلسطينيين المهجرين من الأردن، وأن يكونوا معهم كما كان الأنصار للمهاجرين، وهذا ما حصل بالفعل، فقد أزر الشيعة في لبنان إخوانهم الفلسطينيين، وقد انعكس ذلك على علماء ومراجع الشيعة خارج لبنان، ومنهم المرجع الأعلى آنذاك السيد محسن الحكيم في النجف الأشرف، الذي أصدر فتوى بإعطاء الحقوق الشرعية للاجئين الفلسطينيين. وقد قاد الموقف الشيعي المناصر للقضية الفلسطينية، إلى اندلاع ما عرف بحركة خرداد في إيران على خلفية الاحتجاج الشعبي على إقامة شاه إيران العلاقة مع إسرائيل. ذلك لأن الشيعة يعيشون حالة الظلام والحرمان، فهم يستشعرون على نحو بالغ آلام المحرومين الآخرين، فضلاً عن تربيتهم على سيرة أئمتهم منذ نعومة أظفارهم، في التزام الوقوف إلى جانب المظلومين، وقد كان آخر وصية لأمير المؤمنين عليه السلام لابنيه الحسن والحسين: «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»^(١).

(١) نهج البلاغة. كتاب ٤٧ وصيته للحسن والحسين عليهما السلام.

التجاوب الاجتماعي

بقي أن نشير إلى أن أحد أهم أسرار نجاح حركة الإمام موسى الصدر هو وجود مجتمع متفاعل ومتجاوب مع طروحاته التجديدية المختلفة. ولو لم يجد السيد الصدر مجتمعاً يتفاعل ويتجاوب معه لما استطاع أن يحقق ما حقق، وأن ينجز ما أنجز، بالرغم من وجود المخالفين، وهم في الغالب من الزعامات السياسية والدينية. لقد كان الجمهور متعاطفاً ومتفاعلاً مع طروحات السيد الصدر، وقد ترجم ذلك بحضور أكثر من ١٠٠,٠٠٠ مواطن في المهرجانين الذين أقامهما في بعلبك وفي صور، أن في ذلك دلالة واضحة على أن الرجل كانت له شعبيته من جهة، وعلى وعي الشعب اللبناني من جهة أخرى، حيث استطاعوا أن يميزوا القيادة التي تخدمهم ويلتفوا من حولها، ويتفاعلوا معها.

إن كفاءة القيادة لا تحقق أهداف الأمة وتطلعات المجتمع ما لم يكن هناك استجابة من الجمهور لنداءات القيادة، ووعي والتزام بمشروعها.

فقد كان الإمام الحسين بن علي أفضل قيادة للأمة في عصره، وكان يمكنه إنقاذ الأمة وتخليصها من الجور والفساد الأموي، وقد أعلن موقفه الرفض لحكم يزيد بن معاوية، وتوجه للعراق تلبية لرسائل زعماء الكوفة الذين تمنوا عليه التصدي لقيادة الأمة.

وبعث إليهم سفيره مسلم بن عقيل، الذي بايعه جمع غفير من أهل الكوفة في البداية، لكن الجمهور الكوفي خضع فيما بعد لتضليل وترهيب السلطة الأموية، وخذل الإمام الحسين، وانتهى الأمر بمقتل مسلم بن عقيل في الكوفة، ثم مقتل الإمام الحسين وأهل بيته وأنصاره في كربلاء.

ولم تتحقق للأمة أهدافها في إقامة الحق والعدل آنذاك، وبقيت خاضعة للطغيان الأموي عقوداً من الزمن، لا لنقص في كفاءة القيادة الحسينية، وإنما لضعف في إرادة الأمة ووعي الجمهور.

مواجهة أهل البيت لسياسة العزل والتهميش

العزل والتهميش سياسة الظلم

برنامج أهل البيت لمواجهة هذه السياسة

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ
مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [سورة النمل: الآية
٥٦].

□ العزل والتهميش سياسة الظلم

عادة ما يواجه حملة القيم والمبادئ بحرب من المتسلطين الذين يتضررون من انتشار القيم الفاضلة، والمبادئ السامية.

المتسلطون الفاسدون في المجتمعات يريدون أن تبقى الساحة خالية أمام هيمنتهم وتسلطهم، فإذا كان هناك من يبث قيم العدل والحرية والكرامة ومكارم الأخلاق، فإن هؤلاء المتسلطين الفاسدين المستفيدين من انتشار الرذائل والمفاسد، يعلنون حرباً على حملة القيم والمبادئ؛ لأن انتشارها يضر تسلطهم وهيمنتهم، وهذه الحرب تشمل وسائل وأساليب قذرة، من أهمها سياسة العزل والتهميش، فيخططون ويعملون من أجل أن يعزلوا أصحاب القيم والمبادئ، وأن يهيمشوا دورهم، ويبعدونهم حتى لا يؤثروا في المجتمع، ولا تنتشر في الناس القيم التي يبشرون بها.

وفي قصة نبي الله لوط عليه السلام يتحدث القرآن الكريم عن السياسة التي أعلنها قومه تجاه دعوته، وهي طرده وذويه من البلاد، حتى لا يتأثر المجتمع بقيم الأخلاق الطاهرة التي يبشر بها، يقول تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: ٥٦].

لقد جاء نبي الله لوط عليه السلام يدعو الناس إلى عبادة الله، وينهاهم عن المفاسد

والرذائل، وكان من أسوأها ما انتشر في أوساطهم من شذوذ أخلاقي، هو ممارسة الجنس بين الذكور، هذا الشذوذ الجنسي انتشر في قوم لوط، ويبدو أنهم أول مجتمع ظهر فيه هذا الفساد، كما تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٢٨]، وفي سورة النمل: ﴿أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٥٥].

وهي ممارسة شاذة مخالفة لمسار الطبيعة، ومحرم شرعاً، توعدّ الشرع فاعلها ومرتكبها بأشد أنواع العذاب، فقد ورد عن النبي محمد ﷺ أنه قال: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط»^(١)، وفي حديث آخر عنه ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(٢)، والفقهاء تكلموا حول أحكام الحد الذي يقام على من يمارس هذه الفاحشة النكراء، التي تعتبر مصدراً لأسوأ وأخطر الأمراض في تاريخ البشر، وهو مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز)، الذي يطلق عليه (طاعون العصر)، هذا المرض بداية اكتشافه كان في أوساط مجموعة من الشباب الشاذين في ولاية سان فرانسيسكو في أمريكا، وبدأ البحث العلمي والطبي حول هذا الموضوع، فوجد العلماء والأطباء أن الشذوذ الجنسي من أهم أسباب هذا المرض، ولا ينحصر السبب في الإصابة به في الشذوذ الجنسي؛ لأنه ينتقل أيضاً عبر نقل الدم وانتقال سائر السوائل من أجسام المصابين.

نبي الله لوط ﷺ كان يحذّر قومه من هذا السلوك الفاسد، ويدعوهم إلى عبادة الله بالمنطق والدليل والبرهان، وتشير الروايات أنه كان يدعو قومه ما يقرب من ثلاثين عاماً، وينصحهم، لكن زعماء قومه المتضررين من مكافحة الفساد وانتشار مكارم الأخلاق كان جوابهم وموقفهم العمل على إبعاده عن المجتمع: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾، اطرّدوا هؤلاء الذين يبشرون بالقيم الأخلاقية الفاضلة،

(١) المستدرک علی الصحیحین. ج ٤، ص ٣٥٦.

(٢) مستدرک الوسائل، ج ١٨، ص ٨١، حديث ٢٢١٠٧.

أخرجوهم من القرية وأبعدوهم عن المجتمع! لماذا؟ وما هو ذنبهم حتى يخرجوا ويحاصروا؟ ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، الالتزام بالطهارة الأخلاقية، جريمة استحقوا بها أن يُعزلوا ويُخرجوا من القرية، وهذا هو أسلوب المتسلطين المفسدين في كل مجتمع، تجاه أي جماعة يحملون القيم والمبادئ الفاضلة، حيث يسعون لمحاصرتهم، وهي سياسة ظالمة؛ لأن الرأي يُواجه بالرأي، والفكر يُقابل بالفكر، ولا يصح أن يحرم إنسان من التمتع بحقوقه الإنسانية؛ لأن له رأياً آخر يبشر به، هذا ظلم وعدوان.

آثار سياسة العزل

بالطبع فإن سياسة العزل والتهميش تترك آثاراً وأضراراً بالغة الخطورة على من يتحمل مسؤولية الدعوة إلى القيم والمبادئ، ومن بين تلك الآثار والأضرار:

أولاً: الضغوط النفسية: تمارس سياسة العزل والتهميش كحرب نفسية في مواجهة المبشرين بالقيم، وذلك بهدف إيقاع الضغط النفسي عليهم.

ثانياً: الصعوبات الحياتية: كما أن هذه السياسة من شأنها أن تُسبب صعوبات في حياة الذين تُمارس ضدّهم، وبذلك ينشغلون بمشاكلهم الحياتية على حساب تفرغهم لدعوتهم.

ثالثاً: منع التأثير والتمدد: وهذه السياسة الظالمة تستهدف تقليص دور دعاة الفضيلة والقيم، وتقليل مساحة حضورهم في المجتمع. ومنع تمددهم وتأثيرهم في الآخرين.

أساليب التهميش

إن لهذه السياسة أساليب متعددة يمتنها المتسلطون، ومن تلك الأساليب:

١. حجب فرص التقدم: التكافؤ في الفرص من سمات المجتمع المتقدم، أما المجتمعات المتخلفة فتكون مستنقعا لذوي الأطماع، الذين لا يتركون لسواهم مجالاً للتقدم، فيسعون جاهدين للاستئثار بمختلف الفرص، وخصوصاً عن أولئك الذين يتطلعون لتحقيق القيم العادلة في المجتمع.
٢. تشويه السمعة: ومن الأساليب المشينة التي يُمارسها المتسلطون ضد دعاة الفضيلة ترويج الشائعات التي من شأنها تشويه سمعتهم، والنيل من أشخاصهم، وهذا امتحانٌ صعب يواجهه كل من يتحمل مسؤولية نشر القيم والفضيلة في المجتمع.
٣. تخويف الناس من المصلحين: ومن الأساليب، بث مشاعر الخوف في الناس من الاقتراب من المصلحين، ليتحقق عزلهم عن الناس.

ولقد تعرض أهل البيت ﷺ لمختلف أساليب سياسة العزل التهميش، فقد حاصر المشركون في مكة رسول الله ﷺ وأسرته من بني هاشم في شعب أبي طالب ﷺ لثلاث سنوات، حتى إن الواحد منهم كان يخرج ببضاعته فلا يشتري منه أحد، أو يخرج بماله فلا يبيعه أحد، وقد ورد أن بني هاشم اضطروا لأكل أوراق الأشجار من الجوع.

معاناة أهل البيت

وتعرض أهل البيت ﷺ لإشاعات تشويه السمعة، فاختلفت الأحاديث ضدّهم، ونُسب إليهم كلامٌ لم يتكلّموا به، وقد ورد عن الإمام الصادق ﷺ قوله: «لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدّمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا

محمد ﷺ»^(١).

ومثل ذلك ورد عن الإمام الرضا ﷺ أيضاً إذ يقول: «إن مخالفتنا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على أقسام ثلاثة: أحدها الغلو، وثانيها التقصير في أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٨]»^(٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى ضرورة تنقية التراث الإسلامي من الأحاديث التي فيها غلو وإثارة طائفية، كما ينبغي التصدي للأحاديث الموضوعية، ولذا يحتاج المجتمع إلى خبراء ليكشفوا المدسوس من غير المدسوس، لتبقى الأحاديث سليمة من أغراض العابثين.

وتعرض أهل البيت ﷺ لأساليب التخويف من الاقتراب منهم ومن شيعتهم أيضاً، وفي ذلك يقول الفتح بن شخرف: «حملتني عيني فتمت، فبينما أنا نائم إذا بشخصين، فقلت للذي يقرب مني: من أنت يا هذا؟ فقال: من ولد آدم. قال: قلت: كلنا من ولد آدم، فمن الذي وراءك؟ قال: علي بن أبي طالب. قلت: أنت قريب منه ولا تسأله؟ قال: أخشى أن يقول الناس إنني رافضي»^(٣)، هكذا انعكست سياسة التخويف على هؤلاء الناس حتى في أطراف نومهم.

وينقل الخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد) كيف أن الإمام أحمد بن حنبل تعرض للوم والعتاب؛ لأنه كان يستقبل إحدى الشخصيات الشيعية الموالية

(١) بحار الأنوار ج ٢ ص ٢٥٠

(٢) المصدر نفسه ج ٢٦ ص ٢٢٩.

(٣) أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن عساكر. تاريخ مدينة دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، (بيروت: دار الفكر، تحقيق علي شيري) ٤٨/٢٣٣.

لأهل البيت عليهم السلام وهو عبدالرحمن بن صالح الأزدي الكوفي (توفي ٢٣٥هـ).

حيث أورد البغدادي عن يعقوب بن يوسف المطوعي قال: «كان عبدالرحمن بن صالح الأزدي رافضياً وكان يغشى الإمام أحمد بن حنبل، فيحترمه الإمام أحمد بن حنبل فيقربه ويدنيه، فقيل له: يا أبا عبدالله، عبدالرحمن رافضي! فقال: سبحان الله، رجل أحبّ قوماً من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، نقول له لا تحبهم؟ هو ثقة»^(١).

ونقل البغدادي عن يحيى بن معين (توفي ٢٣٣هـ) وهو من الأئمة الأعلام، ومن شيوخ المحدثين، ومؤرخي رجال الحديث عند أهل السنة، وصفه الذهبي أنه سيد الحفاظ، يقول ابن معين عن عبدالرحمن بن صالح الأزدي: (يقدم عليكم رجل من أهل الكوفة يقال له: عبدالرحمن بن صالح، ثقة صدوق شيعي؛ لأن يخرّ من السماء أحبّ إليه من أن يكذب في نصف حرف)^(٢).

هكذا تمارس الضغوط لعزل الشخصيات المنتمية لأهل البيت، مثل عبدالرحمن الأزدي، مع ظهور وثاقته، وجلالة قدره.

وفي هذا العصر

هذه السياسة مستمرة إلى هذا العصر، إذ نجد توجهاً عنيفاً عند بعض الجهات من أجل توسيع الشقة والفاصلة بين جناحي الأمة: السنة والشيعة. بحيث يمكن القول بكل ثقة وعن طريق الكثير من الشواهد الواضحة والظاهرة: إن هناك جهات تعمل ليل نهار كي لا يتقارب المسلمون من بعضهم بعضاً، وهذا إما بسبب التعصب الأعمى، وإما لمصالح وأغراض سياسية، أو بتوجيه من أعداء الأمة في الداخل والخارج، وقد يكون لغفلة بعض من يسلكون هذا المنهج الخطأ.

(١) الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد، ج ١٠، (بيروت: دار الكتب العربية)، ص ٢٦٢.

(٢) المصدر نفسه.

وقد رأينا الكثير من النماذج، ففي لبنان حين عقد جماعة من السنة السلفيين اتفاقاً مع حزب الله بتاريخ ١٨ اغسطس ٢٠٠٨م، تضمّن إقراراً للاحترام المتبادل، وللتناصر والسلم الاجتماعي، وتأكيد الوحدة الإسلامية، قامت قائمة جهات كثيرة، وما قررت لهم عين حتى جمّد هذا الاتفاق.

ويتحدث الدكتور الشيخ محمد العوضي، وهو من الدعاة الإسلاميين في الكويت، في مقابلة له في إحدى المجلات، حين سئل: كثيراً ما تغازل الشيعة في برامجك التلفزيونية الرمضانية، فهل هذا بهدف توسيع قاعدتك الجماهيرية؟

أجابهم: هل الصلاة على آل بيت النبوة وذكر مناقب الإمام علي وفاطمة والحسن والحسين وجعفر الصادق دليل على أنني «أجامل الشيعة»؟ إن كانت هذه قناعة بعض الناس فإنني أردّد مع الإمام الشافعي:

إن كان رفضاً حبّ آل محمدٍ فليشهد الثقلان أني رافضي

و حين سئل: ولكنك أكثرت وبالغت بذكر آل البيت، قال: إنها نعم المبالغة، حيث حب آل البيت من الإيمان وبغضهم من الخسران، والأحاديث في كتب السنة كالبخاري ومسلم وغيرها كثيرة في مناقب آل البيت، بل إن الإمام مسلم يروي حديثاً عن النبي ﷺ يقول: «يا علي، لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»^(١).

وفي بلادنا التي تحتضن الحرمين الشريفين، والتي يُفترض فيها أن تكون حامية الوحدة الإسلامية، نجد - مع الأسف - بعض الجهات تعمل على تعزيز هذا الاتجاه، ورأينا ذلك بكل وضوح وجلاء، فحين يكتب أحد علماء الشيعة في جريدة محلية، أو يظهر في إحدى الوسائل الإعلامية، تجد نشاطاً محموداً لمنعه بمختلف الأساليب: رسائل الجوال، البريد الإلكتروني، رسائل الفاكس، الاتصالات، المهم في الأمر أن يتحقق المنع.

(١) مجلة الحدث. العدد ٤٧ بتاريخ يونيو ٢٠٠٠م.

وليس فقط في المجال الإعلامي وإنما حتى في مجال التواصل، فإذا جاء عالم من علماء السنة لزيارة الشيعة، تبدأ حملة شعواء ضده، بمختلف الطرق والوسائل، وحينما يدعى عالم من علماء الشيعة إلى مجلس من مجالس أهل السنة في الرياض أو في جدة، تبدأ حرب شعواء، وقد تصل إلى التهديد والوعيد.

وكلكم رأيتم كيف أن عالماً كبيراً ورمزاً من الرموز، وهو الشيخ القرضاوي، حينما بدأ يتواصل مع الشيعة وكتب بحثاً جميلاً حول التقريب بين السنة والشيعة، يدعو فيه إلى التقريب، ويرد على بعض الاتهامات حول الشيعة، ثارت نائرة البعض إذ لم يعجبهم هذا الأمر فقاموا بالضغط على الشيخ القرضاوي حتى يغير رأيه.

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هو الموقف تجاه هذه الحالة؟

□ برنامج أهل البيت لمواجهة هذه السياسة

البعض من الناس حينما تمارس ضدهم سياسة العزل والتهميش، يستجيبون لتلك السياسة الظالمة، ويعينون على أنفسهم، إما بسبب الجهل وضعف الوعي، أو بسبب غلبة العاطفة والانفعال، فيقعون في فخ العزلة، ويستمرؤون حالة الانكفاء والانطواء، أو يتصرفون بطريقة ردود الأفعال المتشنجة.

إن أي جهة تواجه هذه الحالة ينبغي أن تتحلى بالوعي، ذلك لأن الاستجابة لسياسة المتسلطين والمغرضين إنما تخدم مصلحة أعداء الأمة. ولنا في سيرة أهل البيت ﷺ المثل الأعلى، ويُمكننا أن نستلهم من موقف أهل البيت ﷺ تجاه سياسة العزل والتهميش التي مورست ضدهم البرامج التالية:

أولاً: ثقافة التسامح والانفتاح

لقد دأب الأئمة ﷺ على نشر ثقافة التسامح، ورحابة الصدر، واستيعاب الآخر، بين أتباعهم؛ إذ لم يشجعوا شيعتهم على الانفعال والغضب، وكان ذلك واضحاً

في سيرتهم، فهذا الإمام الحسن عليه السلام حينما يأتيه ذلك الشامي ويسبه ويشتمه، نجد بوضوح كيف تعامل الإمام الحسن عليه السلام معه، قال له:

«أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبهت، فلو استعبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنياك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأن لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً، فلما سمع الرجل كلامه، بكى ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ والآن أنت أحب خلق الله إليّ»^(١).

وهذا الإمام الباقر عليه السلام يقول لأحد أصحابه وكان شديد الحماسة: «إني أراك لو سمعت إنساناً يشتم علياً فاستطعت أن تقطع أنفه فعلت؟ قلت: نعم، قال: فلا تفعل، ثم قال: إني لأسمع الرجل يسب علياً واستتر منه بالسارية، وإذا فرغ أتيته وصافحته»^(٢).

هذه سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام، التي تُعبّر عن الموقف الحكيم الذي يدعو له القرآن الكريم: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٤].

بعض الناس يرى أنه لا تجدي الأخلاق الطيبة مع المتشدديين والمتعصبين، ولكن المسألة أن كل إناء بالذي فيه ينضح، فالمؤمن الواعي لا يرضى لنفسه أن يمارس أسلوب التشنج والانفعال؛ لأن الآخرين يمارسونه. ولا تقف المسألة عند هذا الحد وإنما تتسع إلى أفق الأمة كلها، فوجود جماعة متعصبة ضد أخرى

(١) بحار الأنوار ج ٤٣ ص ٣٤٤.

(٢) المصدر نفسه ج ٧٢ ص ٤٠٠.

منفتحة، يجعل الأمة تتف إلى جانب الجماعة المنفتحة وينتصرون لأخلاقها.

ثانياً: تشجيع الحضور والتواصل

ينبغي لمجتمع المؤمنين أن يحبط سياسة العزل والتهميش بتواجده وحضوره، وإثبات كفاءته وقدراته، ولذلك نجد أن الأئمة عليهم السلام ربوا في تلامذتهم كفاءات وقدرات كانت تفرض نفسها، وكانوا يدفعونهم للحضور والتواجد في ساحة الأمة، وفيما يلي نستعرض بعض الجوانب من حضور أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم البارز في الساحة الإسلامية:

الحضور السياسي

حين نتصفح التاريخ نجد أن هناك عدداً كبيراً من أصحاب وتلامذة أهل البيت عليهم السلام كان لهم حضور واضح على الصعيد السياسي، فهذا سلمان الفارسي الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «سلمان منا أهل البيت»^(١) المعروف بولائه لأمر المؤمنين عليهم السلام، كان والياً من قبل الخليفة عمر بن الخطاب على المدائن^(٢).

وهذا عمار بن ياسر، الذي ورد فيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه: (ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه)^(٣) وهو وثيق الصلة بأمر المؤمنين علي بن أبي طالب، كان والياً على الكوفة من قبل الخليفة عمر بن الخطاب، ومما جاء في خطاب الخليفة لأهل الكوفة: «أما بعد، فاني قد بعثت لكم عماراً أميراً، وعبدالله بن مسعود وزيراً ومعلماً، وهما من نجباء أصحاب محمد صلى الله عليه وآله فاقتدوا بهما»^(٤).

وكذلك داود بن زربي الكوفي، وكان من أصحاب الإمام زين العابدين

(١) المستدرک علی الصحیحین. ج ٣ ص ٦٩١ حديث ٦٥٣٩.

(٢) بحار الأنوار ج ٢٢ ص ٣٧٤.

(٣) بحار الأنوار ج ١٩ ص ٣٥.

(٤) عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ٤، (بيروت:

دار الكتب العلمية)، ص ١٢٦.

والإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام، وكان من سيرته أنه من أخصّ الناس بهارون الرشيد، وقبل ذلك كان قريباً من المنصور، ويقيم إلى جوار بستانه وقد وشوه إليه أنه رافضي^(١).

ومن النماذج أيضاً: علي بن يقطين الذي كان كرئيس الوزراء في عهد هارون الرشيد، في الوقت الذي كان فيه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في السجن، وحاول مراراً أن يخرج من الوزارة إلا أن الإمام الكاظم عليه السلام ينهاه، ويقول له: «لا تفعل فإن لنا بك أنساً ولإخوانك بك عزاً»^(٢).

وأيضاً عبدالله النجاشي كان والياً على الأهواز، وهو من أفذاذ شيعة الإمام الصادق عليه السلام.

وكذلك نوح بن دراج الذي كان من أصحاب الأئمة عليهم السلام، وقد تولى القضاء في الدولة العباسية، وكان بالرغم من هذا المنصب يفتي ويقضي طبقاً لرأي أئمة أهل البيت عليهم السلام.

كل ذلك يؤكد لنا بجلاء كيف أن أتباع أهل البيت عليهم السلام كان لهم حضورهم البارز في الجانب السياسي، وكان أئمة أهل البيت عليهم السلام يُشجّعونهم على ذلك.

الحضور العلمي

مدرسة أهل البيت عليهم السلام العلمية كانت ملتقىً لمختلف التوجهات في الساحة الإسلامية، فإمام المذهب الحنفي أبو حنيفة كان يحضر مجلس الإمام الصادق عليه السلام لمدة سنتين، وقد نقل عنه قوله: «لولا الستتان لهلك النعمان»^(٣)، وكذلك أنس بن

(١) السيد أبو القاسم الخوئي. معجم رجال الحديث، ج٧، الطبعة الرابعة ١٤١٠هـ، (قم المقدسة: مركز نشر آثار الشيعة)، ص١٠٢.

(٢) بحار الأنوار ج٤٨ ص١٣٦.

(٣) عبدالحليم الجندي. الإمام جعفر الصادق، الطبعة الأولى ١٩٧٧م، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية)، ص٢٥٢..

مالك، إمام المذهب المالكي، أيضاً كان يغشى مجلس الإمام الصادق عليه السلام، فكان يقول: «ما رأيت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادةً وورعاً»^(١)، وقال: «كان كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر عنده رسول الله صلى الله عليه وآله أصفر، وما رأيته يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً وإما صائماً وإما يقرأ القرآن»^(٢).

ومن تلامذة الإمام الباقر عليه السلام إبان بن تغلب الذي قال له الإمام: «اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس فإني أحب أن يرى في شيعتي مثلك»^(٣)، وقد سأل الإمام ذات مرة: «إني أقعد في المسجد فيجيئون الناس فيسألوني فإن لم أجبهم لم يقبلوا مني، وأكره أن أجيبهم بقولكم وما جاء منكم، فقال: انظر ما علمت أنه من قولهم فأخبرهم بذلك»^(٤).

وعلى هذا المنهج الانفتاحي سار العلماء من أتباع أهل البيت عليهم السلام، فالشيخ المفيد، رحمة الله عليه، وهو من كبار علماء الشيعة، درس على يد علي بن عيسى الرماني، وهو أستاذ سني، فأعجب بذكائه فسماه المفيد. وكان درس شيخ الطائفة الطوسي في بغداد منفتحاً على مختلف المذاهب الإسلامية.

وفي وقتنا المعاصر نجد هذا الانفتاح حاضراً في الساحة العلمية، ومن أبرز النماذج المعاصرة الخطاب الذي ألقاه المرجع الأعلى السيد السيستاني في النجف الأشرف، حينما التقى وفدًا من علماء السنة والشيعة، ونشر هذا الخطاب

(١) أسد حيدر. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، المجلد ٤، ج ٨، الطبعة الخامسة ١٤٢٢ هـ، (بيروت: دار التعارف)، ص ٣٧١. وأيضاً: التوسل والوسيلة لابن تيمية، ص ٥٢.

(٢) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، المجلد ٤، ج ٨، ص ٣٧١-٣٧٢. وأيضاً: مناقب الزواوي، ص ٣٣-٣٤.

(٣) وسائل الشيعة. ج ٣٠، ص ٢٩١.

(٤) المصدر نفسه ج ١٦، ص ٢٣٣ حديث ٢١٤٤٣.

في بعض وسائل الإعلام، ومما جاء فيه قول السيد السيستاني: «درست عن الشيخ أحمد الراوي، وهو من علماء السنة في سامراء، ولم يكن يخطر ببالي أنه على غير مذهبي»^(١).

من هنا فإن الحضور العلمي لأهل البيت عليهم السلام وتلامذتهم وأتباعهم واضح المعالم، بل إنه يُمثّل منهجاً أساساً في مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

الحضور الاجتماعي

إذا كان الحضور السياسي والعلمي خاصاً بالنخبة، فإننا نجد في تراث أهل البيت عليهم السلام توجيهاً لعامة أتباعهم، بأن يتواجدوا مع بقية المسلمين، يقول عبد الله بن زياد: «دخلت على الإمام جعفر الصادق عليه السلام بمنى قلت له: يا بن رسول الله، إن مكاننا بعيد، ولا نستطيع أن نجلس معك مثل هذا المجلس كلما أردنا، فأوصنا، قال عليه السلام: «أوصيكم بتقوى الله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الصحبة لمن صحبتكم، صلوا في مجالسهم، عودوا مرضاهم، اشهدوا جنازتهم، فإن أبي كان يقول: إن شيعتنا هم خيار قومهم، كذلك حبونا إلى الناس، ولا تبغضونا إليهم»^(٢)، وفي رواية أخرى يقول الإمام الصادق عليه السلام: «رحم الله عبداً اجتر مودة الناس إلى نفسه والينا»^(٣)، وعنه عليه السلام: «رحم الله عبداً حببنا إلى الناس ولم يبغضنا إليهم»^(٤).

فمن توجيهات الأئمة عليهم السلام أنهم يُشجّعون أتباعهم لحضور الصلاة مع بقية المسلمين، وهي مسألة مهمّة، فالصلاة جماعة فيها من الفضل ما لا يُحصى. وفي الفقه الإمامي هناك شرطٌ في إمام الجماعة بأن يكون مؤمناً، أي اثني عشرياً. إلا أن

(١) موقع رابطة الحوار الديني. www.alhiwaraldini.com.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ٨.

(٣) مستدرک الوسائل ١٢ ص ٢٧٥.

(٤) آقا حسين البروجردي. جامع أحاديث الشيعة، ج ١، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، (قم المقدسة)، ص ٢٨٩.

هذا الشرط له استثناء، فإذا كان الإنسان الشيعي في مكان وأقيمت صلاة الجماعة لأهل السنة، فينبغي له أن يُصلي معهم، بل إذا كان امتناعه يُسبب تشويهاً للمذهب، فلا يجوز له الامتناع؛ وهذا ينطبق على من يكون في الحرمين الشريفين، فإذا أقيمت الصلاة هناك وكان الشيعي حاضراً في الحرم الشريف، فينبغي له أن يُصلي مع المسلمين، ولا يبغي له أن يتأخر أو يتخلف أو أن يُصلي وحده. ففي حديث بسند صحيح عن حماد بن عثمان عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام يقول: «من صلى معهم في الصف الأول كان كمن صلى خلف رسول الله ﷺ في الصف الأول»^(١)، وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا صليت معهم غفر لك بعدد من خالفك»^(٢)، وسأل أحدهم الإمام الصادق عليه السلام: «إن لنا إماماً مخالفاً يبغض أصحابنا كلهم، فقال عليه السلام: «ما عليك من قوله، والله لئن كنت صادقاً لأنت أحق بالمسجد منه، فكن أول داخل وآخر خارج، وأحسن خلقك مع الناس وقل خيراً»^(٣)، وسأل الإمام الصادق إسحاق بن عمار: «يا إسحاق، أتصلي معهم في المسجد؟ قلت: نعم، قال: صلّ معهم فإن المصلي معهم في الصف الأول كالشاهر سيفه في سبيل الله»^(٤).

وقد أفتى فقهاء الإمامية بأن الصلاة مع بقية المسلمين لا تختص بحالة الاضطرار، وإنما تتسع لتشمل تعزيز التواصل وبناء جسور الثقة والألفة، وقد ناقش الفقهاء مسألة القراءة حين الصلاة مع جماعة أهل السنة، وهي مسألة يختلف فيها علماء السنة أيضاً، فالسيد الخوئي والسيد الشيرازي والسيد السيستاني يرون وجوب قراءة الحمد والسورة مع إمام الجماعة المخالف لك في المذهب، أما الإمام الخميني والسيد الخامنئي والشيخ مكارم الشيرازي والشيخ الصانعي لا

(١) وسائل الشيعة. ج ٨، ص ٢٩٩، حديث ١٠٧١٧.

(٢) المصدر نفسه. ج ٨، ص ٢٩٩، حديث ١٠٧١٨.

(٣) المصدر نفسه. ج ٨، ص ٣٠٠، حديث ١٠٧٢٢.

(٤) المصدر نفسه. ج ٨، ص ٣٠١، حديث ١٠٧٢٣.

يرون لزوم القراءة بل يكتفي بقراءة الإمام وإن كان مخالفاً في المذهب.

وفي ملحق مناسك الحج للمرجع السيد السيستاني تأكيد كبير على حضور الشيعة الصلاة في الحرمين الشريفين، وأنها الأفضل من إقامتها في منازل سكناهم.

لذلك يجب أن ننطلق من الفقه، ومن تعاليم الأئمة عليهم السلام، فالأئمة كانوا يدفعون أتباعهم لكي يكونوا ضمن الأمة، حتى لا يعزلوا ويهمشوا، ولا يبعدوا عن بقية جماهير الأمة، وهذا ما يجب أن يسود في المجتمع الشيعي، وخاصة في هذا العصر مع تكالب مؤامرات الأعداء، ووجود متشددين ومتعصبين، علينا أن نكشف هذه المحاولات ونفشلها.

إذاً ينبغي أن يكون هناك حضور لأتباع أهل البيت في ساحة الأمة، ولا يصح أن ننجح سياسة الحصار والعزل والتهميش. وقد يتخذ بعض أتباع الأئمة طريق الثورة حين تشتد عليهم ضغوط التهميش والعزل، ولذلك حصلت ثورات في عصور الأئمة عليهم السلام، فقد ثار زيد بن علي بن الحسين، وثار بقية الثائرين من الحسينين، ومن أتباع أهل البيت، وما ذاك إلا بسبب الضغوط، وقد كان الأئمة عليهم السلام يتفهمون الدوافع التي تدفع البعض من شيعتهم للثورة، فهي حالة طبيعية نتيجة لاشتداد الضغوط.

أما سيرة أئمتنا عليهم السلام في الأصل فقد كانت قائمة على أساس وحدة الأمة، وحفظ الاستقرار السياسي والاجتماعي، والسلم العام في الأمة.

وحين تحرك الإمام الحسين عليه السلام ضد سلطة يزيد بن معاوية، لم تكن حركته كإمام لطائفة، ولا دفاعاً عن حقوق طائفة، إنما تحرك من موقعه الرسالي دفاعاً عن مصالح الإسلام والأمة، قال عليه السلام: «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر».

عالم الدين وشجاعة الرأي - الإمام كاشف الغطاء نموذجاً

- التعبير عن الرأي بين الحق والواجب
- العوائق والتحديات
- الإمام كاشف الغطاء نموذجاً

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ
أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية
٣٩].

□ التعبير عن الرأي بين الحق والواجب

تكوّن الرأي عند الإنسان ناتجٌ لاستعماله لقدرته العقلية، وحيث إنّ الناس يتفاوتون في مدى استفادتهم من قدراتهم العقلية، فإن رصيدهم من الآراء مختلفٌ أيضاً، ويعود ذلك إلى مستوى الثقة بالنفس، وتوجه التفكير، وواقع البيئة والتربية. إن الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان قدرةً عقليةً يفكر بها، وباستخدامها يتكوّن له الرأي، وحيثما وجه المرء فكره أو اهتم بموضوع ما، يتكوّن له رأيٌ، وقد يختلف عن الآخرين من حوله، فمن يستخدم عقله أكثر، تنتج له آراء أكثر، أما من لا يستخدم عقله؛ فمن الطبيعي أن لا تتكون له آراء، وإنما يأخذ الآراء من الآخرين.

والإنسان إنما يُوجّه فكره لأمرٍ ما، ويُكوّن رأياً حوله، ويُعبّر بعد عن رأيه، لأسباب عدّة، منها:

٤. الثقة بالنفس: الإنسان الذي يثق بنفسه يستخدم عقله ويفكر في الأمور، وكثير من الناس لا يثقون بأنفسهم، ولا يرون أنفسهم أهلاً للتفكير في هذا الموضوع أو ذلك.

٥. التدريب والممارسة: إذا درّب الإنسان نفسه على التفكير، ومارسه باحثاً فيما

يفكر فيه تتكون لديه آراء.

٦. البيئة والتربية: إذا عاش الإنسان في بيئة تُشجع إنتاج الرأي والتعبير عنه، فإنه ينشأ على هذا النهج، أما إذا تربى في عائلة وبيئة قمعية، تضعف ثقته بنفسه، ولا تسمح له أن يعبر عن مشاعره وآرائه، فإن قدرته العقلية لا تنمو.

من هنا، فالتعبير عن الرأي حقٌّ للإنسان، وحقٌّ عليه من قبل المجتمع الإنساني، ولو لم يعبر العلماء عن آرائهم في مختلف المجالات لما تقدمت الإنسانية، ولهذا نجد أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يتضمن في مادته ١٩ العبارة التالية: (لكل شخص حقُّ التمتع بحرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحقُّ حرّيته في اعتناق الآراء دون مضايقة، وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها إلى الآخرين، بأية وسيلة ودونما اعتبار للحدود).

وقد يُصبح تعبير الإنسان عن رأيه واجباً إذا كان في إبداء ذلك الرأي مصلحة وإنقاذاً للآخرين، وكمثال بسيط، إذا رأيت أمامك إنساناً يوشك أن يقع في حفرة وأنت ترى وتبصر، وبإمكانك أن تنبهه، فليس من الإنسانية أن تسكت وتتفرج على وقوعه.

ويُفترض في أي تخصصٍ من التخصصات، أو علمٍ من العلوم، أن يهتمّ المتممون إليه بتنمية قدراتهم على تكوين الآراء فيه، ليتقدّم العلم ويتطوّر، إذ مطلوبٌ من الإنسان أن يسعى للإبداع وابتكار الجديد في المجال الذي يتخصص فيه، وليس فقط أن يبقى ضمن الآراء والنظريات السابقة، ولذا نجد في الجامعات يُطلب من الإنسان أن يكتب رسالة حتى ينال بها البكالوريوس أو الماجستير أو الدكتوراه، ومن الشروط أن يضيف من خلالها شيئاً جديداً، ليتكوّن تراكمٌ علمي في مجال البحث والعلم.

التعبير عن الرأي الشرعي

وهذا ينطبق أيضاً على مجالات العلوم الشرعية، فلكي يصل عالم الدين لمستوى الاجتهاد والفقاهة، فإن المطلوب منه أن يبدع ويضيف ويمارس قدرته الاجتهادية، لا أن يردد الآراء الموجودة التي درسها، يقول الشيخ المطهري: (ليس صحيحاً أن جميع المشاكل قد حلها العلماء، ولم تعد لدينا مشكلة ما، إننا نجد آلاف الألغاز والمشاكل في الكلام والتفسير والفقه وسائر العلوم الإسلامية، مما قام العلماء السابقون بحل الكثير منها، ولكن بقي منها الكثير الذي يتطلب الحل)^(١).

والاجتهاد إنما يعني القدرة على الاستنباط من المصادر المعتمدة، وليس شرطاً أن يتفق العلماء على رأي واحد، وإن اتفقوا على آلية الاستنباط.

والسؤال المهم: حين يتكوّن لدى عالم الدين رأيٌ مخالفٌ لما هو سائد في المجال الفكري أو الفقهي، فهل من حقّه أن يُعبّر عن رأيه؟

في الحقيقة، إن الفكر والفقه الإسلاميّ مدينٌ لأولئك العلماء الأبطال، الذين عبروا عن آرائهم ونظرياتهم الجديدة، فأضافوا إلى الفكر وإلى الفقه إضافات مهمة، ومنهم: شيخ الطائفة الطوسي الذي رقد المكتبة العلمية بكتابه (المبسوط)، فأدخل الفقه في مرحلة جديدة متّسعة بعد أن كانت الكتب الفقهية محدودة مختصرة، وحين جاء الشيخ محمد حسن النجفي وكتب موسوعته (الجواهر) فإنه ضاعف مساحة البحث الفقهي.

والعجيب أن يحتاج عالم الدين لجرأة وشجاعة من أجل إبداء رأيٍ قد استنبطه من المصادر المقررة، إلا أن الواقع يحكي لنا هذا الأمر، فبعض العلماء تتكون عندهم آراء إلا أنهم لا يعبرون عنها ولا يظنّونها، تجنباً لمحاذير صنعها الواقع

(١) مرتضى مطهري. الاجتهاد في الإسلام، ترجمة جعفر صادق الخليلي، (طهران: مؤسسة البعثة)،

الاجتماعي المحيط بهم.

بالطبع إذا كان رأي العالم موضع حاجة وابتلاء للأمة فواجهه الشرعي أن يطرح رأيه، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٩]، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٥٩].

والنصوص التي تحذر العالم من أن يكتم العلم الذي يحتاج إليه الناس كثيرة، فقد ورد في الحديث عن نبينا محمد ﷺ: (من كتم علماً نافعاً عنده ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار)^(١)، وفي حديث آخر عنه ﷺ: (إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه فإن لم يفعل فعليه لعنة الله)^(٢).

□ العوائق والتحديات

مسؤولية عالم الدين وواجهه الشرعي أن يجهر برأيه حين يكون الأمر موضع حاجة وابتلاء، ليساعد الأمة ويخدم مصلحتها ومصلحة الدين، إلا أن الكثير من العوائق والتحديات تقف أمام عالم الدين فتجعله متردداً أو ممتنعاً عن تبين رأيه، فما هي تلك العوائق؟

الأول: العامل السياسي

تقف السلطات السياسية في كثير من الأحيان أمام العلماء، فلا تفسح المجال للعالم أن يبين رأيه بوضوح في بعض المسائل الشرعية الفكرية والفقهية، وكم عانى العلماء أيام الدولتين الأموية والعباسية حين تجرؤوا وطرخوا آراءهم التي كانت

(١) كنز العمال. ج ١٠، ص ٢١٦.

(٢) الكافي. ج ٤، ص ٥٤.

تتصادم ورأي الحاكم ومصلحته، وما محنة خلق القرآن إلا نموذجاً من النماذج التي اختلقها الحكام العباسيون.

وفي عصرنا الحديث هذه المعاناة موجودة، ومن النماذج ما نُقل عن الرئيس الأسبق لتونس، الحبيب بورقيبة، أنه مرةً تحدث عن آية من آيات القرآن الكريم، وفسرها تفسيراً خطأً، وحين صحح أحد علماء الدين هذا التفسير في محاضرة ألقاها، أمر الرئيس بسجنه وبقي مدة في السجن^(١).

من هنا، فإن عالم الدين قد يخفي رأيه الديني الشرعي حذراً من السلطة السياسية القائمة، التي يعيش في ظلها.

الثاني: الصراع والتنافس الداخلي

علماء الدين هم شريحة من الناس وفقهم الله تعالى لدراسة العلوم الشرعية، ويفترض أن تهذب وتتشدب نفوسهم بأخلاق الدين بتأثير دراستهم لتعاليمه، كما يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨]، إلا أنهم بشر غير معصومين، ولذا قد يحصل داخل هذه الشريحة سوء إدارة للخلاف في الرأي، بحيث إن عالم الدين لا يجرواً أن يقول رأياً يخالف السائد في الوسط العلمي المحيط به، بينما يفترض أن يكون هناك ترحيب بالرأي لمناقشته، فيطرح كل عالم رأيه وأدلته.

إلا أن الواقع يحكي أمراً آخر، إذ إن الغالب لدى الفقهاء أن يكون طرحهم في حدود المشهور والمألوف، وإذا جاء عالم وكان له رأي يخالف الرأي السائد والمشهور، فإن عليه الاستعداد لمواجهة مشكلة بسبب طرحه لرأيه. لذلك فإن بعض العلماء يراعون هذه الحالة فيكتُمون آراءهم خوفاً من بعضهم بعضاً، وهذا الخوف يتمثل في أمرين:

(١) مجلة (المجلة) عدد ٧٧١، مقال فهمي هويدي بعنوان (سجل غير مشرف للعلمانيين العرب).

الأمر الأول: حتى لا تتأثر مكانته بينهم: فالعالم الذي يخرج عن مألوف العلماء قد لا يُنظر له باحترام وإكبار، ولذا يضطر لمسايرة الحالة القائمة حتى يحتفظ باحترامه في وسط الشريحة التي ينتمي إليها.

ولهذه الحالة شواهد كثيرة في وسط علماء السنة والشيعة.

ومن تلك الشواهد: المرجع الراحل السيد الخوئي حين بدأ درساً في الحوزة العلمية في النجف في تفسير القرآن الكريم، توالى عليه الضغوط من بعض الأطراف لإثناؤه عن توجهه لتفسير القرآن؛ لأن انشغاله بغير الفقه والأصول يقلل من مقامه العلمي، وأثرت هذه الضغوط فتوقف عن التفسير الذي صدر منه مجلد واحد تحت عنوان (البيان في تفسير القرآن)، يقول الشيخ المطهري: (تشرّف أحد رجالنا الفضلاء بزيارة العتبات المقدسة، وعند رجوعه قال إنه تشرف بزيارة آية الله الخوئي حفظه الله، وسأله: لماذا تركت تدريس التفسير الذي كنت تدرسه في السابق؟ (كان لآية الله الخوئي قبل عدة سنوات درس في التفسير في النجف الأشرف، وقد طبع قسم منه)، فأجاب أن هناك موانع ومشكلات في تدريس التفسير، يقول: فقلت له: إن العلامة الطباطبائي مستمر في دروسه التفسيرية في قم. فقال: إن الطباطبائي يضحى بنفسه، أي إن الطباطبائي قد ضحى بشخصيته الاجتماعية، وقد صحّ ذلك.. إنه لعجيب أن يقضي امرؤ عمره في أهمّ جانب ديني، كتفسير القرآن، ثم يكون عرضة للكثير من المصاعب والمشاكل، في رزقه، في حياته، في شخصيته، في احترامه، وفي كل شيء آخر^(١)).

والشاهد السيد محمد باقر الصدر حينما أراد أن يبدأ البحث الخارج كان مصمماً أن يبدأ في فقه العقود، وأن يبحث الموضوع بمنهج المقارنة مع القوانين الوضعية الغربية، وهذا خدمة كبيرة لفقه الاجتماع في الإسلام؛ إلا أن الضغوط توالى عليه،

(١) مرتضى مطهري. محاضرات في الدين والاجتماع، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ، (بيروت: الدار الإسلامية)،

بأن بحثه يجب ان يبدأ بكتاب الطهارة كما هو المتعارف في الحوزة، فاستجاب لتلك الضغوط فصرف ست عشرة سنة في بحث كتاب الطهارة، بدلاً من كتاب العقود، فخرت الساحة العلمية والفكر الإسلامي ما كان يمكن أن يشكّل إضافة علمية كبيرة، وقفزة نوعية في البحث الفقهي المقارن. تشبه إنجازهُ لأبحاثه المميزة (فلسفتنا) و«اقتصادنا» و«الأسس المنطقية للاستقراء» التي لم تستهلك منه أكثر من ثمان سنوات، يقول الشيخ حيدر حب الله: (التقيت بأحد أبرز تلامذة الشهيد السعيد محمد باقر الصدر «١٤٠٠هـ»، وهو من الفقهاء المعاصرين البارزين، وكان حديثاً عن الفقه و.. فسألته عن السبب الذي دفع مفكراً كبيراً كالسيد الصدر، وهو رجل المرحلة، والعارف بزمانه، أن لا يدرّس في حوزة النجف آنذاك فقه الاقتصاد، أو فقه الأسرة، أو فقه العقود وأنظمة المال، أو فقه القضاء، وهي ملفات شائكة وبالغة الأهمية، وجميعنا يعرف لو ولجها الصدر بعقليته الفقهية و.. لقدّم نماذج مهمّة تحتاجها الأمة وتنمو بها المعرفة، بل يستبدل ذلك كلّهُ بتدريس كتاب الطهارة، إلى مباحث الحيض، في مدّة لا تقل عن ستة عشر عاماً، وما طُبّع له في مباحث الطهارة على العروة الوثقى لم يكن سوى بعض تلك الدروس لا جميعها.

كان جواب هذا الفقيه البارز أنّ بعض تلامذة الشهيد الصدر هو من أقنعه بأن يدرّس كتاب الطهارة، مع رغبة الصدر في تدريس فقه العقود مقارناً بآخر النظريات الوضعية في الفقه الغربي، والسبب في ذلك أنّ الحوزة لن تعترف بك - أيّها الصدر - إذا درّست مباحث جديدة، بل علينا الشروع بمباحث تقليدية حتى يُصار إلى كسب الاعتراف، ثم الانطلاق بعد ذلك في المشروع الخاص، وهكذا شرع الصدر في مباحث الطهارة، ليدرّسها أكثر من ستة عشر عاماً.

كيف يمكن لنا تصوّر حجم الخسارة التي مُنيت بها الحوزة العلمية بهذه الخطوة؟ لقد صرف الصدر أقلّ من نصف هذا الوقت ليكتب «فلسفتنا»، و«اقتصادنا»، و«الأسس المنطقية للاستقراء»، تلك المشاريع الثلاثة التي لا يحتاج

الأمر للحديث عنها، فلو صرف ستة عشر عاماً للتنظير للفقهاء الاجتماعي بأبعاده، ماذا كنا وجدنا اليوم؟ كيف يمكن غفران هذا الحدث؟! ومن هو المسؤول عنه، وعن كثيرٍ من أمثاله؟!^(١).

فعالم الدين قد لا يعبر عن آرائه ولا يعمل بتوجهاته، مراعاة للمقام والاحترام في الوسط العلمي.

الأمر الثاني: المحاربة والإسقاط: في بعض الأحيان قد يخشى العالم من إسقاط مكانته وإيدائه؛ لأن الصراع في الوسط الديني حادّ، ونحن نلاحظ في التاريخ الماضي والحاضر كيف تحصل صراعات قاسية في سوء إدارة الخلاف في الرأي.

إن الصراع في الوسط العلمائي قد يتجاوز حدود النقاش والرد العلمي إلى إسقاط الشخصية والمكانة والتشكيك في الديانة والكفاءة. فحين يكون للعالم رأيٌ يُخالف المألوف قد يُخفيه خشية هذه التداعيات والمضاعفات.

وهناك نصوص دينية تشير إلى أن الوسط العلمائي كباقي شرائح المجتمع يتلى بالأضرار، كالحديث المروي عن رسول الله ﷺ: (ستة يدخلون النار قبل الحساب بستة: قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: الأمراء بالجور، والعرب بالعصبيّة، والدهاقين بالكبر، والتجار بالخيانة، وأهل الرساتيق بالجهالة، والعلماء بالحسد)^(٢)، ويقول الشيخ يوسف البحراني في الحقائق الناضرة: وردت جملة من الأخبار على حصول التحاسد بين العلماء خصوصاً زيادة على ما بين الناس، وينقل مضمون خبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (خذوا بما يفتون ولا تنظروا إلى ما يقول بعضهم في بعض، فإنهم يتغيرون كما يتغيّر النساء)^(٣).

(١) مجلة الاجتهاد والتجديد. العدد الأول، حيدر حب الله، الاجتهاد والتجديد قراءة في هموم الفقه الإسلامي المعاصر، (بيروت: مركز الدراسات الفقهية المعاصرة)، ص ١١-١٢.

(٢) بحار الأنوار. ج ٧٣، ص ١٥٦.

(٣) يوسف البحراني. الحقائق الناضرة في العترة الطاهرة، ج ١٨، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ (بيروت: دار الأضواء)، ص ١٤٥.

وكان المرجع الراحل السيد البروجردي يقول: (ليس ثمة ما يدعو للعجب، فالتقية من أصحابنا أهم وأعلى. أنا عن نفسي في أوائل بلوغي مرحلة المرجعية العامة كنت أظن أن عليّ أن استنبط الأحكام وعلى الناس العمل بها، فما أفتي به يعمل به الناس، رأيت أن الأمر ليس كذلك)^(١)، وحينما أفتى المرجع السيد محسن الحكيم بطهارة أهل الكتاب وجد معارضة كبيرة، والإمام الخميني حين أفتى بجواز الشطرنج من دون قمار وجد معارضة أيضاً، وكتب له بعض العلماء لماذا تعلن هذا الرأي ومعظم العلماء لا يقبلونه ولا يرضونه مما يثير الإشكالات ضدك؟

والسيد محسن الأمين العاملي حين طرح كتابه (التنزيه) حول الشعائر الحسينية حورب وأسقطت شخصيته في أوساط كثيرة.

فبعض الأجواء التي تسود الوسط العلمي تجعل العالم يتردد في طرح رأيه المخالف، أو رأيه الناقد.

والبعض يقول: على العالم أن لا يمس عقائد الناس، فذلك هو ما يثير الاعتراض عليه، وهذا الكلام مردود، فطهارة أهل الكتاب ليست مسألة عقديّة، وقضية الشطرنج ليست عقديّة، ثم إن القضايا العقديّة أولى بالاهتمام وطرح الرأي من قبل العلماء، وأن تكون محل بحث ونقاش.

إن جوهر القضية تكمن في وجود من يريد الحفاظ على الرأي السائد عقدياً كان أو فقهيّاً، ولا يكون هناك تغيير لهذه الآراء المألوفة.

الثالث: رأي وعواطف الجمهور

تحدث كثير من العلماء والمفكرين حول سيطرة العوام، أي عامة الناس، على آراء ومواقف العلماء، يقول الشهيد مرتضى مطهري: (ليس أمام مجتمعنا الديني سوى السكوت في موضع الكلام، والسكون في موضع الحركة، والنفي في

(١) الاجتهاد في الإسلام. ص ٥٦.

موضع الإثبات، لأن ذلك ينسجم مع طبيعة العامة^(١)، وكما ينقل عن جوستاف لوبون يقول: (واهم من يناقش الجمهور بلغة العقل، إن الجمهور لا تعرف إلا لغة العواطف).

فالعاطفة هي التي تسير أكثر الناس، ولذا يتّجه الكثير من العلماء للسكوت عن آرائهم التي تُخالف ما هو سائد ومألوف لدى الجمهور، تفادياً لأي تحرك ضدهم، خصوصاً إذا كان في الساحة منافسون يُحرّكون الجمهور ضدّ أي جديد. يقول الشهيد مطهري: (لكل مجتمع آفته الخاصة به، إن الآفة التي أصابت مجتمعنا الديني بالشلل وأقعدته عن العمل هي (الإصابة بالعوام) وهي أشدّ بلاءً من الإصابة بالسيول أو الزلازل أو لسع العقارب والحيات.. إن منظومتنا الدينية على أثر إصابتها بهذه الآفة لا تستطيع أن تكون طليعة فتتحرك أمام القافلة، وأن تهدي القافلة بالمعنى الصحيح، إنها مضطرة إلى التحرك وراء القافلة. إن من سمات العامة أنهم لا يفارقون القديم الذي اعتادوا عليه... ليس ثمة ما يلزم علماء الشيعة ويجبرهم على طاعة الحكومات، ولكنهم مضطرون إلى مجاراة أذواق العامة وعقائدها، للإبقاء على حسن الظن بهم، وهذا منشأ أغلب المفاسد الموجودة في السلك الديني الشيعي)^(٢).

وأشار الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي إلى أن كثيراً من العلماء يحملون رأيهم في صدورهم ولا يبوحون به خشية الوقوع في الخلاف والاختلاف. وضرب مثلاً على ذلك بقول الشيخ محمد أبو زهرة في أحد المؤتمرات أنه عنده رأي كتّمه عشرين عاماً ويريد أن يبوح به الآن. وقال: إنني كتّم بعض الفتاوى لسنين طويلة خشية أن يهاجمني المهاجمون، ثم بدأت أفصح عن هذه الفتاوى وأنشرها^(٣).

(١) الاجتهاد في الإسلام ص ٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٣) الشرق الأوسط العدد ٨٠٩٩ بتاريخ ٥ ذو القعدة ١٤٢١ هـ الموافق ٣٠ يناير ٢٠٠١ م.

وفي كثير من الأحيان يكون التنافس الداخلي بين طلبة العلوم الدينية ورأي العوام مانعاً لعالم الدين، فلا ييوح بالرأي الذي يقتنع به، وهذا خطأ كبير، إذ يفترض في عالم الدين أن يمتلك الشجاعة مع الحكمة وتقدير الموقف، لكي يُعلن عن الرأي الذي يرى صحته.

والآراء لها بعدان:

الأول: شرعي، بمعنى موافقة الرأي للشرع أو مخالفته له.

الثاني: تشخيص الموضوع الخارجي، فإذا شخّص هذا العالم أن المصداق الخارجي ينطبق عليه هذا الحكم، وتنطبق عليه هذه الفكرة، فعليه أن يمتلك الشجاعة ويعلن عن رأيه.

الرابع: التصنيف المذهبي

قد يكون التصنيف المذهبي عائقاً دون مجاهرة العالم برأيه، وينقل التاريخ الكثير من الحوادث لعلماء من السنة والشيعة. دفعوا ثمن جهرهم ببعض آرائهم بسبب صراعات الانتماء المذهبي. فمثلاً الحافظ النسائي صاحب الجامع المعروف بسنن النسائي، اتهم بأنه رافضي ومتشيع؛ لأنه ألّف كتاباً حول خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بل أوذي وأصيب في جسمه أيضاً^(١). فبعض علماء السنة يخشى أن يصرح برأيه حتى لا يتهم بالميل إلى الشيعة، وكذلك العالم الشيعي إذا كان لديه رأي فقد يكتمه؛ لأنه يخشى أن يتهم بالميل إلى السنة.

الرهان على تطور الوعي

لدينا مشكلة في الوسط الديني، وهي أن عالم الدين يرى أمامه عوائق وتحديات، تمنعه من أن يعبر عن رأيه، وفي اعتقادي أننا في عصرٍ يجب أن تقلّ فيه مثل هذه التحفظات؛ لأن الجمهور المسلم أصبح أكثر وعياً، والناس تتقفوا

(١) سير أعلام النبلاء، ج ١٤، ص ١٣٢-١٣٣.

وانفتحوا، وأصبحوا يشخصون مصالحتهم، كما أن الذين يحملون الآراء التنويرية في الوسط الديني اتسعت رقعتهم، ولذلك على عالم الدين أن يكون شجاعاً جريئاً. نعم، قد يحتاج إلى دفع الثمن حينما يتحدث برأي مخالف لما هو سائد عند الناس، وعليه أن يتحمل دفع هذا الثمن، فهذه مسؤولية شرعية.

وهناك اعتقاد بأن طرح الرأي المخالف يحدث زوبعة واختلافاً، لذلك يجب اجتنابه، لكن التسليم بذلك يعني البقاء ضمن حالة الركود والسكون، وهذا ليس في صالح الفكر الإسلامي، ولا في صالح المجتمعات الإسلامية، ولا يتناسب مع المسؤولية الشرعية الملقاة على عواتق العلماء والدعاة والمبلغين.

إن علينا أن نرشد اختلاف الرأي بين الناس، وأن نتحمل الرأي الآخر، فليس كل رأي يخالف الرأي السائد هو صحيح، إنه اجتهاد قد يكون صحيحاً وقد يكون خطأ، ومن حق صاحب الرأي أن يطرح رأيه، وعلى الناس أن يكونوا في مستوى الوعي والتحدي، وأن لا يستجيبوا لإثارة العواطف والتهميش والتحشيد، ضد من يرى رأياً مخالفاً. بل يجب أن يكونوا في المستوى المأمول منهم، فيتأملون ويبحثون ويقبلون اختلاف الرأي، وما المانع أن يكون هناك رأي آخر واجتهاد آخر؟

فليس لأحد الحق في أن يمارس الوصاية على الناس، إنما الوصاية للدليل والبرهان، كما هو منطلق القرآن: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١١١]، ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٤٨]. فلا يجوز ممارسة الوصاية على أفكار الناس، بل هو ظلم، وحكم على الفكر والثقافة بالركود والجمود، وهو يخالف مبدأ الاجتهاد الذي هو من أجل تجديد الفقه، وتجديد الفكر، ومواكبة تطور الزمن.

□ الإمام كاشف الغطاء نموذجاً

نتحدث عن عالم هو في طليعة النماذج لعالم الدين الشجاع، فقد كان يطرح

رأيه دون أي خوف أو تردد، هذا العالم هو الإمام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء بن الشيخ علي بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ موسى بن الشيخ جعفر المالكي النجفي، وهو من مراجع الشيعة في النجف الأشرف، وفقهه من الفقهاء الكبار، وإلى جانب تبحره في الفقه، كان من كبار الأدباء في الشعر والنثر، وكان فيلسوفاً، ومن العلماء الذين جددوا علم الكلام، وتناولوا العقائد بأسلوب وطرح عصري جديد، كما في كتابه (الدعوة الإسلامية).

ولد سنة ١٢٩٤ هـ وتوفي سنة ١٣٧٣ هـ عن عمر يناهز ٧٩ عاماً، من أسرة عريقة معروفة بالعلم؛ فأبوه الشيخ علي كان معروفاً بشيخ العراقين، وجده الشيخ موسى كاشف الغطاء يُلقب بمصلح الدولتين، حيث أصلح بين إيران والعراق، في أزمة سياسية وقعت بينهما، وجده الأعلى الشيخ جعفر الكبير المعروف بكاشف الغطاء، لأنه ألف كتاباً فقهياً مهماً تحت عنوان (كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء)، فعرفت الأسرة باسم الكتاب. فهي أسرة عربية عريقة من بني مالك تنحدر من مالك بن الأشتر النخعي صاحب الإمام علي عليه السلام.

يمتاز هذا العالم الفقيه بالجرأة والشجاعة في طرح الرأي واتخاذ الموقف، فقد كان تلميذاً للسيد اليزدي صاحب (العروة الوثقى)، وساهم مع أخيه الأكبر الشيخ أحمد كاشف الغطاء في إعداد متن (العروة الوثقى) وكانا معتمدين عند السيد اليزدي، حتى إنه عند وفاته جعلهما وصييه، وألت المرجعية بعد السيد اليزدي إلى الشيخ أحمد كاشف الغطاء، وبعد وفاته أصبحت المرجعية للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، فكان عالماً بطلاً شجاعاً. ولديه إنجازات في مختلف المجالات، وكان له دور سياسي بمشاركته في مقاومة الاحتلال البريطاني للعراق، وشارك في جبهة القتال، وبعد ذلك كانت مواقفه في الدفاع عن مطالب الناس أمام الحكومات المتعاقبة في العراق، والبعض حذره من أن يتدخل في السياسة، فقال: «إذا كانت السياسة تعني الخديعة والمكر والانتهازية وطلب المواقع والمناصب، فأنا أبرأ

إلى الله منها، وإذا كانت السياسة تعني الدفاع عن مصالح الناس والدفاع عن حقوق الناس وعن مصالح الأمة وعن مصلحة الوطن فإنني غارق فيها من قرني إلى هامتي»، فكانت له مواقف سياسية كثيرة في الدفاع عن مطالب الشعب.

سافر إلى لبنان وأقام في سوريا ولبنان حوالي ثلاث سنوات، والتقى عدداً من الشخصيات والزعامات، وزار مصر وألقى محاضرات في الأزهر، واشترك في حركة النهضة العربية مع الشيخ أحمد طيارة، والشيخ أحمد عارف الزين، وعبدالكريم خليل، وعبدالغني العربي، ممن أعدمهم فيما بعد الوالي التركي جمال باشا المعروف بالسفاح. وكانت له صداقة مع الأديب المسيحي المعروف أمين الريحاني، وحصلت بينهما مراسلات ومطارات في الفلسفة والأدب طبعت في كتاب (المراجعات الريحانية). وكان له تعليق على المجلة العدلية التي صدرت من قبل الدولة العثمانية لتقنين الشريعة، وهي أول محاولة لتقنين الشريعة الإسلامية، وتقديمها على شكل تقنينات وأنظمة ضمن الفقه الحنفي، وهو المذهب المتبنى من الدولة العثمانية، فأخذ الإمام كاشف الغطاء المجلة وعلق عليها بآراء المذهب الجعفري، بحيث يكون تقنين الشريعة موافقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام وطبعت في مجلدين تحت عنوان (تحرير المجلة).

من آراء كاشف الغطاء

ومن آرائه التي كانت مخالفة للسائد أنه كان من أوائل الداعين إلى تعليم المرأة، وإلى الانتصاف لحقوقها، والكثيرون خالفوا هذا الرأي، لكنه دافع عنه، وشجع على تعليم المرأة. ومن آرائه التي خالف بها السائد تصديده لبعض الممارسات التي كانت تُمارس في النجف، وفي بعض مناطق العراق، في بعض أوساط الشيعة في اليوم التاسع من ربيع الأول، فخطب الإمام كاشف الغطاء في الناس لمنع مثل هذه الممارسات وحاربها بقوة، فتلاشت تلك الممارسات المثيرة، وكانت له كلمة مشهورة ومتداولة يقول فيها: (بني الإسلام على دعامين على كلمة التوحيد

وتوحيد الكلمة)، وشارك في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس سنة ١٣٥٠ هـ الذي ضم أكثر من ١٥٠ من القيادات الإسلامية، وطلب منه مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني أن يخطب في المؤتمر، وفي جمهور الناس الذين أتوا إلى المسجد الأقصى آنذاك، في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب، وهي ليلة مباركة مقدسة، وأن يصلي بالمسلمين صلاة العشاء، فتقدم وأمّ جموع المسلمين في صلاة العشاء، ثم ألقى خطبة رائعة حول إنقاذ فلسطين، ومواجهة مخططات الصهاينة الذين يريدون احتلال فلسطين، وحول دعم أمريكا وبريطانيا للصهاينة، وكانت خطبة مؤثرة تركت صدى كبيراً، طبعت تحت عنوان (الخطبة التاريخية).

فالإمام كاشف الغطاء لديه الكثير من الآراء الجريئة التي كانت محل خلاف، وكان من آرائه جواز الزواج الدائم بالكتابة، وهو خلاف المشهور عند فقهاء الشيعة، الذي يرى جواز الزواج المنقطع لا الدائم.

وحينما صدر كتاب السيد كاظم الكفائي حول السيدة فاطمة الزهراء (ع)، وسبب إثارة للسنة في العراق، واعتقل السيد الكفائي، فأصدر الإمام كاشف الغطاء حكمه المشهور: «الكفائي يطلق، والكتاب يحرق»، فعاتبه بعض العلماء في حرق الكتاب، لكنه أجابهم: يحرق هذا الكتاب أفضل من أن تحترق مصلحة الوطن، وتحترق مصلحة الأمة، هكذا كان واعياً وثاقب النظر.

وقد ألف أكثر من ثمانين كتاباً، وأكثرها لم تطبع؛ وطبع منها:

١. الدين والإسلام أو الدعوة الإسلامية.
٢. أصل الشيعة وأصولها.
٣. المراجعات الريحانية.
٤. التوضيح في بيان ما هو الإنجيل ومن هو المسيح.
٥. الميثاق العربي الوطني.

٦. المثل العليا في الإسلام.
٧. محاوراته مع السفيرين البريطاني والأمريكي.
٨. تحرير المجلة.
٩. جنة المأوى.
١٠. رسالته العملية الفقهية.

ولدينا العديد من النماذج المشرقة والواعية من العلماء، الذين ما كانوا يترددون في أن يعلنوا رأيهم بشجاعة وبطولة، ويدفعون الثمن، وحين يتكلم عليهم الناس، وتقل مكانتهم عندهم، لا يهمهم ذلك، فالمهم عندهم رضا الله سبحانه وأداء الدور والمسؤولية؛ لأن العالم مسؤول أمام الله سبحانه وتعالى عن تبليغه لما هو مقتنع بأنه تعبير عن رأي الشرع، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

والخوف هو الذي منع الكثير من العلماء والفقهاء من أهل الكوفة أن يتعاطفوا وأن ينصروا سيد الشهداء أبا عبد الله الحسين عليه السلام، مع أن الكوفة فيها فقهاء وعلماء حضروا تحت منبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ولكن حينما كان الموقف يحتاج إلى شجاعة وتضحية، فإن الكثير منهم قد نكصوا، وسادت تلك المقولة: (إن الحسين سلطان ويزيد سلطان وما لنا والدخول بين السلاطين)، لكن أصحاب البصائر مثل زهير بن القين ومسلم بن عوسجة وحبيب بن مظهر الأسدي رضوان الله تعالى عليهم، هؤلاء استعدوا للتضحية واتخذوا الموقف المناسب.

وحبيب بن مظهر الأسدي من تلامذة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن قراء القرآن والمتهجدين بالأسحار، كان ينتظر على أحر من الجمر أن تتاح له الفرصة لنصرة أبي عبد الله الحسين، لذا حينما جاءه الخبر عن وصول الإمام الحسين قرب الكوفة عزم على الخروج، وحذّره بعض القربيين منه، حيث جاءه

عمه وقال له: سمعت أنك تريد الخروج إلى كربلاء؟ فطمأنه حبيب بأنه لن يخرج! ولما سمعت زوجته قالت له: ألا تذهب؟؟ يأتيك الرسول برسالة من الحسين يطلب نصرتك فلا تذهب إلى نصرته؟ كيف لا تذهب لنصرة الحسين ابن بنت رسول الله، فأراد أن يمتحنها قائلاً: أخشى أن تترملين بعدي؟ قالت: دعني أكل التراب واذهب لنصرة أبي عبد الله الحسين.

شخصية الفرد

- بين الفردية والجمعية
- استقلالية الفرد ومحورية القيم
- الفرد الأمة

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٠].

□ بين الفردية والجمعية

في المجتمعات القديمة لأوروبا كان الإنسان يعيش الذوبان في المجتمع، لا شخصية له، ولا استقلال، ولا رأي، ليس من حقه أن يكون له فكر خارج الفكر السائد في المجتمع، ولا أن يكون له رأي مخالف للرأي السائد، فهو في الأساس ليس بحاجة لكي يستخدم عقله وفكره، فالجماعة قد فكرت عنه، وما عليه إلا أن يأخذ رأي الجماعة، وإذا ما تجرأ إنسان على الخروج عن ذلك، وكان له رأي في أي شأن من الشؤون خارجاً عن الرأي السائد، فإن مصيره التنكيل، وقد يكون الإعدام، فقد أعدم آريوس (٣٣٦ - ٢٥٦ م) حينما كان له رأي مخالف للقول بالوهية المسيح.

وأيضاً الطبيب الأسباني ميخائيل سيرفيتوس ١٥١١-١٥٥٣ م الذي رفض ألوهية المسيح بشدة اتهمته الكنيسة بالهرطقة واعتقلته ثم أعدمته حرقاً.

ونجد أن الكنيسة عقدت محاكم التفتيش ليس فقط حول الآراء الدينية بل حتى حول الآراء الطبيعية، فغاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢ م) حينما قال بحركة الأرض حكموا عليه بالإعدام. وقد بلغ عدد الذين حكمت عليهم الكنيسة بسبب آرائهم العلمية والطبيعية المختلفة أكثر من ٣٠٠٠٠٠٠ شخص منهم ٣٢٠٠٠ شخص أعدموا بالإحراق؛ لأنهم كانوا يتجرؤون ويبدون رأياً مخالفاً للرأي السائد.

ومن الناحية السلوكية أيضاً لم تكن أمام الفرد خيارات، فالجماعة هي التي تحدد سلوكه، فليس هو الذي يقرر الزواج، أو بمن يتزوج، وليس هو الذي يقرر ماذا يعمل، سلوكه محكوم بالعادات والأعراف التي تسير عليها الجماعة، ولا يحق له أن تكون له غاية أو تطلع غير التطلع العام للجماعة، في مختلف المجالات، ويطلق على هذه الحالة من التبعية والذوبان للفرد حالة القطيع، التي يمكن تلخيصها في الآتي:

١. فكراً لا يتمتع باستقلال ولا يخرج عن الإطار.
٢. غائياً لا يمكن أن يكون له تطلع أو هدف شخصي يصبو إليه.
٣. سلوكياً مؤطر بالعادات المفروضة.
٤. شخصياً ليست أمامه خيارات متعددة لأسلوب حياته.

هذه الحالة المفترطة في الروح الجمعية أوجدت ردة فعل شهدتها عصور التنوير في أوروبا، ومن أوائل الأمور التي بدأت فيها انطلاقة الإنسان الأوروبي هو رفض هذه الحالة، حتى قال أحد مفكري التنوير: «إن الروح الجمعية هي الشر المطلق، وهي مصدر آلام الإنسانية والإنسان، وعمل التنويريون على مقاومة هذه الروح الجمعية وإثارة النزعة الفردية في نفس الإنسان».

وهنا بدأ يبرز مفهوم الفردية، ويطلقون عليه أيضاً الفردانية، ويقصدون به أولوية الفرد، وتعني أن الإنسان هو أولى من الجماعة، يفكر في نفسه قبل كل شيء، وفوق كل شيء، تكون له حريته في الرأي والتفكير والاعتقاد، وفي التعبير عن رأيه وقراراته، وفي توجهاته وسلوكياته، فله حرية مطلقة كاملة.

والقول بالحرية الشخصية الفردية المطلقة في مختلف الأبعاد بلا حدود، تتمثل في:

١. الإقرار بحرية الفرد وحقوقه في التفكير والرأي والاعتقاد بشكل

مطلق.

٢. حقه فيما يختار من نمط الحياة وأن يصوغ وجوده بإرادته ورغبته.

٣. استقلالية كيانه وتمتعه بميزاته.

٤. تقديم مصلحة الفرد على المجتمع.

التطرف في الفردانية

وانتشار هذا المفهوم هو الذي أطلق الإنسان في أوروبا من حالة الأسر والجمود التي كان يعيشها في المجتمعات الإقطاعية، وفي ظل سيطرة الكنيسة، وقد رافق هذه الحالة تمرد على الدين؛ لأن الدين الذي تمثله الكنيسة كان مباركاً ومؤيداً للحالة الاستبدادية السائدة، وهذه الحالة الجديدة التي تعني مقاومة الروح الجمعية وسيادة الفردية أو الفردانية، أصبح فيها مبالغة وغلو وتطرف، فبدأت تفرز سلبيات كثيرة في المجتمع الأوروبي، ومع مرور الوقت اتسعت رقعة آثارها السلبية، ومنها:

١. ارتفاع مستوى الأنانية: فقد أصبح الإنسان في أوروبا يعيش كثيراً من المشاكل النفسية والحياتية والاجتماعية بسبب غلبة الحالة الفردية، وتعززت حالة الأنانية عند الفرد، فلم يعد يفكر في غيره، حتى في أقرب المقربين إليه.

٢. غلبة الروح المصلحية: فالتفكير المصلحي أصبح حاكماً على الإنسان، والمهم هو الربح بأي طريقة وبأي وسيلة.

٣. غياب القيم وتلاشي الروح الدينية: فليس هناك حساب للقيم، ولا حساب للعواطف، فقد غابت المعايير الأخلاقية، والمشاعر الإنسانية التي كانت في المجتمعات التقليدية السابقة.

ومن نتائج هذه الآثار السلبية: حالات القلق، والانتحار، والكآبة، ومظاهر العنف والإجرام، والتفكك العائلي، والانحلال الأخلاقي. هذه المآسي التي يعاني منها الغرب بسبب التطرف في ممارسة الحالة الفردية، التي جاءت كردة فعل لحالة القطيع الجمعية السائدة في المجتمعات التقليدية السابقة.

وفي الحقيقة هناك علاقة جدلية بين الفردية وبين الجمعية، فهل يذوب الإنسان الفرد في المجتمع وينسحق كما كان في المجتمعات التقليدية السابقة؟ أو يعيش حالة الفردية والأنانية كما هي الحالة الآن في المجتمعات المادية في الغرب لتغيب العواطف، وتفكك الأواصر العائلية والاجتماعية، فلا الآباء يفكرون في الأولاد، ولا الأولاد يفكرون في آبائهم، ولا الجار يفكر في جاره؟

بالطبع كلا الحالتين خطأ، فلا حالة الانسحاق والذوبان التي كانت سائدة في المجتمعات الإقطاعية سليمة؛ لأنها كانت تقتل روح الإبداع، وطاقة الإنسان وقدرته، وتصادر شخصيته وقيمه. ولا حالة الأنانية الموغلة في الاتجاه الفردي؛ لأنها تسلب الإنسان إنسانيته، فيعيش في مجتمع مادي استهلاكي، ليصبح شيئاً من الأشياء حتى في المجالات التي يفترض أن تتجلى فيها الحالة الإنسانية، كمجال الطب، والعلاقات الأسرية.

وهذه الحالة المصلحية الربحية التي تتعامل مع الإنسان كشيء من الأشياء خارج القيم الأخلاقية والعواطف والمشاعر الإنسانية، هي البلاء الأكبر الذي يعيشه إنسان هذا العصر؛ فما هي رؤية الإسلام؟

استقلالية الفرد ومحورية القيم

كان الإنسان العربي قبل الإسلام يعيش حالة تشبه حالة الإقطاع في التاريخ الأوربي، حيث كان جزءاً من القبيلة، فشيخ القبيلة هو الذي يفكر ويقرر ويحكم، ولم تكن للفرد العربي استقلالية داخل قبيلته، فالأمور كلها بيد شيخ القبيلة، فمثلاً

هو الذي يقرر الحرب ويأمر بالسير للقتال، ولا يحق للفرد المناقشة وإبداء الرأي. وأن يتساءل لماذا نقاتل؟ أو من نقاتل؟ وبالرغم من وجود بعض الأخلاقيات في القبائل العربية إلا أنها ضمن حدودٍ معينة، وخاضعة للروح الجمعية، التي تلغي الفرد كفرد.

ولما جاء الإسلام رفع رسول الله ﷺ لواء تحرير الإنسان من هذا الواقع الذي كان يعيشه، حيث قرر الإسلام استقلالية الفرد، وأنه يخضع للقيم التي يؤمن بها من وحي فطرته وقناعته، وهي قيم الخير والحق والعدل، المنبثقة من القيمة الأساسية، وهي العبودية لله سبحانه وتعالى.

فالإسلام حرّر الإنسان من العبودية للحالة القبلية، والحالة المجتمعية السلبية، ومن الخضوع لهيمنة الزعامات، ونلاحظ ذلك في عدة مظاهر:

أولاً: تأكيد الإسلام على مسؤولية الفرد عن نفسه وعن قراراته وأعماله أمام الله يوم القيامة، فلا يُحاسب زعيم القبيلة نيابة عن قبيلته، ولا يُسأل رب العائلة بدلاً عن أفراد عائلته، وإنما كل شخص هو مسؤول مباشرة أمام الله سبحانه، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ١١١]، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۚ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۚ لِكُلِّ امْرَأٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [سورة عبس: الآيات ٣٤-٣٧]، ويقول تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٩٥]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٤]، هذه الآيات تريد أن تقول للإنسان: أنت لك شخصية، وأنت صاحب قرار، ومسؤول عن قراراتك، وعن مستقبلك، ومحاسب على أعمالك أمام الله سبحانه وتعالى.

هذا ما توحيه الآيات الكريمة، بالفات الانسان إلى استقلالته وكيانته.

ثانياً: التأكيد على محورية القيم، فأنت تخضع للقيم فقط ﴿أَمَرَ آلَا تَعْبُدُوا إِلَّا

إِيَّاهُ ﴿[سورة يوسف: الآية ٤٠]، أي لا تخضع لأي شيء آخر، ولا أحد في الدنيا له حق الهيمنة عليك، ولا يصح لك أن تخضع له، ولذلك عنوان الإسلام شهادة التوحيد (أشهد أن لا إله إلا الله)، وهذه الشهادة التي يكررها الإنسان المسلم دائماً وأبداً، معناها ألا يقبل أي سلطة عليه إلا الله، أو السلطة المنبثقة من أمر الله التي يقبلها الإنسان، انطلاقاً من إيمانه بضرورة النظام في المجتمع، وحينما تكون السلطة مستحقة لكي يخضع لها، هكذا يكون الإنسان المسلم، لا يخضع إلا للقيم، وما عدا ذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أي ليس هناك أحد يطاع ويخضع له إلا ضمن القيم والمعايير.

ثالثاً: تشريع استقلالية الإنسان، فمن الناحية التشريعية شرع الإسلام استقلالية الإنسان، حيث تؤكد القوانين الإسلامية على استقلالية الإنسان من حيث الرأي والتفكير، يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، فلا يصح أن يفرض على الإنسان رأي أو فكر، حتى النبي المرسل من قبل الله تعالى لا يحق له أن يسلب الإنسان حرية تفكيره، واختياره الفكري، يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [سورة الغاشية: الآيتان ٢١-٢٢]. أنت تؤمن بالرأس الذي تقتنع به، وتحمل مسؤولية إيمانك ورأيك، ولا يحق لأحد أن يفرض عليك رأياً.

وحقوقك مضمونة ضمن التشريعات الإسلامية؛ لأنك مسلط على نفسك، الناس مسلطون على أموالهم وأنفسهم، كما تقول القاعدة الفقهية، ولا يحق لأحد أن يكره إنساناً أو يجبره على شيء، فهذا حرام وممنوع وهو ظلم وعدوان.

المفاهيم والتقاليد الجاهلية

فالإنسان هو من يتخذ القرارات لنفسه، هو صاحب القرار، لا أحد يقرر نيابة

عنه. إلا أنه مع الأسف الشديد فإن المجتمع الإسلامي بعد فترة من الزمن بدأت تعود إليه بعض العادات التي كانت في الجاهلية، وذلك حينما حكمت المسلمين حكومات مستبدة، فعادت للناس الحالة الجاهلية، وأصبحوا يمارسون الأساليب الجاهلية شيئاً فشيئاً، مما أفقد الناس في المجتمعات الإسلامية حريتهم، وعاشوا في ظل استبداد سياسي وفكري وديني واجتماعي، وأصبح الإنسان في غالب فترات تاريخنا الإسلامي، وإلى اليوم يعاني من الانسحاق في شخصيته. أضف إلى ذلك سطوة الأعراف والعادات والتقاليد، فتجد نفسك محكوماً بسلطة سياسية ودينية وبعادات وتقاليد اجتماعية، ويرى الإنسان نفسه مقيداً أسيراً، لا يستطيع أن يشعر باستقلاله أو بذاته، وهذا بسبب الانحراف عن منهج الله.

إن تعاليم الإسلام ليست كذلك، إذ إنها تؤكد على حرية الإنسان، وحقه في اتخاذ القرار الذي يراه مناسباً، وكشاهد على ذلك العلاقة بين الولد والوالدين، فعندما يكون الإنسان صغيراً، هناك ولاية للأب عليه، أو للجد من قبل الأب، وهذا موجودٌ في كل الأنظمة والقوانين الدينية والوضعية، أما إذا بلغ الإنسان وصار يتحمل مسؤوليته، فقد أصبح مكلفاً راشداً، وحينها يتخذ قراراته بنفسه، ولا يحق حتى للوالدين أن يفرضوا على الولد قراراً هو لا يريد ولا يرغبه.

وهنا يشتبه البعض في هذا الأمر ويخلطه بالبر بالوالدين، والنهي عن عقوق الوالدين، وهذا ليس بالمطلق، فالفقهاء يقولون: «لم ينهض دليل على وجوب إطاعة الوالدين على سبيل الاطلاق على حد إطاعة العبد لسيده. نعم تجب المعاشرة الحسنة والمصاحبة بالمعروف على ما نطقت به الآية المباركة، فلا يجوز العداء والإيذاء، وأما الوجوب والتحريم بمجرد الأمر والنهي فضلاً عن لزوم الاستئذان في كافة الأفعال، وإن لم يترتب على تركه الإيذاء خصوصاً لو صدر من غير اطلاع منهما أصلاً، فهو عار عن الدليل. أجل قد ورد في بعض النصوص أنه إن أمرك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، ولكن أحدا لا يستريب في أن هذا حكم أخلاقي،

وليس بتكليف شرعي كما هو واضح جداً»^(١).

فمثلاً في موضوع الزواج، يحق للولد الذكر إذا كان بالغاً راشداً أن يتخذ قرار زواجه وبمن يتزوج؟ وكيف يتزوج؟ فهذا قراره هو، جاء ابن أبي يعفور وسأل الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إني أريد أن أتزوج امرأة وإن أبوي أرادا غيرها، قال: تزوج التي هويت ودع التي يهوي أبواك»^(٢).

فلا توجد سلطة من الناحية الشرعية للوالدين على الولد. وهنا قد تحصل بعض المشاكل في المجتمع، كأن يغضب أب على ابنه ويعتبره متمرداً لأنه تزوج من عائلة أو من امرأة هو لا يريد لها، وهذا يدخل ضمن باب إعانة الولد على العقوق، ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لعن الله والدين حملاً ولدهما على عقوقهما»^(٣)، وفي كلمة تنقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»^(٤).

ظلم المرأة باسم الدين

أما بالنسبة للفتاة وقرار الزواج، هناك آراء عند الفقهاء، بعض فقهاءنا يرى أن البنت البالغة الرشيدة أيضاً تستقل بقرار الزواج، وهي تقرر من تتزوج، وإذا وافقت هي فلا ولاية لأبيها أو جدها عليها، وهناك رأي آخر وهو الرأي المشهور عند الفقهاء المعاصرين يقضي بضرورة موافقة ولي الفتاة سواء كان الأب أو الجد للأب، أما غيرهما فلا ولاية لهم عليها، مثل الإخوان والأعمام. هذا في فقه مذهب أهل البيت - أما جمهور أهل السنة فيرون أن عصبتها أيضاً لهم ولاية عليها. عدا

(١) السيد أبو القاسم الخوئي. مستند العروة الوثقى، كتاب الصلاة، ج ٨، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ (قم: المطبعة العلمية)، ص ١٠٦.

(٢) الكافي. ج ٥، ص ٤٠١.

(٣) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٧٢.

(٤) ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة ج ٢٠ ص ٢٦٧.

الأحناف فهم يرون استقلال المرأة البالغة العاقلة الرشيد بالولاية على نفسها في النكاح.

من جانب آخر، فإن هذه الولاية لا يصح أن تكون سبباً للعضل، وتفويت فرصة الزواج على البنت بمن ترغب من الأكفاء، ففي كثير من الأحيان، نلاحظ حالات من استغلال البعض لهذه الصلاحية الشرعية، فيعضل الأب ابنته لسبب أو لآخر، وخاصة إذا كانت هناك مشاكل عائلية بين الأب والأم فيكون الانتقام بإعضال البنت، وفي بعض الأحيان لا تقتصر المشكلة على موقف الأب بل قد يتدخل أخ من إخوانها، أو عمها، أو خالها، أو زوج أختها، ليقف حجر عثرة أمام إنجاز زواج الفتاة وتحقيق رغبتها، والحوادث في هذا الصدد كثيرة، وهذا لا يجوز شرعاً.

وفي هذا السياق نقلت جريدة اليوم السعودية القصة التالية:

(لم تكتمل فرحة عروس سجن الدمام مساء أمس بعدما كانت الفرحة تملأ أركان إدارة السجن وهم يلعبون دور العائلة وبعد أن اتجهت إلى المحكمة لعقد قرانها يصحبها أمر السجن لتحقيق حلمها لتجمع فرحتين في آن واحد: فرحة خروجها من السجن وفرحة زواجها من شاب خارج أسوار السجن قبل بها وأرادها زوجة له في غياب تام لأهلها، وعلى ذات الصعيد جهّزت إدارة السجن العام بالدمام كل الوسائل لإتمام زواجها من تجهيز سيارة العرس وأوراق الخروج التي وضعها مدير السجن أمامه لتنتهي باتصال من وفد السجن إلى المحكمة باعتراض أحد إخوتها على الزواج مما ساهم في هدم عش الزوجية المنتظر وعدم خروجها إلا بولي الأمر. وأكد العقيد عبدالرحمن العقيل أمر السجن بأن العروس انتهت من محكومتها ومنتظر الزوج كولي أمر كي يعقد عليها ويأخذها معه حيث عقد عليها مؤخراً ومنتظر اليوم بعض الإجراءات المتعلقة في المحكمة والتي تخص الطرفين ونزفهما^(١)).

(١) جريدة اليوم السعودية. الصادرة بتاريخ الخميس ٢٩ ذو القعدة ١٤٢٩هـ الموافق ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٨م، العدد ١٢٩٤٩.

هكذا تمنع امرأة من تحقيق رغبتها في بناء حياة زوجية مستقرة لتبقى في السجن بسبب اعتراض أخيها، وهو اعتراض ما كان ينبغي أن يُقبل أو يُؤخذ به.

وهناك بعض الآراء الفقهية عند بعض المذاهب الإسلامية حول مراعاة التكافؤ بين الزوجين نسباً، مما يعطي مبرراً لتدخل الأقرباء، حيث يعترض بعض أقربائها بأن هذا الخاطب الذي تريده البنت لا يكافئنا نسباً، وقد سبب ذلك الكثير من المشاكل، وهو تدخل في قرار الإنسان واستقلالته، كما هو تكريس للتفاضل القبلي والطبقية في المجتمع.

إن الإسلام يصون استقلال الإنسان، وعلى الآباء أن يراعوا هذا الجانب، وأن لا يتعدوا حدودهم، وعليهم أن ينصحوا أبناءهم حين يختلفون معهم في الرأي، دون أن يفرضوا عليهم القرار فيما يرتبط بشؤونهم الخاصة.

وكذلك بين الزوج وزوجته، ففي بعض الأحيان يمارس الزوج هيمنة على زوجته، فيسحق شخصيتها، وهذا لا يصح، فالزوجة إنسان لها كامل الحرية والشخصية والأهلية، وللزوج عليها حقان: (حق الاستمتاع) وهو حق مشترك بينهما، وحق آخر وهو (عدم الخروج من بيته بغير إذنه)، على تفصيل عند الفقهاء، فبعض الفقهاء يقول: إن هذا الحق، ليس مطلقاً فإذا كان خروجها يزاحم حق الزوج لا يصح لها أن تخرج إلا بإذنه، أما إذا لم يكن يزاحم حق الزوج فليس معلوماً أن عليها أن لا تخرج إلا بإذنه، وما عدا ذلك فالمرأة حرة، لا يصح لك أن تلزمها برأيك وموقفك وفكرتك.

قبل فترة نشرت إحدى الصحف أن شخصاً في مكة طلق زوجته لأنها في إحدى المباريات تؤيد نادي الأهلي، وهو يؤيد نادي الوحدة فطلقها، وفي بنغلاديش نشروا أن ست نساء كن ضحايا الطلاق لأنهن رشحن مرشحين للبرلمان غير مرشحي الأزواج، وهناك بعض الحالات لدينا حول التقليد، مثلاً يفرض على زوجته أن تقلد المرجع الذي يقلده، وهذه مسألة شرعية ليس للرجل حق الفرض

على الزوجة، فهي لها قناعتها ورأيها وفكرتها.

لا تفقد استقلاليتك

رابعاً: التحصين من الوقوع في أسر الآخرين، من ناحية أخرى فإن الإسلام يحصن الإنسان من الوقوع في أسر المجتمع خارج القيم، إذ على الإنسان ألا يقع في الأسر، وألا يصبح كأنه فرد في قطع، ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام: «أبلغ خيراً وقل خيراً ولا تكن إمعة، قلت: وما الإمعة؟ قال: لا تقل أنا مع الناس وأنا كواحدٍ من الناس»^(١).

يُحكى أن الأصمعي مرّ على جماعة وهم يضربون رجلاً يقول: رأيت أحدهم وهو أشدهم ضرباً عليه، فأمسكت به، وسألته: ما جريمة هذا الرجل حتى تضربونه؟ قال: والله لا أعلم، رأيت الناس يضربونه فاشتركت معهم.

وقد تجد إنساناً لديه موقف ضد إنسان؛ لأن الناس يتكلمون عليه، من دون التأكد من الكلام، فتكون معاداته وموقفه تجاهه من غير مبرر، أنت كإنسان مطالب يوم القيامة أمام الله، ومسؤول عن موقفك ورأيك. فعليك ألا تقبل فكرة، ولا تقوم بعمل، ولا تأخذ موقفاً إلا إذا تأكدت أن ذلك منسجم مع القيم والمبادئ، ففي كلمة رائعة ينقلها الإمام الصادق عليه السلام عن النبي عيسى ابن مريم عليه السلام يقول: «كونوا نقاد كلام، خذوا الحق من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق»^(٢)، فمجرد أن هذه الفكرة سائدة لا يعني ذلك أن تعفي نفسك من التفكير فيها، فلماذا تترك الآخرون يفكرون عنك؟ فقد أعطاك الله عقلاً، ويجب عليك أن تفكر. وقد تكون فكرة صحيحة يقولها أهل الباطل فعلينا أن نقبلها؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها، فهو أحق بها. أما إذا صدرت فكرة خطأ من جماعة من أهل

(١) الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني. تحف العقول عن آل الرسول، الطبعة الخامسة ١٣٩٤ هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص ٣٠٤.

(٢) بحار الأنوار ج ٢ ص ٩٦.

الحق، فلا يصح قبولها مع خطئها لمبرر صدروها من قوم صالحين، ورد عن علي عليه السلام: «لا يعرف الحق بالرجال»^(١).

فعلى الإنسان أن يتحصن تجاه التأثيرات السلبية، حتى من الوالدين، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [سورة لقمان: الآية ١٥]، وكذلك إذا صدر كلام عن زعامة من الزعامات، عليك ألا تقبل الكلام على علاته، فالله سبحانه وتعالى ينقل عن مثل هؤلاء الناس حديثهم يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ١٦٧]. ويقول تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٦].

فعلى الإنسان أن يحصن نفسه كي لا يفقد استقلاليتها، ولا يصبح فريسة للآخرين، فمن المشاكل التي نعانيها أن الإنسان يجد نفسه مسيراً لبعض العادات والأعراف والتقاليد على حساب مصلحته، ففي بعض الأحيان قد يحمل نفسه ديوناً باهظة استجابة لبعض الأعراف السائدة وخوفاً من حديث الناس عنه، وهذه الحالة حاضرة أكثر في الوسط النسائي رغم أن أغلبهن غير مقتنعات ببعض ما يلتزم به من أعراف وعادات.

لماذا نحن بهذه الطريقة؟ هذه العادة السيئة في حفلات زواج النساء مثلاً، إذ يمتد الحفل إلى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل، بينما تجد الرجال ينتهي حفلهم الساعة الحادية عشرة مثلاً، من الذي قال أن نخضع لهذا العرف على حساب وضع العوائل، وحساب الأمن الأخلاقي الاجتماعي، خاصة وأن الحفلات تكون في مزارع وصلات بعيدة، وفي الغالب يكون هناك سائق أجنبي للنساء.

بعض الناس يبدي عدم ارتياحه لهذه الحالة، إلا أنه يخضع لها ويبرر ذلك بقوله: ماذا أعمل؟ لا يرضى الناس إلا بذلك، فهذا الشيء هو المتداول.

(١) بحار الأنوار ج ٤٠ ص ١٢٦.

لماذا لا يتحدى الواعون هذه العادات السلبية؟ ولماذا لا يتمرد الإنسان ضدها؟
لتنشأ عادات جديدة أفضل منها، ولتجاوز مجتمعنا هذه القيود والأغلال التي تضر
بالفرد والمجتمع على حدٍ سواء.

□ الفرد الأمة

النبى إبراهيم الخليل ﷺ أبو الأنبياء، يحكى القرآن عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾،
بمعنى أن هناك فرداً يكون منسحقاً في المجتمع، وهناك فرد يكون هو المجتمع،
فشخصيته كشخصية أمة. عندنا الكثير من النصوص التي تقدم بعض الأفراد
باعتبارهم يمثلون الأمة، أو باعتبارهم يوازن حجم المجتمع كله، ونجد هنا ما
قاله نبينا محمد ﷺ في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ في واقعة الخندق
حين خرج عمرو بن عبد ود وهو مقنع بالحديد فنادى: من يبارز؟ فقام علي بن
أبي طالب فقال: أنا لها يا نبي الله. فقال إنه عمرو، اجلس. ثم نادى عمرو: ألا
رجل يبرز؟ فجعل يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها
أفلا تبرزون إليّ رجلاً؟ فقام علي فقال: أنا يا رسول الله؟ فقال: اجلس. ثم نادى
الثالثة، فقام علي فقال: يا رسول الله أنا. فقال: إنه عمرو، فقال: وإن كان عمرًا^(١)،
فقال رسول الله ﷺ كلمته العظيمة الخالدة: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»^(٢)،
فعلي ﷺ يُمثل الإيمان كله، وأكثر من ذلك، فحينما انتصر الإمام علي ﷺ وقتل
عمرواً، قال النبي ﷺ: «لمبارزة على بن أبي طالب لعمر بن عبد ود يوم الخندق
أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة»^(٣)، وقال ﷺ لعمار بن ياسر: «إن رأيت علياً
قد سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره فاسلك مع علي ودع الناس»^(٤).

(١) البداية والنهاية. ج ٤، ص ١٢١.

(٢) بحار الأنوار. ج ٢٠ ص ٢١٥.

(٣) المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ٣٤، حدیث ٤٣٢٧.

(٤) كنز العمال. ج ١١، ص ٦١٣، وأيضاً ينابيع المودة للقندوزي ج ١ ص ٣٨٤.

وعندنا في الشعر العربي، حديث عن بعض الأشخاص الذين كأنهم يمثلون المجتمع كله بما يمتلكون من صفات متميزة، يقول أحد الشعراء:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
ويمتدح شاعر أحد العظماء فيقول:

لوزرته لرأيت الناس في رجل والدهر في ساعة والأرض في دار
فبعض الأشخاص يمثلون أمة ومجتمعاً بكامله، والسؤال: متى يكون الفرد أمة؟

هناك حالات يتجسد فيها هذا المصداق، منها:

من يفجر طاقته وكفاءته

كل إنسان عنده كفاءات وطاقات، فإذا فجر كفاءته وطاقته يستطيع أن يحدث تأثيراً كبيراً، يرجح على تأثير الملايين من الناس، فيكون أمة بتأثيره وتفجير طاقته وكفاءته.

فهذا أديسون (١٨٤٧-١٩٣١م) مخترع المصباح الكهربائي تغير العالم من بعده، يعني أن العالم بعد أديسون غير العالم قبله، مئات الاختراعات قدمها، وقد كان إنساناً فاشلاً في دراسته، دخل المدرسة لثلاثة أشهر فقط، ولم يستمر في الدراسة، وكان يعاني من إعاقة في السمع، لكنه غير وطور العالم عبر مخترعاته. بإمكان الفرد أن يكون كذلك حينما يفجر كفاءته في أي مجال من المجالات.

من يتحلى بروح المبادرة

حين يبادر الإنسان ويعمل عملاً مميزاً، فيكون أمة بمبادرته، وكم من الأشخاص بمبادراتهم غيروا وجه التاريخ.

فهذه المرأة التي يحكى عنها في أمريكا (روزا باركيس ١٩١٣ - ٢٠٠٥م) التي

كانت تعيش ضمن واقع التمييز العنصري الذي يفصل البيض عن السود، حتى في وسائل المواصلات، وكان على الأسود أن يجلس في مقاعد خاصة في الخلف فإذا جاء أحد البيض فعليه أن يترك مقعده له، فالأولوية للأيض، كحالة من التمييز العنصري. هذه المرأة وهي خياطة بسيطة كانت في أحد الأيام عائدة من المحل إلى منزلها، وهي جالسة على مقعدها في الباص صعد رجل أبيض، انتظروا منها أن تقوم فلم تقوم، خاطبوها أن تقوم، فقالت: لماذا أقوم؟ هذا كرسيي وأنا سبقت إلى الجلوس عليه! قالوا لها: أنت سوداء وقد جاء أبيض والأولوية له، قالت: ومن قال ذلك، هذا ظلم وعدوان؟ لم تقبل أن تقوم فاتجه قائد السيارة إلى مركز الشرطة، وألقوا القبض عليها وسجنوها لأنها خالفت القانون، واستمرت محاكمتها في أمريكا ٣٨١ يوماً، لكن هذا الموقف والمبادرة كانت الشرارة التي أنهت التمييز العنصري في أمريكا، وكانت الحادثة في سنة ١٩٥٥ م، وتوالت بعدها الأحداث، إلى أن استطاعت أمريكا رسمياً أن تتجاوز التمييز العنصري، وأخيراً في هذا العام ٢٠٠٩ م رأينا كيف أن رجلاً من أصل أفريقي، هو باراك حسين أوباما يفوز برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، وكتب كثير من الصحفيين والمحللين أن فوز أوباما مدين لتلك المبادرة التي عملتها (روزا باركيس).

فبإمكان المبادرة أن تجعل من الفرد أمة، حين يقوم بعمل إيجابي، يؤثر ويغير مسار التاريخ.

من يقود مجتمعه إلى أهدافه السامية

المجتمعات في كثير من الأحيان يقودها فرد، ويبدأ الحراك فيها، فيغير واقع أمتة ومجتمعه، فغاندي (١٨٦٩ - ١٩٤٨ م) محرر الهند كان رجلاً فقيراً بسيطاً، وكان محامياً غير ناجح في مكتب المحاماة الذي يعمل فيه، لكن هذا الرجل الفقير هو الذي قاد الأمة المتنوعة الأعراق واللغات والقوميات والأديان، واستطاع أن يحرر الهند كلها.

فالأشخاص الذين يقودون مجتمعاتهم نحو التغيير، يصدق عليهم الفرد الأمة.

وهناك أشخاص كان لهم هذا الدور البالغ التأثير في تاريخنا الإسلامي، ويأتي في طليعتهم الإمام الحسين عليه السلام الذي غير مسار التاريخ بنهضته المباركة، فكان وضع الأمة الإسلامية بعد ثورته المجيدة، يختلف عن وضعها قبل شهادته.

وإنما نحتفي كل عام بسيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام لأن نهضته تعتبر منعطفاً في حياة الأمة، إذ كيف سيكون وضع الإسلام لو لم يتحرك الإمام الحسين؟ وماذا سيكون وضع الأمة الإسلامية لو لم يتحرك الإمام الحسين؟ إن حركة الإمام الحسين عليه السلام هي التي أنقذت الإسلام، وأنقذت الأمة الإسلامية، ولذلك استحق هذا الخلود، واستحق هذا التمجيد، ومن كانوا معه في كربلاء من بني هاشم وأصحابه تجد فيهم من كان في شخصيته يمثل أمة بالقيم التي كان يلتزم بها، وبالتكامل في شخصيته، وبمبادراته، صحيح أن كل أنصار الإمام الحسين عليه السلام كانوا في مستوى رفيع من المعرفة والتقوى، إلا أن ذلك لا يمنع من تميّز أحدهم على الآخر، كما كان ذلك جلياً في تميّز أبي الفضل العباس عليه السلام على الجميع.

فقد ورد عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنه قال: «إن للعباس عند الله تبارك وتعالى منزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة»^(١).

(١) الشيخ الصدوق. الخصال، ص ٦٨.

نقد الحالة الدينية

- بين الدين والحالة الدينية
- النقد الذاتي في الحالة الدينية
- كيف نتعامل مع النقد؟

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي
إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾
[سورة المجادلة: الآية ١]

□ بين الدين والحالة الدينية

لا يصح لمسلم أن ينتقد أو يعترض على شيء من الدين الموحى به من قبل الله سبحانه وتعالى، وهو النص الشرعي القطعي الصادر والقطعي الدلالة، وكذلك أصول الدين الثابتة بالفطرة والعقل المتمثلة في توحيد الله سبحانه وتعالى، والإقرار بنبوة النبي محمد ﷺ، والاعتقاد بالمعاد في يوم القيامة، وغيرها من الضرورات المتفق عليها بين المسلمين التي تمثل الدين، لا يمكن لمسلم أن يعترض عليها أو ينتقدها، يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٦]. وفي آية أخرى: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [سورة النساء: الآية ٦٥].

والمسلمون يؤمنون بأن هذا القرآن هو من عند الله، دون زيادة ولا نقصان، فهو نصُّ قطعي الصادر من قبل الله تعالى، بينما الأحاديث النبوية الشريفة لا يطلق عليها أنها قطعية الصادر، بل ظنية الصادر، وهنا مجال للنقاش؛ فهل ورد هذا الحديث أم لم يرد؟ وهل ثبت عن رسول الله ﷺ أو هو غير ثابت؟ وبالنسبة للدلالة في النص القرآني أو الحديث الثابت الصادر فإن كانت دلالاته على المعنى واضحة صريحة لا تقبل احتمالاً آخر، وجب الأخذ بذلك المعنى على كل مسلم، وإن كان

يقبل اختلاف التفسير يكون مجالاً للاجتهد واختلاف الرأي، وكل ملزم بنتائج اجتهاده ضمن الضوابط المقررة.

ما هي الحالة الدينية؟

الحالة الدينية تتجلى في ثلاثة مظاهر:

الأول: الخطاب الديني السائد في المجتمع بما يشتمل عليه من أفكار وآراء عقدية وفقهية. هذا الخطاب الديني، ليس بالضرورة أن تكون كل تفاصيله قطعية، بل هي اجتهاد، ولذلك يقول العلماء إن المسائل الشرعية الضرورية القطعية التي لا اختلاف فيها بالنسبة للأحكام الشرعية تمثل ٥-٦٪ فقط من الأحكام و ٩٤٪ من الأحكام فيها مجال للنظر والاجتهاد بين العلماء.

الثاني: الجهات الدينية من مؤسسات وشخصيات، ولا يمكن أن نعتبر هذه المؤسسة، أو هذا الشخص، أو هذا الرمز الديني هو الدين، إلا المعصوم، و من عداه فهو بشر قد يصيب وقد يخطئ.

الثالث: المواقف والممارسات السياسية والاجتماعية.

فالدين الموحى به من قبل الله تعالى لا مجال لنقده والاعتراض عليه، أما الحالة الدينية وهي: الخطاب الديني، والجهة الدينية، والمواقف والممارسات، يمكن أن يكون هناك نقد واعتراض عليها، وذلك لعدة أسباب:

السبب الأول: لخلل يستوجب النقد، إذ ما دامت الحالة الدينية جهداً بشرياً فإنها تحتمل الصواب والخطأ، سواء كان ذلك في الرأي أو الممارسة أو الموقف.

السبب الثاني: لضعف استيعاب المتلقي، فقد يسمع الإنسان خطاباً دينياً فلا يستوعبه، أو تشكل عليه بعض أبعاده وجوانبه، فينتقد

ويعترض؛ لا لوجود خلل في الخطاب بل لأنه لم يستوعب الفكرة والموقف؛ فهنا يكون الاعتراض والانتقاد وارداً، وقد لا يفهم الإنسان موقفاً أو ممارسة لجهة دينية فيعارضها.

السبب الثالث: وجود خلل في نفس المتلقي، فالناس بشر بطبيعة الحال، وقد تحصل حالات من التعصب، والنزاعات والمصالح الشخصية، فينتقد شيئاً من الحالة الدينية انطلاقاً من ذلك.

□ النقد الذاتي في الحالة الدينية

تواجه الحالة الدينية في هذا العصر كثيراً من النقد، أكثر من كل العصور والأزمنة السالفة، وهذا أمر طبيعي ومتوقع؛ وذلك لأسباب متعددة:

أولاً: نمو وتقدم الحالة الدينية، وما دامت في تقدم فهناك مخالفون ومتضررون من تقدمها، وهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي، بل سينتقدون ويعترضون وينأوئون، للنيل من الحالة الدينية وتحجيمها وعرقلة مسيرتها.

ثانياً: اتساع حرية التعبير عن الرأي، وارتفاع مستوى وعي الناس، وازدياد ثقتهم بأنفسهم، مما أوجد شعوراً لدى الإنسان بالثقة بنفسه، وبحقه في التعبير عن رأيه، لذلك نجد الآن نقداً لكل شيء، بعكس ما كان عليه الوضع في الماضي، فقد كانت هناك صعوبة في الاعتراض على الحكومات ونقد سياساتها، بسبب القمع الذي كانت تمارسه تلك الحكومات، لكن الأمر الآن أصبح طبيعياً، بل لا تستطيع أي حكومة أن تمنع النقد تجاهها، والاعتراض عليها، ولو أرادت ذلك، فوسائل التعبير عن الرأي متوفرة، من قنوات فضائية، وإذاعات، ومواقع إلكترونية، وتقنيات حديثة، وصحافة.

وكذلك بالنسبة للحالة الدينية، فقد ارتفع مستوى تفكير الناس وثقافتهم، وأصبح لديهم شعور بالثقة بذواتهم، وأصبحوا يتمكنون من التعبير عن آرائهم،

وقديماً لم تكن لديهم هذه الثقة، بل كانت تسود عند الناس ثقافة تمنعهم من أن ينتقدوا الحالة الدينية، بينما لم يعد الأمر كذلك.

وباعتبار أن الحالة الدينية تمثل واجهة المجتمع، فطبيعي أن يكون لها احتكاك بمصالح الناس وقضاياهم، وهي جهد بشري يقع منها الخطأ، وبالتالي اتسعت رقعة النقد. ولا يمكن منع الناس أن ينتقدوا.

من هنا، فإن على أي جهة من الجهات الدينية أن تبادر هي لنقد ذاتها، حتى تقلل من نقد الآخرين لها، وهذا ما يأمر به الدين، يقول الله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [سورة القيامة، الآيتان: ١-٢]، فلوم الإنسان لنفسه نقد، وورد في الحديث المروي عن رسول الله ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»^(١) ومحاسبة النفس حالة من النقد الذاتي الداخلي، وهي مطلوبة في داخل الحالة الدينية.

نقد الذات

ينقسم العلماء والمهتمون بالحالة الدينية إلى فريقين، فريق يقول: لا ينبغي أن نتنقد، حتى إن وجدنا موضعاً للنقد، لا ينبغي أن ننشر غسيلنا أمام الآخرين، ولا ينبغي أن ندل الآخرين على نقاط ضعفنا، ولا نتحدث عن مشاكلنا الداخلية، ولا نتكلم ولا نتنقد وضعنا الداخلي، حتى لا تنعدم وتقل هيبة المتدينين، وحتى لا يتجرأ الناس على نقد المتدينين، فإذا وجدت خطأً في الحالة الدينية لا تخبر الآخرين بأن هناك خطأً إنما تسكت وتستر على ما واجهت.

أما الفريق الآخر فيقول: إن التستر على السليبيات خطأ، بل ينبغي أن نبادر إلى نقد أنفسنا، للأسباب التالية:

أولاً: حتى لا يتعمق الخطأ ويترسخ.

(١) كنز العمال ج١٦، ص١٥٩ حديث ٤٤٢٠٣.

ثانياً: حتى ندفع الشبهة عن الدين وعن الحالة الدينية، وحتى يعلم الآخرون أن ما حصل خطأ، ولا يحمّلون الدين مسؤولية الخطأ.

ثالثاً: واهمّ من يتصور أننا إذا تسترنا ولم نتقد، سيظل الخطأ غير مكشوف للآخرين، فكل شيء في هذا العصر أصبح مكشوفاً للغير، فأوضاع المجتمعات والأفكار اختلفت، وكل شيء أصبح متاحاً وفي أيدي عامة الناس، كتب الطوائف والمذاهب وأخبارها موجودة على الإنترنت، وبضغطة زر يمكن للآخرين الاطلاع على تفاصيل أوضاعك الفكرية والعملية.

وبالتالي ينبغي أن يكون هناك نقد ذاتي من داخل الحالة الدينية. نعم، قد تختلف الآراء، وهو ليس أمراً سيئاً، فقد يرى هذا العالم أن هذا الرأي صحيح، وآخر يراه خطأ، أو أن هذه الممارسة خطأ، وهناك من يدافع عنها ويقبلها، فلا مانع من ذلك، فلتختلف الآراء، وليعلم الآخرون والعالم، وأي جهة من الجهات، أن في هذا المذهب وهذا الدين أكثر من رأي، فلا يحاسبون الجميع برأي واحد.

وهذا ما قام به العلماء المتنورون الواعون في الأمة من كل المذاهب، فهناك علماء من السنة كانت لهم جهود نقدية داخل مذاهبهم، وعلماء من الشيعة لهم جهود نقدية داخل مذهبهم، وهذا أفضل من النقد المذهبي المتقابل، واشتغال المذاهب ببعضها بعضاً.

المشكلة أن بعض علماء السنة يرون ما هي الأخطاء التي عند الشيعة، في تراثهم وكتبهم وأوضاعهم، فينشغلون بها، وبعض الشيعة كذلك قد ينشغلون بالأخطاء التي يرونها عند السنة، فنشغل بعضنا بعضاً، وننسى عيوبنا الداخلية، بينما الشرع يوجه كل إنسان للنظر في عيوبه، ورد عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام): (من نظر في عيب نفسه، اشتغل عن عيب غيره)^(١).

(١) بحار الأنوار ج ٧٢، ص ٤٨.

ونجد في علماء السنة في هذا العصر علماء أفاضل، قدموا جهوداً نقدية للحالة الدينية لديهم، وفي طليعتهم الشيخ محمد الغزالي، ومن يقرأ كتاباته يرى نقده لمناهج التعليم في الأزهر، ونقده للكثير من الفتاوى والآراء والمواقف، ومدرسته مدرسة واعية نقدية، وكذلك الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي لديه مجموعة من الكتب في نقد الحالة داخل المذاهب السنية، وأيضاً الشيخ حسن فرحان المالكي له كتابات نقدية رائعة ومن أبرزها كتابه (قراءة في كتب العقائد.. المذهب الحنبلي نموذجاً)، وهو دراسة جميلة وجيدة، يتحدث فيها كيف أن الحنابلة - وهي المدرسة التي نشأ فيها - يتحدثون عما في كتب الآخرين من خرافات، وأساطير وغلو، فقام بعمل قراءة لبعض كتب العقائد التي يأخذ بها علماء المدرسة السلفية والمذهب الحنبلي، واستخرج أشياء كثيرة تتطلب التوقف والمناقشة من التطرف والتكفير والغلو والخرافات، وهذا جهد بطولي.

وهناك علماء من الشيعة لهم جهود نقدية رائعة لبعض ما في داخل منهجهم وطائفتهم، ومن أبرزهم السيد محسن الأمين العاملي، له كتاب في نقد الشعائر الحسينية (رسالة التنزيه)، وله كتاب في نقد المنبر الحسيني وترشيده (المجالس الحسينية)، والشيخ حسين النوري عنده كتاب (اللؤلؤ والمرجان) مخصص لنقد المنبر، وأساليب الخطباء، وما يطرحة الخطباء على المنبر الحسيني، ومن أبرز العلماء الشيعة الناقدين الشهيد الشيخ مرتضى مطهري من يقرأ كتبه مثل (كتاب الاجتهاد في الإسلام) وكتابه (إحياء الفكر الديني)، وكتاب (الملحمة الحسينية) وكتب كثيرة عنده في هذا المجال، يرى فيها نقداً لكثير من الجهات والأبعاد في الحالة الدينية. ومن العلماء الذين يجب ألا ننساهم الشيخ محمد جواد مغنية «رحمه الله»، هذا الرجل العالم الواعي المنفتح، حينما يقرأ الإنسان تفسيره - التفسير الكاشف - أو يقرأ فقهه - فقه الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) - أو يقرأ سائر كتبه يجد فيها الكثير من النقد لكثير من المظاهر والممارسات والآراء السائدة في أوساط الشيعة، هذه نماذج وأمثلة للنقد الذاتي داخل الحالة الدينية وهو أمر جيد، ينبغي

أن يتطور، ويواكب المتغيرات والمستجدات، وهو مفاد حركة الاجتهاد، فلماذا الاجتهاد إذا كنا ستمسك بما هو قائم ومتوارث؟

□ كيف نتعامل مع النقد؟

كيف نتعامل مع النقد إذا كان من خارج الحالة الدينية؟ سواء كان من خارج المسلمين، أو من داخل المسلمين؛ لأن هناك شباباً ومثقفين وأصحاب رأي، لديهم نقد للحالة الدينية، وفي داخل كل مذهب من المذاهب هناك حالات نقد، هذا ما نراه ونسمعه، بيانات تصدر من هنا وهناك، كتابات في الصحف، كتابات في الانترنت وعلى مواقع التواصل الاجتماعي.

أعتقد أن على قيادات الحالة الدينية والمهتمين أن يضعوا نصب أعينهم الحقائق التالية:

أولاً: توقع النقد وتقبله

بعض الناس لا يتوقعون النقد ولا يتقبلونه، وبالتالي يرفضون أي حالة نقد، ويعتبرونها خروجاً عن الدين، وأنها ضد الدين، وهذا خطأ كبير. فلا بد من توقع النقد، بل وتقبله؛ لأن النقد لا يكون إلا لخلل يستلزم النقد، أو لضعف في الاستيعاب، أو لخطأ في الممارسة، أو لسوء فهم عند الطرف الآخر، كما ذكرنا، وكل ذلك أمر وارد يحصل في كل الديانات والجماعات.

لذلك يجب أن نتوقع النقد؛ لأن القمع له أضراره، فكل رأي يُقمع لا يموت بل ينتشر، من غير أن نعرف، ويلقي بتأثيره على الناس، بينما إتاحة الفرصة لظهور النقد تمكن من معالجته والرد عليه، بكشف نقاط ضعفه.

لدينا بعض الجهات الدينية ترفض النقد، فمثلاً أحد العلماء في المملكة، طالب باتخاذ إجراءات رادعة ضد من يكتب في الصحافة أو يتحدث ضد المشايخ

والعلماء، إما بسجنهم، أو بفصلهم من أعمالهم، أو بجلدهم وتأديبهم^(١). البعض ليس لديهم تقبل، تجاه نقد العلماء، وقد طالب البعض أن تكون هناك هيئة للدفاع عن العلماء، حتى لا يتجرأ أحد لنقد العلماء، وهذا نوع من التكريس للاستبداد الديني، ويوجد ردة فعل تجاه الدين. وما يجري في الساحات الأخرى، يجب أن نتوقعه في ساحاتنا.

ثانياً: الرد العلمي والمنطقي للنقد

لأن الرأي يواجه بالرأي، ولا يصح أن نترك الآراء التي نعتقد أنها خطأ تنتشر بين الناس، ولا نوعي الناس حولها، فواجبنا الشرعي ومسؤولية كل إنسان عنده قدرة أن يرد ويواجه وبيّن، وذلك بالمنطق والعلم، وليس بالتجريح والسب والشتم، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٨]، وفي آية أخرى: ﴿قُلْ هَانِئًا بِرُهَانِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١١].

وعلى العلماء والمفكرين والمثقفين حينما تثار شبهة ضد موضوع ديني، أو مذهبي، أن يتصدوا لردّ تلك الشبهة ومراجعتها وتبيين نقاط الخلل والخطأ فيها.

ثالثاً: الاعتراف بالخطأ وعدم المكابرة

بعض الناس يعترض على حالة النقد وكأنه يعتقد بعصمة نفسه، وعصمة جهته، وهذا خطأ كبير، إذ يجب ألا نكابّر، فحينما يكون هناك خطأ ينبغي الاعتراف به، فلا تكون هناك حالة مكابرة لدرجة الدفاع عن الخطأ وتبريره، وكما قيل (الاعتراف بالخطأ فضيلة).

رابعاً: التعامل باتزان تجاه حالات النقد

بعض الناس تتملكهم حالات ذعر وهلع، إذا كان هناك نقد لشيء يرتبط بالدين، أو المذهب، كأن الدين قد انهار، وكأنه جاءت نهاية المذهب، كلاً. فالدين

(١) جريدة الاتحاد الإماراتية. أبو ظبي ١٩ سبتمبر ٢٠٠٨ م.

قوي بمضمونه، والمذهب قوي ببراهينه، والإنسان المؤمن الواثق من دينه، ينبغي أن يتسامى على هذه الحالة السلبية، إن القرآن الكريم يتحدث عن حالة الهلع عند المنافقين فيقول: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة المنافقون: الآية ٤].

فالهلع والاضطراب إنما هو تعبير عن عدم الثقة، وهنا نستحضر كلمة جميلة للشهيد مطهري «رحمه الله» في كتابه نظام حقوق المرأة في الإسلام يقول: (أنا بعكس الكثيرين لا يغضبني إثارة الشكوك والشبهات على الإسلام، ومع حبي لديني إلا أنني ومن خلال التجربة واثق بقوة هذا الدين وأنه لا يزداد على الشكوك والشبهات إلا جلاءً وظهوراً وقوة)^(١).

فأي شبهة تأتي تصدى لها العلماء، من هنا يتجلى الفكر والدين، ولذلك فإن الإنسان الواعي العارف لا يتشنج، ولا يصيبه القلق والهلع، ويتعامل باتزان وأخلاق؛ لأن التعامل الانفعالي ينفر الآخرين ويحقق غرض أعداء الدين.

ولنفترض أن إنساناً مبتعداً عن الدين بمقدار بسيط، إذا أسأنا التعامل معه فإنه سيبتعد بمقدار أكبر، وسنخسره في النهاية، بينما لو تعاملنا معه التعامل الموضوعي الهادئ، سنستقطبه من جديد، وسيدرك خطأه، ويكتشف نقطة الضعف عنده، ولنا في رسول الله أسوة حسنة، فرسول الله ﷺ والأئمة ﷺ وكذلك كبار العلماء، كانوا يتعاملون مع النقد بدون انزعاج وانفعال ونفور من الطرف الآخر، فلماذا نرفض النقد مع أن المعصوم يستقبل النقد.

إمرأة تجادل الرسول

إن القرآن الكريم يخلد موقف نقد واعتراض لامرأة على رسول الله ﷺ في سورة كاملة يعنونها بـ (المجادلة) يقول تعالى في مطلع السورة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ

(١) مرتضى مطهري. نظام المرأة في الإسلام، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ، (طهران: معاونية العلاقات العامة في منظمة المؤتمر الإسلامي).

الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرُكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿سورة
المجادلة، الآية: ١﴾ وهذه السورة نزلت في خولة العوفية، حول قضية الظهر التي كانت
متداولة في الجاهلية، حين يقول الرجل للمرأة: أنت عليّ حرام كظهر أمي. فتحرم
عليه، وتبين منه، فتخرج إلى منزل أهلها، زوج خولة هو أوس بن الصامت، قال لها
هذه الكلمة في المدينة المنورة.

« روي أن خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت رآها زوجها وهي تصلي،
وكانت حسنة الجسم، وكان بالرجل لمم، فلما سلمت راودها، فأبت، فغضب،
وكان به خفة فظاهر منها، فأنت رسول الله ﷺ وقالت: إن أوساً تزوجني وأنا شابة
مرغوب فيّ، فلما خلا سني وكثر ولدي جعلني كأمه، وإن لي صبية صغاراً إن
ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، قال لها ﷺ: ما عندي في أمرك
شيء، وروي أنه ﷺ قال لها: «حرمت عليه»، فقالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقاً،
وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إليّ، فقال ﷺ: «حرمت عليه»، فقالت: أشكو إلى
الله فاقتي ووجدتي، وكلما قال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه» هتفت وشكت إلى
الله، فبينما هي كذلك إذ تردّ وجه رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، وهي قوله
تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ
وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ [سورة المجادلة، الآية: ٢]»^(١).

تعامل الرسول ﷺ مع المعارضين

وأكثر من ذلك لو قرأنا في السيرة النبوية لرأينا كيف كانت هناك اعتراضات
عنيفة من بعض الصحابة على رسول الله ﷺ، فكان يستقبلها بصدر رحب، والمجال
لا يتسع لشواهد عديدة، ونشير هنا إلى شاهد واحد وهو ما حصل في توزيع الغنائم
في معركة حنين بعد فتح مكة سنة ٨ هـ، حيث جمعت قبيلة هوازن عشرين ألف

(١) الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي. تفسير الرازي، ج ٢٩، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص ٢٤٩.

مقاتل، وكانت من أكبر وأخطر القبائل بعد قريش، من أجل أن تزحف إلى مكة وتقاتل الإسلام والمسلمين، فزحف رسول الله ﷺ إليهم بجيشه لمواجهةهم وكان معه اثنا عشر ألف مقاتل، وكان فيهم من دخلوا الإسلام من أهل مكة بعد الفتح، وطلب زعيم قبيلة هوازن من كل مقاتل فيهم أن يخرج بعياله وأمواله، حتى يكون أشد حماساً للقتال، فخرجوا وعندهم ثروات كثيرة.

في البداية صارت نكسة على المسلمين بسبب الكمائن التي وضعها لهم الأعداء، بعد ذلك تحقق النصر للمسلمين، وصارت كل الغنائم بأيديهم، وكانت غنائم كبيرة جداً، من الإبل ٢٤٠٠٠٠ بعيراً، من الشياه ٤٠٠٠٠ شاة، وكمية كبيرة من الذهب والفضة، وقسم رسول ﷺ الغنائم على المقاتلين، للرجل سهم ولل فارس ثلاثة سهام، وللرسول ﷺ خمس الغنيمة، وخمس الغنيمة لم يكن شيئاً بسيطاً، بقية المقاتلين وكانوا ١٢٠٠٠ وزّع الرسول ﷺ الغنيمة فيهم فكان لكل راجل ٤ من الإبل، ولكل فارس ١٢ من الإبل.

لكن زعماء قريش الذين التحقوا مع المسلمين بعد فتح مكة رأوا الغنائم عند رسول الله ﷺ فجاءوا يطلبون منه المزيد، فجاءه أبو سفيان بن حرب وبين يديه الفضة، فقال: يا رسول الله، أصبحت أكثر قريشاً مالاً، فتبسم رسول الله ﷺ، فقال أبو سفيان: أعطني من هذا المال يا رسول الله، فقال ﷺ: يا بلال، زن لأبي سفيان أربعين أوقية وأعطوه مئة من الإبل.

قال أبو سفيان: ابني يزيد أعطه، فقال ﷺ: زنوا ليزيد أربعين أوقية وأعطوه مئة من الإبل.

قال أبو سفيان: ابني معاوية يا رسول الله، قال ﷺ: زن له يا بلال أربعين أوقية وأعطوه مئة من الإبل.

قال أبو سفيان: إنك لكريم فداك أبي وأمي، والله لقد حاربتك، فنعم المحارب

كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيراً^(١).

ودخل حكيم بن حزام على رسول الله ﷺ فقال: فداك أبي وأمي يا رسول الله، ما أكثر ما أعطاك الله من المال! أريد ١٠٠ من الإبل يا رسول الله، قال ﷺ: أعطوه ١٠٠ من الإبل، قال: يا رسول الله، زدني، قال ﷺ: أعطوه مئة ثانية، قال: يا رسول الله زدني، قال ﷺ: أعطوه مئة ثالثة.

هؤلاء وأمثالهم أخذوا الكثير من الغنائم، بينما الأنصار من أهل المدينة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ وكانوا حاضرين، كان أكثر نصيب لأحد منهم من الغنائم ١٢ من الأبل، فجاء سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن قومي وجدوا في أنفسهم جدّة، قال ﷺ: خيراً، قال: رأوا تقسيمك للغنائم على قومك من قريش، وإنهم يقولون كذا وكذا، ونقل له ما يدور في أوساطهم.

فالتفت النبي ﷺ وقال له: هذا قول قومك، وما قولك أنت؟ قال: يا رسول الله، وأنا واحد من هذا الحي، أنا منهم، فلم يغضب رسول الله ﷺ ولم يفعل، مع أنه مارس صلاحيته الشرعية، ضمن الخمس الذي له حق التصرف فيه، بل جمع الأنصار في خيمة، قال: يا معشر الأنصار! ما مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضللاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى.

قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار، أما والله! لو شئتم لقلتم فصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فواسيناك، أو جدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفسي محمد بيده! لولا الهجرة لكنت امرئ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت

(١) ابن عساکر. تاریخ دمشق ج ٢٣ ص ٤٣٢.

شعب الأنصار»^(١).

ثم قال: «أيها الأنصار، ألا ترضون أن يرجع الناس بالبعير والشاه وتعودون إلى رحالكم برسول الله؟»

ألا يرضيكم أن يعود الناس بالدنيا وتعودون إلى دياركم برسول الله، ورسول الله معكم؟ إني ما أعطيتهم إلا لكي أتألفهم إلى الإسلام»^(٢). وصار يتحدث عن فضل الأنصار ثم ختم كلامه بقوله: «اللهم اغفر للأنصار، اللهم اغفر لأبناء الأنصار، اللهم اغفر لأبناء أبناء الأنصار، ولا زال يدعو لهم حتى دمعت عيونهم وبكوا وقالوا: رضينا يا رسول الله».

وقد جاء في مصادر الحديث والسيره أن رجلاً من بني تميم يقال له ذو الخويصرة، وقف أمام رسول الله ﷺ بعد توزيع بعض الغنائم، وقال: يا محمد، أعدل، فقال: ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل، فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق! فقال ﷺ: «معاذ الله أن يتحدث الناس إني أقتل أصحابي»^(٣).

فإذا كان رسول الله ﷺ النبي المعصوم يتقبل النقد، ويتحملة ويتعامل معه بهذه الطريقة، فإن للعلماء والواعين في رسول الله أسوة حسنة.

علي في مواجهة الاعتراض

وكما كان رسول الله ﷺ، فإن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ سار على ذات النهج، فقد كان يستشير الناس ويطلب منهم أن ينتقدوا وأن يعترضوا، وفي أوائل خطبه في الكوفة حينما تولى الحكم وبويع بالخلافة قال ﷺ: «فَلَا تُكَلِّمُونِي

(١) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني. ابن الأثير: الكامل في التاريخ. ج ٢، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي)، ص ٢٧١.

(٢) كنز العمال. ج ١٢، ص ٧.

(٣) صحيح مسلم، ص ٥٣١، حديث ١٠٦٣.

بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةَ وَلَا تَحْفَظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ - يعني عند أهل الغضب - وَلَا تَظُنُّوا بِي اسْتِثْقَالًا فِي حَقِّ قِيلَ لِي وَلَا التَّمَّاسَ إِعْظَامَ لِنَفْسِي فَإِنَّهُ مَنْ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ فَلَا تُكْفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقِّ أَوْ مَشُورَةٍ بَعْدِلٍ».

والتاريخ يذكر لنا عن أحد قادة الخوارج - الخريت بن راشد - أنه جاء لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ومعه ثلاثون من أصحابه قال: لا والله لا أطيع أمرك ولا أصلي خلفك وإني غداً لمفارق لك ، فقال عليه السلام: «ثكلتك أمك إذا تنقض عهدك وتعصي ربك ولا تضر إلا نفسك، أخبرني لما تفعل ذلك؟ قال: لأنك حكمت في الكتاب، وضعفت عن الحق إذ جد الجد، وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك راد، وعليهم ناقم، ولكم جميعاً مباين، فقال علي عليه السلام: «ويحك هلم أدارسك وأناظرك في السنن. فقال الخريت: فأنا غادٍ عليك غداً»^(١).

وحينما صرخ الخوارج في أنحاء متفرقة من المسجد: لا حكم إلا لله، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كلمة حق أريد بها باطل، أما إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا: أن لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنع عنكم الفيء، ولا نقاتلكم ما لم تبدؤوا بفتنة»^(٢).

ويذكر الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد حادثة عجيبة، يقول: أن رجلاً أتى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، إني قد شككت في كتاب الله المنزل، قال له عليه السلام: ثكلتك أمك! وكيف شككت في كتاب الله المنزل؟! قال: لأنني وجدت الكتاب يكذب بعضه بعضاً فكيف لا أشك فيه. فقال عليه السلام: إن كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً ولا يكذب بعضه بعضاً، ولكنك لم ترزق عقلاً تنتفع به،

(١) بحار الأنوار ج ٣٣ ص ٤٠٦.

(٢) محمد بن جرير الطبري. تاريخ الطبري ج ٤، الطبعة الخامسة ١٤٠٩هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص ٥٣.

فهايت ما شككت فيه من كتاب الله عز وجل، فردّ على جميع إشكالاته وتوهمات، فقال: فرّجت عني فرّج الله عنك يا أمير المؤمنين ونفع الله المسلمين بك^(١).

وهذا الإمام الحسن بن علي عليه السلام بعد أن صالح معاوية، ألم يعترض عليه خلّص أصحابه؟ بعضهم يدخل عليه قائلاً: السلام عليك يا مذل المؤمنين^(٢). والإمام الحسن عليه السلام لم يكن يغضب ولم يفعل، بل كان يجلس معهم، ويشرح لهم رأيه وموقفه، ويبين لهم دوافعه في الصلح، وهذا هو ديدن الأنبياء والأئمة والعلماء الواعين.

إذن التعامل مع النقد ينبغي أن يكون بالرأي وبالمنطق، ولا ينبغي أن نصاب بالهلع والانفعال والتشنج، ولا أن نتعامل بأخلاق سيئة مع الطرف الناقد، فنبعده أكثر عن الدين، وإن كان مخطئاً في نقده، وإنما نتأسى برسول الله صلى الله عليه وآله وبالأئمة عليهم السلام وبالصالحين.

وحينما يقرأ الإنسان سيرة المعصومين عليهم السلام في تعاملهم مع من حولهم يجد التطبيق العملي لقوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١٥].

في ليلة العاشر من المحرم والجيش الأموي يحيط بمخيم الإمام الحسين عليه السلام ويتوعد بالهجوم في كل لحظة، يجمع الحسين عليه السلام أهل بيته وأصحابه، ويتحدث معهم بشفافية ووضوح قائلاً: أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً، ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلّ، ليس عليكم مني ذمام! هذا الليل غشيكم فاتخذوه جملاً، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج

(١) الشيخ الصدوق. التوحيد. (بيروت: دار المعرفة)، ص ٢٥٥.

(٢) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٥٩

الله، فإن القوم إنما يطلبونني، ولو أصابوني لما طلبوا غيري.
فأجابوه جميعاً: لم نفعل؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً.
فقال لهم: يا قوم، إني غداً أقتل وتقتلون كلكم معي ولا يبق منكم أحد.
ويروى أن القاسم بن الحسن عليه السلام وكان غلاماً في مقتبل العمر سأل عمه
الحسين عليه السلام: وأنا فيمن يقتل؟
فأشفق عليه وقال له: يا بني، كيف الموت عندك؟
قال: يا عم، أحلى من العسل.

الرحمة تصنع السعادة

- الرحمة صفة ونعمة إلهية
- الحضارة المادية تنشر العنف
- العنف شقاء المجتمع

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا

بِالرَّحْمَةِ ﴾ [سورة البلد: الآية ١٧]

□ الرَّحْمَةُ صِفَةٌ وَنِعْمَةٌ إلهية

لله سبحانه وتعالى صفات كثيرة، فهو الخالق، والرازق، والمهيمن، والقادر، والجبار والمتعال، إلى آخر صفاته جلّ وعلا، وقد اختار سبحانه صفة الرحمة لذاته بشكل خاص، ولذلك فإن بداية كل سورة من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

فالله هو الخالق، إلا أنه تعالى لم يشأ أن يجعل هذه الصفة هي التي تلحق بلفظ الجلالة، فلم يقل سبحانه: بسم الله الخالق، وليس بسم الله الرازق، مع أن ذلك صحيح، بل نجده جلّ وعلا اختار هذه الصفة من بين صفاته وكررها في كتابه العزيز (١١٤) مرة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، إضافة إلى أكثر من ثلاث مئة آية في القرآن الكريم غير البسملة، تصف الله تعالى بالرحيم، وأنه أرحم الراحمين، وتتحدث عن رحمته بالخلق.

واختلف العلماء في معنى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فبعضهم قال: الرحمن يعني: الرحمة العامة لكل الخلق، والرحيم تعني: الرحمة الخاصة بالمؤمنين، أو أن الرحمن للدنيا، والرحيم للآخرة، وإن كان هناك بعض النصوص يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

والسؤال هنا: لماذا التأكيد على هذه الصفة أكثر من سائر الصفات الإلهية، وجعلها لاحقة للفظ الجلالة في كل بسملة؟ لعل ذلك لأمرين:

الأول: التأكيد على هذه الصفة وأهميتها ومحوريتها في الوجود لدفع الإنسان للتخلقق بها.

الأمر الثاني: إلفات نظر الإنسان إلى هذه الرحمة الإلهية العامة، التي تغمره في حياته ليكون أقرب إلى ربه وأوثق برحمته.

فحينما يتأمل الإنسان يرى كيف أن رحمة الله تعالى تتسع لكل شيء ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٥٦]، وفي دعاء كميل: «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء». وإذا تأمل الإنسان في نفسه يرى كيف أن رحمة الله تحوطه وتغمره في كل لحظة، وفي كل آنٍ وحال، فمجئك إلى الحياة برحمة الله، وبقاؤك فيها برحمته، وكل حركة وسكون هي برحمة الله.

من جهةٍ أخرى، كم من المكاره والأخطار ينجو منها الإنسان، سواءً تلك التي يلحظها، أو التي لا يلحظها والله تعالى مطلعٌ عليها، فيحفظ الإنسان برحمته؛ الإنسان في كل لحظة معرض لمختلف الأخطار والله تعالى ينجيه، وفي لحظات الشدائد يدرك أن لا ملجأ إليه إلا الله.

ولو أن ذرة من ذرات الطعام، أو قطرة من قطرات الشراب، ضلت طريقها في بلعوم الإنسان إلى مجرى التنفس والهواء، فإنها يمكن أن تنهي حياة الإنسان، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام «مِسْكِينُ ابْنِ آدَمَ مَكْتُومُ الْأَجَلِ، مَكْنُونُ الْعِلْلِ، مَحْفُوظُ الْعَمَلِ، تُؤَلِّمُهُ الْبَقَّةُ، وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وَتُنْتِنُهُ الْعَرَقَةُ»^(١).

فأنت لا تدري ما هو مكنون لك، وما هو مخبوء لك، تنام ولا تدري كيف تصبح، وتصبح لا تدري كيف تمسي. لا تدري كيف هو وضعك في الساعة القادمة، ولا تعرف ما هو مصيرك في اللحظة القادمة، وهل يستطيع أحد أن يشك في ذلك.

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم، حكمة ٤١٩.

فمن الذي يركبك ويُنعِم عليك؟ ومن الذي يقيك الأخطار والمكاره؟ أليس هو الله سبحانه وتعالى؟

الإنسان يعيش الغفلة عن رحمة ربه، وعن نعمه التي تحيط به، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يبعث الأنبياء لكي يذكروا الإنسان بنعمه، وقد أوحى الله إلى داود «أحبني وأحب من يحبني وحبني إلى عبادي، قال: يا رب! إنك لتعلم أنني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحبك إلى عبادك؟ قال، ذكرهم بآلتي وبلائي ونعمائي»^(١).

ولهذا ينبغي للإنسان في كل حركة، وأمام كل نعمة، أن يذكر اسم الله، فإذا أراد أن يأكل أو يشرب يسمي بسم الله، وإذا أنهى طعامه شرابه يقول الحمد لله، لماذا؟ حتى يتذكر نعم الله وآلاءه عليه.

نعمة التراحم بين الناس

ومن نعم الله على الإنسان أن قذف الرحمة في نفوس الناس باتجاه بعضهم بعضاً، وكذلك كل المخلوقات، فمن الذي يجعل هذا الطير أو هذه الدابة تعطف على صغارها، ولو تأملت منظر حمامة أو عصفورة أو أي طير من الطيور كيف يحتضن فراخه ويدافع عنهم، ويوفر لهم الغذاء! من الذي قذف هذا العطف في قلوب هذه الطيور وهذه الحيوانات؟ أليس هو الله سبحانه؟

وكذلك الإنسان، ففي بداية مراحل عمره، لا يستطيع أن يجلب لنفسه نفعاً، ولا يدفع عنها ضرراً؛ لأنه ضعيف، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ [سورة الروم، الآية ٥٤]، ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء، الآية ٢٨]، فالطفل الصغير حينما يأتي لا يستطيع أن يصنع لنفسه شيئاً، ولا أن يدفع عن نفسه شيئاً، بل إن أوضاعه مزعجة، فيبكي؛ لأنه يحتاج إلى غذاء، أو إلى تنظيف ورعاية وعناية. والأم الحنون تتحمل إزعاجه،

(١) كنز العمال. ج ١٥، ص ٨٧٢.

بل وتحنو على الطفل وترضعه، وتسهر الليل من أجله، وتفديه بنفسها وروحها، فجزى الله الأمهات كل خير، حقيقة لا يستطيع الإنسان أن يخرج من جزاء أمه، ذلك الرجل كان في الطواف حاملاً أمه، يطوف بها، فسأل رسول الله ﷺ: هل أدت حقها؟ فأجابه ﷺ: «لا ولا بزفرة واحدة»^(١)، وشكى رجل إلى رسول الله ﷺ سوء خلق أمه، فقال له ﷺ: «إنها لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر، وحين أرضعتك حولين، وحين سهرت لك ليلها وأظمأت نهارها، فقال الرجل: إني جازيتها وحججت بها على عاتقي، فقال ﷺ: «ما جازيتها ولا طلقة»^(٢)، هذه الأم وما تتحمل تجاه الولد، من الذي جعل الرحمة في قلبها؟ أليس هو الله تعالى؟ ولذلك نقرأ في دعاء عرفة: «وَعَطَفْتَ عَلَيَّ قُلُوبَ الْحَوَاضِنِ، وَكَفَلْتَنِي الْأُمَّهَاتِ الرَّوَاحِمَ، وَكَلَأْتَنِي مِنْ طَوَارِقِ الْجَانِّ، وَسَلَّمْتَنِي مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ، فَتَعَالَيْتَ يَا رَحِيمٌ يَا رَحْمَنُ»^(٣).

في الآخرة رحمة الله أعظم

فالله تعالى يرحم الإنسان في حياته، وهو يقذف الرحمة له في قلوب من حوله، وعليك أن تعلم أن كل هذه الرحمة الإلهية التي تحوطك في هذه الحياة ما هي إلا شيء قليل، وهناك ما هو أعظم من هذه الرحمة، وما هو أوسع، وذلك في الآخرة، فرحمة الله بالإنسان في الآخرة أعظم منها في الدنيا بأضعاف مضاعفة، روى سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن الله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، وجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها

(١) إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. تفسير ابن كثير. ج ٣، طبعة ١٤٠٠هـ، (حلب: مكتب التراث الإسلامي)، ص ٣٨.

(٢) أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري. تفسير الكشاف. ج ٢، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص ٦٥٩.

(٣) السيد ابن طاووس. إقبال الأعمال، تحقيق جواد القيومي الأصفهاني، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، (قم المقدسة: مكتب الإعلام الإسلامي)، ج ٢، ص ٧٥.

على بعض وأخر تسعاً وتسعين، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة^(١).

ففي يوم القيامة تسع وتسعون رحمة مذكّرة لك أيها الإنسان، وما تراه في هذه الدنيا من نعم الله ومن رحمة الله، هو جزء من مئة جزء من رحمة الله تعالى. عن عمر قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها^(٢).

فعلى الإنسان أن يقدر هذه الرحمة ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٥٣].

فكما أن الله يحبك، عليك أن تحب الله، وكما أن الله يرحمك، عليك أن تطيع الله، وترحم عباده، قال ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»^(٣) لأن الله عز وجل يقول كما جاء في حديث قدسي: «إن كتتم ترجون رحمتي فارحموا خلقي»^(٤)، وروى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا، قالوا: بلى يا رسول الله، كلنا رحيم، قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكن رحمة العامة»^(٥).

وجسد رسول الله ﷺ تلك الرحمة على الناس، في قوله: «إني لأقوم إلى الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي كراهية أن أشق

(١) كنز العمال. ج ٤، ص ٢٧٣، حديث ١٠٤٦٤.

(٢) صحيح البخاري. ج ٤، ص ٨٧، حديث ٥٩٩٩.

(٣) كنز العمال. ج ٣، ص ١٦٧، حديث ٥٩٩٠.

(٤) كنز العمال. ج ٣، ص ١٦٧، حديث ٥٩٩١.

(٥) علي بن أبي بكر الهيثمي. مجمع الزوائد. ج ٨، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص ٣٠.

على أمه»^(١).

ومشكلة الإنسان أنه يغفل وينسى، فيتعامل مع ربه بجفاء وجفاف، ففي دعاء الافتتاح: «فَلَمْ أَر مَوْلاً كَرِيماً أَصْبَرَ عَلَيَّ عَبْدٌ لَتَيْمٍ مِنْكَ عَلَيَّ يَا رَبِّ، إِنَّكَ تَدْعُونِي فَأَوْلِيَّ عَنْكَ، وَتَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَاتَبَغَّضُ إِلَيْكَ، وَتَتَوَدَّدُ إِلَيَّ فَلَا أَقْبَلُ مِنْكَ، كَانَ لِي التَّطَوُّلُ عَلَيْكَ، فَلَمْ يَمْنَعَكَ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ لِي، وَالْإِحْسَانَ إِلَيَّ، وَالتَّفَضُّلَ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ، فَارْحَمْ عَبْدَكَ الْجَاهِلَ وَجُدْ عَلَيْهِ بِفَضْلِ إِحْسَانِكَ إِنَّكَ جَوَادٌ كَرِيمٌ»^(٢).

إن الله تعالى خلق الناس من أجل أن يرحمهم، يقول تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [سورة هود: الآية ١١٩]، وقد جاء في حديث قدسي: «خلقتكم لتربحوا عليّ لا لأربح عليكم»^(٣).

ويُفترض في الإنسان أنه إذا تذكر نعم الله ورحمته، أن يدفعه ذلك لكي يطيع ربه، إلا أن الواقع ليس كذلك، يقول تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [سورة الحج، الآية: ٧٤]. فكيف تتعامل أنت مع الرب الذي أعطاك كل شيء، وأنعم عليك بكل شيء، وإليه مصيرك ومآبك، وأنت في حاجة إلى رحمته بعد هذه الحياة أكثر من حاجتك في هذه الحياة؟

فعلى الإنسان أن يتأمل ويتبصر، إن النصوص والروايات حول عذاب الله للإنسان يوم القيامة، هي من أجل تهذيب سلوك الإنسان، وإرشاده، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يصيب العبد أدنى أذى، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى برحمته يتوب ويعفو عن الإنسان إن أناب لربه، مهما كانت ذنوبه وجرائمه، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن آخر عبد يؤمر به إلى النار يلتفت، فيقول الله عز وجل:

(١) صحيح البخاري. ج ١، ص ١٧٣.

(٢) الشيخ الطوسي. مصباح المتعبد، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م، (بيروت: مؤسسة فقه الشيعة)، ص ٥٦٤.

(٣) تفسير الرازي. ج ١، ص ٢٣٠.

أعجلوه، فإذا أتى به قال له: يا عبدي، لم التفت؟ فيقول: يا رب، ما كان ظني بك هذا، فيقول الله جل جلاله: عبدي وما كان ظنك بي؟ فيقول: يا رب، كان ظني بك أن تغفر لي خطيئتي وتسكنني (وتدخلني) جنتك، فيقول الله: ملائكتي! وعزتي وآلائي وبلائي وارتفاع مكاني ما ظن بي هذا ساعة من حياته خيراً قط، ولو ظن بي ساعة من حياته خيراً ما روعته بالنار، أجزوا له كذبه وأدخلوه الجنة»^(١).

والله تعالى يطمئن الناس: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، أيها الإنسان لا تقنط لأن الله يحبك، وقد ورد في حديث قدسي: «يا داود، اسمع مني ما أقول، والحق أقول: من أتاني وهو يحبني أدخلته الجنة. يا داود، اسمع مني ما أقول، والحق أقول: من أتاني وهو مستحي من المعاصي التي عصاني بها، غفرتها له وأنسيها حافظيه. يا داود، اسمع مني ما أقول والحق أقول: من أتاني بحسنة واحدة أدخلته الجنة. قال داود: يا رب، ما هذه الحسنة؟ قال: من فرج عن عبد مسلم. فقال داود ﷺ: إلهي كذلك لا ينبغي لمن عرفك أن يقطع رجاءه منك»^(٢).

أوسع من أفق المتدينين

ولذلك على الإنسان أن يُقبل على التوبة إلى الله سبحانه وتعالى، فأمامك متسع وفرصة، ورحمة الله تعالى واسعة، وهي في يوم القيامة أوسع، والنصوص والروايات تكشف لنا ذلك، ففي رواية عن الإمام الصادق ﷺ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رحمته حتى يطمع إبليس في رحمته»^(٣).

الإنسان الواعي العارف يعطي الناس الأمل في رحمة الله تعالى، ولا يعطيهم

(١) بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٨٧.

(٢) أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي. الأمالي، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية - (قم المقدسة: مؤسسة البعثة)، ص ١٠٧.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٨٧.

الرجاء المطلق الذي يجعلهم يأمنون من عذاب الله تعالى، قال الإمام علي عليه السلام:
 «الْفَقِيَهُ كُلُّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يَقْنَطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَ لَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَ لَمْ
 يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ»^(١)، فلا بد من التوازن. ولهذا جاءت آيات تتحدث عن الرحمة
 وأخرى عن العذاب.

والله تعالى خلق الناس ليرحمهم، بالتالي لن يخلد في النار إلا الجاحد
 المعاند، ففي دعاء كميل: «فَبِالْيَقِينِ أَقْطَعُ لَوْ لَا مَا حَكَمْتَ بِهِ مِنْ تَعْذِيبِ جَاحِدِيكَ،
 وَقَضَيْتَ بِهِ مِنْ إِخْلَادِ مُعَانِدِيكَ لَجَعَلْتَ النَّارَ كُلَّهَا بَرْدًا وَسَلَامًا وَمَا كَأَنْتَ لِأَحَدٍ فِيهَا
 مَقْرَأًا وَلَا مُقَامًا»^(٢). وأما البقية كلهم ينجون من النار ويدخلون الجنة.

ومشكلة بعض الناس في وسط المتدينين، أنهم يفكرون أن الجنة وكأنها بوابة
 مصممة على ضيق أفقهم، لا يدخلها أحد إلا بالمواصفات التي يرونها هم، بينما
 الجنة بيد الله، والله رحيم بعباده، وحينما قالت بعض الطوائف في الماضي أن الجنة
 ستكون حكرًا عليهم، رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ
 هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ
 لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ [سورة البقرة، الآيتان: ١١١ -
 ١١٢]، ومعنى قوله: أَسْلَمَ وَجْهَهُ، أي أسلم قصده خالصاً لله، فإذا اشتبه في الطريق ولم
 يعرف الحق لشبهة، أو لبيئة كان يعيش فيها، أو لوضع كان يحيط به، وأسلم وجهه لله،
 فهذا لا يكون في النار، إنما يدخل الجنة إن كان محسناً، وحتى أصحاب الديانات
 الأخرى الذين لم تتضح أمامهم الحقيقة وكانت قلوبهم ونفوسهم طاهرة، بحيث لو
 اتضح لهم الحق لا تبعوه، فإنهم بعفو الله ينجون يوم القيامة.

وينقل الشيخ المطهري عليه السلام عن الفيلسوف الفرنسي المعروف ديكارت قوله:
 «إني لا أدعي أن المسيحية قطعاً أفضل دين في الأرض، ولكنني أقول إن المسيحية

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم، حكمة ٩٤.

(٢) مصباح المتعجب، ص ٨٤٨.

هي الأفضل بالقياس إلى الأديان التي أعرفها، وقد تناولتها بالبحث والتحقيق، وليس لي أي عداً مع الحقيقة، فقد يكون هناك في أماكن أخرى من الدنيا دين يرجح على المسيحية، إنه لا علم لي فلعل ديناً ومذهباً يوجد في إيران مثلاً هو أفضل وأحسن من المسيحية»، ويعلق الشيخ المطهري قائلاً: «لو كان ديكارت صادقاً في حديثه ومستسماً للحقيقة بالمقدار الذي يدعيه لنفسه، وقد بحث واستقصى بكل جهوده ولم يصل إلى أكثر مما وصل إليه فهو يُعدُّ حينئذٍ مسلماً بالفطرة»^(١) هو مخلص، إلا أنه لم تصله الحجة، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٥]، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤٢].

فالله تعالى لم يخلق الناس حتى يعذبهم، خلقهم لكي يرحمهم، وإذا كان ديكارت صادقاً في ما ينقل عنه فإنه يدخل الجنة بعفو الله ورحمته.

وقبل مدة نشرت بعض الصحف استبياناً عن الأمريكيين يوضح أن ثلثي الأمريكيين ممن شملهم الاستبيان يعتقدون بوجود جنة وآخرة، وأن الأكثرية فيهم أيضاً يعتقدون بأنهم سيدخلون الجنة.

لهذا نجد أن الشيخ يوسف الصانعي يرى أن ليس كل من هو غير مسلم فهو كافر، فالكافر من الكفر، والكُفر هو الحجب والستر، كما يقول القرآن الكريم ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾، الكفار هنا يعني الزراع؛ لأن الزارع يلقي البذور ثم يسترها في الأرض، فأطلق عليه بأنه كافر بهذا المعنى.

فالشيخ الصانعي يقول: (وأما غير المعاندين وهم عامة الكفار فالأظهر عدم نجاستهم، بل أن عامة الكفار حتى الحربي منهم إذا لم يحارب المسلمين عناداً للإسلام، وإنما يقاتلهم لأسباب أخرى، لا يُعدُّ معانداً ولا يحكم بنجاسته)^(٢)،

(١) مرتضى مطهري. العدل الإلهي. طبعة ١٤٠١هـ. (قم المقدسة: الدار الإسلامية للنشر)، ص ٣٢٥.

(٢) الشيخ يوسف الصانعي. مصباح المقلدين، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ، (قم المقدسة: منشورات ميثم

وعنده أدلة استعرضها في مجال بحثه، وهذا رأيه كفقيه.

الطوائف واحتكار الجنة

والأمر الخطير أنه في داخل المسلمين تجد أن كل طائفة ترى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان معهم، وبقية الناس كلهم في النار، وهذا الحديث المتداول الذي تحدث العلماء كثيراً حول مدى صحة سنده، واختلاف ألفاظه، وتحدثوا حول مدى صحة مدلوله، وهو الحديث الذي ينسب إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «لتفترقن هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا فرقة واحدة»^(١)، فبناءً عليه تكون اثنتان وسبعون فرقة في النار، وفرقة واحدة لجنة عرضها السماوات والأرض!!

وروي أنه قام رسول الله ﷺ في صلاة مع أصحابه، «فقال إعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلم النبي ﷺ قال للإعرابي: لقد حجرت واسعاً - يريد رحمة الله -»^(٢).

وهناك نصوص كثيرة تدل على أن كل من نطق الشهادتين، يدخلون الجنة، وورد عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ قال: «رضى جدي ألا يبقى موحد في نار جهنم»^(٣)، ويقول زرارة: سألت الإمام الصادق (عليه السلام) قلت له: أصلحك الله، أرأيت من صام وصلى واجتنب المحارم وحسن ورعه ممن لا يعرف ولا ينصب؟ فقال: إن الله يدخل أولئك الجنة برحمته»^(٤)، ورواية أخرى عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) يقول: «إن للجنة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون،

(١) بحار الأنوار. ج ٥٤، ص ٣١٨.

(٢) صحيح البخاري. ج ٤، ص ٨٩، حديث ٦٠١٠.

(٣) الشيخ عبدعلي بن جمعة العروسي الحويزي. تفسير نور الثقلين. ج ٥، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ص ٥٩٥.

(٤) بحار الأنوار. ج ٢٧، ص ١٨٣.

وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت»^(١).

فإذا لم ينصب الإنسان العداً لأهل البيت فإنه مشمول بعفو الله ورحمته، فقد تكون الحقيقة غير واضحة أمامه؛ لأنه يعيش في بيئة معينة، ولو اتضحت له الحقيقة لقبها، فهذا أيضاً يدخل الجنة.

إذا رحمة الله سبحانه وتعالى واسعة، وعلى الإنسان أن يكون له أمل في رحمة الله سبحانه وتعالى. وهذا أمير المؤمنين عليه السلام يخاطب أهل العراق: «يا أهل العراق، تزعمون أن أرجى آية في كتاب الله ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ وإنا أهل البيت نقول إن أرجى آية في كتاب الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وهي والله الشفاعة ليعطيها أهل لا إله إلا الله حتى تقول: ربّ رضيت»^(٢).

□ الحضارة المادية تنشر العنف

البشر في حياتهم يحتاجون إلى التراحم فيما بينهم، فهم يعيشون مع بعضهم بعضاً، وحالات الضعف تجاه بعضهم بعضاً واضحة، لذا يحتاجون إلى أن يتراحموا، وأن يبذلوا الرحمة إلى بعضهم بعضاً، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [سورة البلد، الآية: ١٧]؛ لأن الناس إذا لم يتراحموا فيما بينهم؛ وسادت الشدة والغلظة والقسوة في تعاملهم، فإنه يعيشون الشقاء، ويفقدون السعادة والأمن.

الإنسان حينما يرحم الآخرين يشعر بالسعادة ويرضى ضميره، ومن معه يشعرون بالسعادة؛ لأنهم يأمنون عدوانه، ويجدون إحسانه. فالناس بحاجة إلى

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٢٢.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص ٢٥٤.

التراحم فيما بينهم، إلا أن النزعة الذاتية عند الإنسان، والأهواء والشهوات، قد تنحرف بفطرة الإنسان، وتخلق صوت الضمير في أعماقه، بسبب الإفراط والمبالغة في حالة الأنانية، وبالتالي تنشأ حالة القسوة والعنف بين الناس، وإنما جاء الأنبياء والرسالات من أجل هداية الناس، ونشر ثقافة الرحمة والتراحم فيما بينهم، ليقوم الناس بالقسط، فإذا ابتعد الناس عن القيم الدينية سادتهم حالة العنف والشقاء، وهذا ما تعاني منه البشرية الآن.

الحضارة المادية تشيع روح المصلحة والربح، وتحرّض حالة الأنانية عند الإنسان، لذلك انتشرت حالة العنف والقسوة بين أبناء البشر في هذا العصر، إذ لم يمرّ على البشرية عصر من العصور كانت فيه القسوة والعنف والجريمة أكثر انتشاراً من هذا العصر، والإحصائيات تقول: في القرن العشرين قتل ١٦٧ مليون إنسان بسبب الحروب والنزاعات، وهناك أكثر من ٤٩٠ ألف شخص يموتون سنوياً بسبب العنف والجريمة.

وتعدّ الآن تجارة العنف أو تجارة الأسلحة أضخم التجارات في العالم، فهناك تسابق على إنتاج السلاح، وهذه المصانع حينما تصنع أسلحة، تبحث عن سوق لتصريف هذه الأسلحة، ولا يكون ذلك إلا بخلق الحروب والنزاعات في العالم، ولذلك هم مسؤولون عن خلق الحروب والنزاعات من أجل تحريك مصانع الأسلحة لديهم. وما عليك سوى أن تنظر في ميزانيات وزارات الدفاع عند أي دولة من الدول، لترى كم يُصرف على السلاح، ولو أن ما تصرفه البشرية على السلاح يصرف على التعليم والصحة وعلى الشعوب الفقيرة المحرومة في كل مكان، لكان وضع البشرية غير هذا الوضع، وهذا الحال.

فبعد الاتفاق بين أمريكا وروسيا على خفض نسبة الرؤوس النووية من البلدين، أصبح الآن لكل منهما ثلاث آلاف وخمسمائة رأس نووي، وهذا يعني أن كل فرد على وجه الأرض حصته ٢٠٠ كغم من المتفجرات.

وهناك مشكلة الألغام الأرضية التي تنتجها المصانع. حيث لا تزال بعض الدول المستكبرة، ترفض التوقيع على اتفاقية عدم إنتاج الألغام الأرضية، إذ يوجد الآن في أرجاء المعمورة ١١٩ مليون لغم، وإنتاج اللغم الواحد يكلف خمس دولارات، وإزالته تكلف ٥٠٠ دولار، وفي كل سنة يموت ٢٦ ألف إنسان بسبب تفجّر ألغام. ففي حرب تحرير الكويت تم استخدام خمسة ملايين لغم، كما استخدمت العديد من الأسلحة الفتاكة التي لا تزال آثارها إلى الآن، ويذكر الباحثون والخبراء أن أحد أسباب ارتفاع إصابات السرطان في منطقة الخليج هي الأسلحة والمواد التي استخدمت في تلك الحرب المجنونة الفتاكة، فالغرب جعل من منطقتنا منطقة تجارب للسلاح، والشرق الأوسط يستورد ٤٠٪ من صادرات السلاح في العالم، ولهذا لا تريد الدول المستكبرة وخاصة أمريكا أن يسود السلام والوثام بين دول المنطقة، بل تريد كل دولة تعيش القلق من الدول الأخرى، حتى تشتري كل دولة أسلحة في مقابل الدولة الأخرى، فهم يؤججون المخاوف فيما بين دول المنطقة وشعوبها، حتى يبيعوا أسلحتهم، ويهيمنوا على المنطقة.

هذه هي الحضارة المادية، حضارة عنف ودمار. فيها تقدم علمي وتكنولوجي، وهذا لا يمكن إنكاره، إلا أنه مع الأسف الشديد هناك أيضاً ارتفاع في مستوى العنف والجريمة في العالم، بسبب هذه الحضارة المادية، ويكفي أن تسمع الأخبار يوماً لتعرف ما يجري في العالم بصورة دائمة من دمار بسبب هذه الحضارة، وبلاد المسلمين هي الضحية الكبرى.

□ العنف شقاء المجتمع

بدأ العنف ينتشر في داخل مجتمعاتنا بعكس ما كانت عليه في الماضي، حيث كانت تعيش الأمن والاستقرار الداخلي. والمجتمع هو حصن الإنسان، وملجأه يعيش فيه مثل بيته، يأمنه ويستقر فيه ويطمئن له، ومع الأسف الشديد فإن حالة الاستقرار والأمن الاجتماعي التي كنا نعيشها بدأت تتلاشى، فقد بدأت حالات من

الرعب والعنف والإجرام تتسلل إلى مجتمعاتنا، وإحصائيات الأمن العام السعودي لعام ٢٠٠٦م تكشف بعض هذا الأمر، تقول الإحصائية: في كل يوم في بلادنا هناك ٤٣ جريمة قتل أو محاولة قتل، وفي كل يوم ١١٠ جريمة سرقة^(١).

وبعيداً عن الإحصائيات كُنّا نفخر بمجتمعنا المتجانس الذي يعيش حالة الاستقرار والأمن الاجتماعي، وكيف أن كل شاب، وكل واحد من أبناء المجتمع، كان يرى نفسه أميناً على كل أعراض مجتمعه، وعلى كل أمواله، وكان يعتبر نفسه جزءاً من عائلة المجتمع الكبيرة، ومع الأسف الشديد أصبحنا نجد في هذه السنوات حالات من الإجرام، ومن أناس لم يأتوا من كوكب آخر ولا من مجتمع آخر، إنهم من هذا المجتمع، هناك نسبة كبيرة من الجرائم من قبل الوافدين من خارج البلد، لكن نسبة ليست قليلة هي من أبناء المجتمع نفسه. فكيف يرتاح الإنسان وهو يجد أن شباباً من أبناء مجتمعه يمارسون العنف فيما بينهم، ويمارسون العنف على الآخرين، ويسطون لسرقة بيوت بعضهم بعضاً، وخاصة في مثل أيام المناسبات، هناك عصابات تعرف أن منطقة خالية من أهلها لأنهم في مناسبة أو مأتم، فيسطون على البيوت، ويسرقونها، وأكثر من ذلك حصل أكثر من مرة أن امرأة تمشي في الطريق يسحبون الحقيبة من يدها حتى تسقط على الأرض، وينهبون الهاتف الجوّال من يد إنسان يتكلم به.

وعند التأمل فيما يجري نجد أن لهذه الظاهرة أسباباً، وعلينا جميعاً أن نهتم بمواجهة هذه الحالة، ففي كل دول العالم والمجتمعات هناك برامج يطلق عليها برامج الوقاية من العنف، ونحن نحتاج إلى مثلها، هذه البرامج تبدأ من التربية؛ لأن ثقافة العنف قد يرتفعها الإنسان وهو طفل، فمثلاً أفلام الكارتون في غالبها أفلام عنف، فالطفل وهو صغير يرى العنف، ووسائل الإعلام دائماً تنقل أمامه مناظر العنف، فيتربى على ذلك. بعكس الماضي، كان الإنسان إذا رأى حالة قتل

(١) صحيفة الوطن السعودية. الصادرة بتاريخ ٢٦/٨/٢٠٠٦م.

يرعب ويخاف ويرتعد، أما الآن فقد أصبحت مناظر الدماء والقتل عادية أمام الإنسان؛ لأن وسائل الإعلام طبّعت هذه المناظر، بنقلها للأحداث التي تجري في العالم، فأصبح الإنسان يستخدم السلاح على أقل خلاف وأتفه قضية. وقبل أيام نشرت جريدة الرياض أن نساءً في القطيف تشاجرن في محل لبيع (الشاورما) بسبب تقديم طلب زبونة على أخرى، وبدأ الشجار بالملاسنة ثم تطور إلى صراع بالأيدي، ورشق متبادل بالحقائب وما كان متوفراً من أشياء^(١).

ماذا حلّ بنفوسنا؟ هناك حالة تشنج، أعصابنا مشدودة على بعضنا بعضاً، وهناك تساهل أمام تسلل السلاح وتجارته واستخدامه، ونحن نأمل أن أجهزة الأمن تزيد من نشاطها ودورها، ولا يترك الموضوع هكذا، والناس يجب أن يكون لهم دور. علينا جميعاً أن نتحمل المسؤولية، حمايةً لأنفسنا ولأعراضنا، وأن نعالج الأسباب، وهنا أتحدث عن واحدٍ من أهم الأسباب التي تقف وراء انتشار حالات العنف في مجتمعنا.

العنف الأسري

أهم شيء داخل الأسرة هي علاقة المحبة، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [سورة الروم: الآية ٢١]، فيجب أن تسود الحياة العائلية المودة والرحمة، وليست هناك علاقة أوثق للإنسان من علاقته بعائلته، ومن علاقة الزوج بزوجته، والقرآن الكريم يعبر عنها بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ فكما أن اللباس ملتصق بجسد الإنسان، وساترٌ وزينة له، فإن العلاقة الزوجية تخلق هذه الحالة بين الرجل والمرأة، ولذلك ينبغي أن تكون العلاقة داخل العائلة، بين الزوجين ومع الأولاد علاقة مودة ورحمة.

والسؤال: هل تُحقق العلاقة الزوجية اليوم هذا المستوى من المودة

(١) جريدة الرياض. الصادرة بتاريخ الاثنين ٢٤ ذي الحجة ١٤٢٩ هـ - ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٨ م - العدد ١٤٧٩١.

والرحمة؟

في الحقيقة أصبحنا نسمع ونرى حالات من العنف الأسري، تُهدد الحالة العائلية بالتفكك والانحيار، فما يصنعه بعض الأزواج بزواجهم، وما تصنعه بعض الزوجات بالأولاد والأطفال، أو بتصرفاتها السيئة تجاه الزوج، يُنذر بخطرٍ كبير. وهذا يجعلنا في حاجة ماسّة إلى الحديث حول هذا الأمر، وتكوين اللجان والمراكز والمؤسسات، وبتث الوعي، وإصدار التشريعات والتقنيات التي تردع مثل هذه الممارسات، فالزوجة أمانة ولا يصح أن يُمارس تجاهها العنف، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «فأي رجل لطم امرأته لكمة، أمر الله عز وجل مالك خازن النيران فيلطمه على حرّ وجهه سبعين لكمة في نار جهنم»^(١). فلا يجوز للرجل أن يتعامل بالسوء مع زوجته، فإن الله يحاسبه على ذلك، وحتى لو صدر خطأ من الزوجة فعلى الزوج أن يستوعب الخطأ ويحتويه، وله في ذلك ثواب عظيم، ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من صبر على سوء خلق امرأته واحتسبه، أعطاه الله بكل مرة يصبر عليها من الثواب مثل ما أعطى أيوب على بلائه»^(٢).

وما افتخر رسول الله ﷺ بأنه خير الناس في شيء إلا بالرحمة لأهله حيث قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»^(٣).

فلا يصح للإنسان أن يؤذي زوجته، لا بالضرب، ولا بالزجر، ولا يجوز له أن يسبها، فكل ذلك حرام، وعلى الزوجة ألا تغضب زوجها، ولا تسيء إليه فإنها تكون مأثومة، وكما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان له امرأة تؤذيه لم يقبل الله صلاتها ولا حسنة من عملها حتى تعينه وترضيه وإن صامت الدهر وقامت وأعتقت الرقاب، وأنفقت الأموال في سبيل الله وكانت أول من يرد النار،

(١) مستدرك الوسائل. ج ١٤، ص ٢٥٠.

(٢) وسائل الشيعة. ج ٢٠، ص ١٦٤.

(٣) وسائل الشيعة. ج ٢٠، ص ١٧١.

ثم قال رسول الله ﷺ: وعلى الرجل مثل ذلك الوزر العذاب إذا كان لها مؤذياً ظالماً^(١). وعن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله ﷺ: ما حق المرأة على زوجها الذي إذا فعله كان محسناً؟ قال: يشبعها ويكسوها وإن جهلت غفر لها، وقال أبو عبد الله ﷺ: كانت امرأة عند أبي ﷺ تؤذيه فيغفر لها^(٢).

نحن بحاجة إلى نشر هذه الثقافة، في مقابل ثقافة التحدي التي تسود في بعض الأحيان بين الزوجين، خلافاً لأمر الله، يقول تعالى: ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٩]، ومع الأسف الشديد بدأت تظهر مثل هذه الظواهر والحالات، وعلى الإنسان أن يعرف الحدود ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٢٩]، لا تتعدَّ حدود الله، وقد تكررت في العلاقة الزوجية هذه الآية أكثر من مرة، وبعض الأزواج يرى نفسه وكأنه مسلط على زوجته، وعلى أموالها، وبعض النساء تتعب وتحمل عمل البيت وتربية الأبناء، قد تكون موظفة أيضاً، ومع ذلك تجد الزوج لا يقدر هذا الدور لزوجته، ولا يريد أن أنحاز للمرأة، فبعض النساء تسيء لزوجها، ولا تقوم بالواجب تجاهه.

نحن بحاجة إلى المودة والرحمة ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، والأسرة يجب أن تسودها حالة الألفة والمحبة بين الأب وأولاده، بين الزوج وزوجته، وإذا تربى الولد في بيت كله حب وعطف وحنان سيكون أقرب إلى الاستقامة، بينما من يتربى في بيت تعصف به الخلافات والشقاق والعنف والقسوة، فإن الولد ينشأ وكأنه مشروع إجرام، يصبح مهياً لممارسة الإجرام.

ومن الأشياء الهامة التي يجب أن نتأملها في سيرة نبينا محمد ﷺ مع أسرته وعائلته، حالة المحبة التي تسود تلك الأسرة، ونتعلم منها، وكذلك كان أهل البيت في علاقاتهم مع أسرهم وأبنائهم، كانوا يحبون أبناءهم، ويحترمون زوجاتهم،

(١) بحار الأنوار. ج ٧٣، ص ٣٦٣.

(٢) الكافي. ج ٥، ص ٥١١.

وخاصة حينما يكون الابن في مستوى عالٍ من الأخلاق والالتزام.

وتحدثنا السيرة الحسينية عن أروع صور المحبة التي كانت تتجلى في حبّ الحسين لولده علي الأكبر، وفي تفاني علي الأكبر في حب أبيه الحسين، حيث كان من أشدّ المواقف ألماً وحرزاً على قلب الحسين استئذان ولده علي الأكبر للخروج إلى المعركة، تقول الروايات: إنه أرخى عينيه بالدموع ورفع طرف إلى السماء قائلاً: اللهم اشهد فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك ﷺ وكنا إذا اشتقنا إلى نبيك نظرنا إليه.

وحين وقف الحسين على مصرع ولده علي الأكبر تحدث من أعماق قلبه قائلاً: قتل الله قومًا قتلوك، يا بني! ما أجرأهم على الله، وعلى انتهاك حرمة رسول الله، على الدنيا بعدك العفا.

رسالة عاشوراء

- فلسفة الشهادة
- لماذا قتل الحسين؟
- في مواجهة خطر الطائفية

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٦٩]

□ فلسفة الشهادة

أعزّ ما على الإنسان في هذه الحياة، روحه التي بين جنبيه، لذلك فهو يحافظ على حياته، ويبعد أي أذى عن نفسه. والإنسان المؤمن أشدّ حفظاً، وحمايةً لحياته وروحه من غير المؤمن؛ ذلك لأن إيمانه يحمله مسؤولية الحفاظ على حياته وروحه، فهي أمانة عنده، ولا يجوز له شرعاً أن يفرط في هذه الأمانة، ولهذا حرّم الانتحار، وإلقاء النفس في التهلكة. كما أن الحياة لها حرمتها، وقدسيتها، ومكانتها في الإسلام، وحالات الاستهتار بالحياة، إنما تحصل عند من لا يعي، ولا يتعقل روح الإسلام، ولا يفهمه فهماً صحيحاً. في حين يفترض في المسلم أن يحافظ على حياته، ويسلك مختلف الطرق من أجل تحقيق ذلك، فواجب عليه حمايتها شرعاً، ولا يصح له أن يقصّر في وسائل حماية حياته، وحفظ روحه.

أما إذا كانت هناك غاية أهمّ وهدف أسمى وهي خدمة القيم، والحفاظ على المبادئ المقدسة السامية، فهنا تكون المعادلة مختلفة، وهذا يطلق عليه عنوان (في سبيل الله). فحينما تكون المسألة (في سبيل الله)، وتكون قيم الحق معرّضة للخطر، وتحتاج إلى الدفاع، والفداء والتضحية، فإن المعادلة تنقلب عند الإنسان المؤمن، فبعد أن كان يحافظ على حياته ويحمي نفسه، تراه مندفعاً، ومبادراً للدفاع عن هذه المبادئ والقيم، وإذا ما أصيب في معركته من أجل المبادئ والقيم، يطلق عليه الدين مصطلحاً عظيماً هو مصطلح (شهيد).

والشهادة من الشهود، ويعني: الحضور، فهو حاضر وليس غائباً، وهو شاهد على ساحته، وعلى مجتمعه وعصره. وقد ورد في فضل الشهادة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فوق كل برٍّ حتى يُقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قُتل في سبيل الله عز وجل فليس فوقه برٌّ»^(١).

وربما يتصور الناس أن الذي يُقتل في سبيل الله خسر الحياة، وانتهت حياته، إلا أن الآية الكريمة تطرح مفهوماً آخر، وهو أن الشهيد بشهادته بدأ حياته الحقيقية، فهو قد كسب الحياة ولم يخسرها، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرزَقُونَ﴾، إنهم أحياء عند الله في الحياة البرزخية، فرحين بما آتاهم الله من فضله، وهم أحياء في ضمائر الناس، وفي ذاكرة التاريخ، لأنهم قد ضحوا من أجل القيم، فيصبحون خالدين بخلود تلك القيم، التي ضحوا من أجلها.

وحيث إن الشهداء يتفاوتون في المكانة والمقام بتفاوت شخصياتهم، ومواقف التضحية التي وقفوها، لذلك فإن أبا عبد الله الحسين ﷺ سبط رسول الله ﷺ، وسيد شباب أهل الجنة، هو في الطليعة من الشهداء، وكما أطلق عليه الأديب المصري المعروف عباس محمود العقاد: عنوان (أبو الشهداء).

الشهادة الخالدة

وقضية الإمام الحسين ﷺ نموذج بارز لخلود الشهداء في سبيل الله، فمع مرور العصور والأجيال والأزمات، إلا أن قضية الحسين ﷺ تتجدد دائماً وأبداً.

لماذا الاهتمام بقضية الإمام الحسين ﷺ؟

وربما يكون هناك تساؤل: لماذا هذا الاهتمام المميز بعاشوراء وقضية الإمام الحسين ﷺ؟ رغم أن هناك حوادث كثيرة حصلت في التاريخ الإسلامي والإنساني؟ وكثيرون قد استشهدوا في سبيل الله، فهذا أبوه أمير المؤمنين علي بن

(١) وسائل الشيعة. ج ١٥ ص ١٧.

أبي طالب عليه السلام كان شهيداً في سبيل الله وفي محراب صلاته فلماذا هذا التميّز في قضية أبي عبد الله الحسين عليه السلام؟

نريد أن نسلط الأضواء على سرّ هذا الخلود، وسرّ هذا الاهتمام:

أولاً: العناية الإلهية

يمكننا أن نقول بكل ثقة إن هناك عناية إلهية خاصة بقضية أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وهذا ليس تحليلاً أو ادّعاءً، إنما هذا ما نلمسه من سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنها الحادثة الوحيدة التي اهتم بها رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبدى التألم والتفجع لها قبل وقوعها بنصف قرن، ولو تأمل كل مسلم في الأحاديث الواردة عن اهتمام رسول الله صلى الله عليه وآله بقضية شهادة سبطه أبي عبد الله الحسين عليه السلام، لأدرك هذه الحقيقة.

وهذه الأحاديث موجودة في مصادر المسلمين، فينبغي أن نقف عندها وقفة تأمل، فرسول الله صلى الله عليه وآله ليس إنساناً عادياً ينطلق من عاطفة محضة، وبهذه الطريقة التي لا يقوم بها الأشخاص العاديون من البشر، فالأشخاص العاديون يتألمون حينما يصاب وليد لهم وقت إصابته، أما قبل إصابته بخمسين سنة، هذا لم يحدث لأي إنسان من البشر، إلا أنه حصل من رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهي أحاديث أكّد العلماء صحتها سنداً، ومنها ما أورده الحاكم النيسابوري في كتابه المستدرک على الصحيحين بسنده: «عن أم الفضل بنت الحارث: أنها دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله، رأيت الليلة حلمًا منكراً، قال: «ما هو؟» قالت: إنه شديد، قال: «ما هو؟» قالت: رأيت كأن قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رأيت خيراً، تلد فاطمة غلاماً فيكون في حجرك». فولدت فاطمة عليها السلام الحسين عليه السلام وكان في حجري كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله، فدخلت يوماً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوضعت في حجره، ثم حانت مني التفاتة فإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وآله تهريقان من الدموع، قالت: فقلت: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، ما لك؟! قال: «أتاني جبرئيل عليه السلام فأخبرني أن أمتي ستقتل ابني هذا، فقلت:

هذا! فقال: نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء»^(١).

قال الحاكم النسيابوري: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ونقل هذا الحديث وصححه أيضاً الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وقال هذا سنده صحيح، وله شواهد عديدة، ثم ذكر من الشواهد، بسنده عن أم المؤمنين أم سلمة وعن أم المؤمنين عائشة قال دخل رسول الله ﷺ على أحدهما وقال لها: «لقد دخل عليّ البيت ملك لم يدخل عليّ فيها فقال لي: إن ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء»^(٢). وذكر الألباني شواهد أخرى أيضاً تؤكد صحة هذا الحديث.

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن عبد الله بن نجبي وكان صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «أنه سار مع علي رضي الله عنه وكان صاحب مطهرته فلما حاذى نينوى وهو منطلق إلى صفين فنادى علي رضي الله عنه: اصبر أبا عبد الله، اصبر أبا عبد الله بشط الفرات. قلت: وماذا؟ قال: دخلت علي النبي ﷺ ذات يوم وعينه تفيضان، قلت: يا نبي الله، أغضبك أحد، ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: بل قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات، قال: فقال هل لك إلى أن أشمك من تربته؟ قال: قلت: نعم، فمدّ يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عيني أن فاضتا»^(٣)، هذا ما ينقله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه رسول الله ﷺ.

وهناك عدد وفير من الروايات في مختلف كتب الحديث والتاريخ تنقل مثل هذا

(١) المستدرک علی الصحیحین. ج ٣، ص ١٩٤، حدیث ٤٨١٨.

(٢) محمد ناصر الدین الألبانی. سلسلة الأحاديث الصحيحة. ج ٢، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ، (بيروت: المكتب الإسلامي)، ص ٤٨٥، حدیث ٨٢٢.

(٣) أحمد بن حنبل. مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج ١، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ، (بيروت: عالم الكتب)، ص ٢٦٤، حدیث ٦٤٨.

المشهد عن رسول الله ﷺ، أنه يتحدث عمّا سيجري على سبطه الحسين، وييدي حزنه وتألمه لما سيقع عليه بعد أكثر من نصف قرن، حيث كانت ولادة الحسين في السنة الرابعة للهجرة أو الثالثة، وشهادته مطلع سنة إحدى وستين، حتى أصبحت القضية مشهورة معروفة في أوساط البيت النبوي، ومن حوله من الأصحاب، كما أورد الحاكم النيسابوري في المستدرک بسنده عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: ما كنا نشك وأهل البيت متوافرون أن الحسين بن علي يقتل بالطف^(١).

إن أكثر أمهات المؤمنين لاحظن هذا المشهد من رسول الله ﷺ، وكذلك عدد من الأصحاب، يقول الشوكاني في (دّر السحابة في مناقب القرابة والصحابة) بعد أن نقل بعض الأحاديث في الموضوع: (وأخرج نحو هذه الأحاديث (الطبراني) من حديث أم سلمة، وابن سعد من حديث عائشة، و(الطبراني) في (الكبير) من حديث زينب بنت جحش و(أحمد) و(أبو يعلى)، و(ابن سعد)، و(الطبراني) في (الكبير) من حديث علي، و(الطبراني) في (الكبير) أيضاً من حديث أبي أمامة، و(الطبراني) في (الكبير) من حديث أنس، و(الطبراني) في (الكبير) أيضاً من حديث أم سلمة وأبي سعد، و(الطبراني) في (الكبير) من حديث عائشة، و(ابن عساكر) من حديث زينب أم المؤمنين، و(ابن عساكر) من حديث أم الفضل بنت الحارث، زوج العباس. فكانت القضية معروفة وواضحة، فما هو تفسير بكاء رسول الله ﷺ وتحذره عن هذا الأمر أمام زوجاته وأصحابه، لحادثة لم تقع بعد، ثم ينقل لنا الاهتمام الإلهي بها؟ هذا دليل على أن المسألة ليست مسألة عادية، ودليل على أن رسول الله ﷺ يريد أن يلفت الأمة إلى أهمية هذه الحادثة، وأن لا يتعامل معها كأى حادثة أخرى.

وإذا أضفنا إلى ذلك ما ورد عن أئمة أهل البيت ﷺ من الاهتمام بهذه الحادثة بعد وقوعها، وهم أئمة عظام، يبجلهم كل المسلمين، ونحن الشيعة لنا معتقدنا

(١) المستدرک على الصحيحين. ج ٣، ص ١٩٧، حديث ٤٨٢٦.

الخاص فيهم كأئمة، فماذا نفعل إذا وجدنا هؤلاء الأئمة كلهم في حياتهم يتذكرون ما حصل للإمام الحسين عليه السلام؟ ويأمرون الناس أن يهتموا لهذه الحادثة، وألا يمروا عليها مروراً سريعاً؟ إن هذا سبب مهم من أسباب تخليد هذه الحادثة، والاهتمام بها.

ثانياً: عظمة شخصية الحسين

شخصية الإمام الحسين عليه السلام لم تكن شخصية عادية، ولا أحد من المسلمين ينكر مكانته، ومحبة رسول الله صلى الله عليه وآله البالغة له ولأخيه الإمام الحسن عليه السلام، وهناك أحاديث صحيحة وثابتة تروىها كتب المسلمين عامة، فقد ورد عنه عليه السلام أنه قال: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»^(١)، والأحاديث الواردة في فضل الإمام الحسين عليه السلام موجودة في كتب الفضائل من كتب الحديث من الصحاح والمسانيد، ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط»^(٢).

والأحاديث كثيرة ومتكررة وبصيغ مختلفة وفي مختلف المصادر الإسلامية، ولذلك كان الصحابة يجلسون للإمام الحسين. وورد أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يخطب على المنبر فدخل الإمام الحسين عليه السلام المسجد وكان صغيراً في السن حتى وصل إلى المنبر وصعد وخاطب الخليفة عمر قائلاً: انزل عن منبر أبي واصعد منبر أبيك، فقال: إن أبي لم يكن له منبر، قال الحسين عليه السلام: فأقعدني معه، فلما نزل ذهب بي إلى منزله فقال: أي بني، من علمك هذا؟ قلت: ما علمنيه أحد، فقال: أي بني! لو جعلت تأتينا وتعشاننا، قال: فجئت يوماً وهو خالٍ بمعاوية وابن عمر بالباب لم يؤذن له، فرجعت، فلقيني بعد فقال: يا بني! لم أرك أتيتنا؟ قلت: جئت وأنت خالٍ بمعاوية فرأيت ابن عمر رجع فرجعت، فقال: أنت أحق بالإذن من عبد الله بن

(١) المستدرک علی الصحیحین. ج ٣، ص ١٨٢، حدیث ٤٧٧٩.

(٢) المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ١٩٤، حدیث ٤٨٢٠.

عمر! إنما أنبت في رؤوسنا ما ترى الله ثم أنتم ووضعه يده على رأسه»^(١).

وهكذا بقية الصحابة، فعبد الله بن عباس - حبر الأمة - كان إذا خرج الحسن أو الحسين يسوي لهما الركاب ويقدم لهما الدابة، قيل له: أنت أسنّ منهما تمسك لهما بالركاب؟ فقال: يا لُكْعُ! وما تدري من هذان؟ هذان ابنا رسول الله ﷺ أو ليس مما أنعم الله عليّ به أن أمسك لهما وأسوي عليهما»^(٢). والصحابي أبو هريرة كان يشارك في تشييع جنازة امرأة فجئى بجنازة رجل فجعله بينه وبين المرأة فصلى عليهما، وأعيى الحسين ﷺ فقعد في الطريق، فجعل أبو هريرة ينفض التراب عن قدميه بطرف ثوبه، فقال الحسين ﷺ: أتفعل هذا؟! قال أبو هريرة: دعني منك، فوالله لو علم الناس منك ما أعلم لحملوك على رقابهم»^(٣).

فالحسين ﷺ ليس شخصية عادية، وحينما يتخذ موقفاً، لا بدّ وأن يكون محل اهتمام من كل المسلمين، ومن جميع الأجيال.

ثالثاً: أهداف الحركة الحسينية

ما هو الهدف في حركة الإمام الحسين ﷺ؟ أما كان في وسعه أن يسالم ويهادن ويبايع يزيد بن معاوية، حتى لا تحصل هذه الحادثة؟

أجاب العلماء والمحققون عن هذا السؤال: بأنه لم يكن بوسع الإمام الحسين ﷺ أن يفعل ذلك؛ لأن مسالمة يزيد ومبايعته كانت تعني الموافقة على انحراف خطير قد حصل في واقع الأمة، فكان لا بدّ وأن يسجل الحسين الاعتراض، وأن يأخذ موقفاً، حتى تعرف الأمة أن ما حدث يعتبر انحرافاً خطيراً، وممن كتب عن هذا الانحراف الخطير، الشيخ أبو الأعلى المودودي، العالم الإسلامي الكبير مؤسس الجماعة الإسلامية في باكستان، له كتب كثيرة منها كتيب صغير طبع في مصر

(١) كنز العمال ج ١٣ ص ٦٥٤، حديث ٣٧٦٦٢.

(٢) بحار الأنوار. ج ٤٣، ص ٣١٩.

(٣) ابن عساکر. ترجمة الإمام الحسين بن علي. ص ١٤٩، حديث ١٩١..

عنوانه (لماذا استشهد الإمام الحسين؟) في هذا الكتيب يقرر أن انحرافاً خطيراً قد حصل في واقع الأمة، فالخلافة الراشدة التي انتهت بمقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، بدأ بعدها الملك العضود، ومع مجيء يزيد بن معاوية كان هذا التحول الخطير قد أخذ مداها، فقد بدأ وكأنه يترسخ في واقع الأمة، بأن يأتي شخص ويحكم المسلمين دون رضا منهم، ودون موافقة، وإنما عبر التورث الذي لم يكن عند الخلفاء السابقين، وليس مقبولاً عند الأمة، ثم تفرض سلطته على الناس بالنار والحديد، وبعد ذلك فهو يتعامل في الأمة تعاملاً جائراً، ولا يلتزم بتعاليم الإسلام في العدل والتشاور وحرية الرأي واحترام قيم الأمة ومقدساتها، هذا انحراف خطير، لا يصح السكوت عنه، بل لا بد من تسجيل موقف تجاه هذا الانحراف، ومن أولى بأبي عبد الله الحسين عليه السلام من اتخاذ هذا الموقف، كما قال عليه السلام: «أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله» ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء، أحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحقّ من غيري»^(١).

وقد وطن الإمام الحسين عليه السلام نفسه على أن يضحى بها في سبيل الله، من أجل أن يسجل هذا الموقف الاعتراضي.

بالطبع فإن الإمام الحسين عليه السلام لم يتحرك من أجل الحرب والقتال، وقد تحدث مع الجيش الأموي أكثر من مرة قائلاً: «إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم، أن أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان

(١) تحف العقول، ص ٥٠٥.

الذي أقبلت منه إليكم»^(١). ولكنهم أصرّوا عليه، بأن لا مجال، إما أن تنزل على حكم يزيد بن معاوية، وتبايعه، أو نناجرك القتال، فهنا لم يجد الإمام الحسين عليه السلام بداً من أن يعانق الشهادة، ويضحى بنفسه في سبيل قيمه، وفي سبيل أن يوضح للأمة وللأجيال القادمة، إن هذا الانحراف الخطير ليس مقبولاً، ولا يصح السكوت عنه.

رابعاً: وحشية الجيش الأموي

إن أحد أسباب خلود هذه الحادثة هي الطريقة المأساوية التي قُتل بها الإمام الحسين عليه السلام، فهي لم تكن مجرد معركة يقتل فيها رجال من الطرفين، وإنما مارس جيش يزيد أفظع الأساليب للتمثيل والتنكيل والإيذاء بعثرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والخطاب الذي جاء من ابن زياد لابن سعد دليل على ذلك حيث كتب إليه أمراً له: «فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل حسين فأوط الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم»^(٢).

فالمسألة لم تكن مجرد قتل عادي. وبعد المعركة ما فعل بأسرة الحسين عليه السلام وعائلته من فظائع ومصائب، بحيث لا يمكن لمسلم أن يقرأ ما حصل على أهل البيت عليهم السلام في كربلاء، وأن يطّلع على تلك المأساة فلا يرق قلبه، ولا تنهمر دموعه، ولا يتألم ويتحسر ويبكي. ولذلك فإن البكاء على الإمام الحسين عليه السلام حينما تذكر حادثته أمر عفوي، وطبيعة وجدانية، لا يملك الإنسان سبيلاً لدفعه، إضافة إلى أن البكاء عليه كما ورد في روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام يعني الإسهام في تخليد هذه الحادثة، كي لا تُنسى، ولا يعتم عليها، ولا تُهمل في التاريخ، كسائر الحوادث.

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٣.

(٢) المصدر نفسه. ص ٣١٤.

□ لماذا قتل الحسين؟

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا حصل للإمام الحسين عليه السلام ما حصل؟ هل كان قدر الإمام الحسين عليه السلام مجهولاً عند الناس؟

إن السبب الوحيد هو الخذلان، فجميع من كتبوا للإمام الحسين عليه السلام سواءً من أهل العراق أو من الكوفة كلهم قد خذلوه، ولذلك صار يعاتبهم، «أفهلؤلاء تعضدون؟ وعنا تتخاذلون؟»^(١).

ويبدو أن حالة الخذلان في الأمة باتت مستمرة إلى زماننا هذا، فهذا الجرح النازف لإخواننا الفلسطينيين شاهد قائم، إذ كيف استطاع الصهاينة أن يقوموا بعدوانهم السافر على غزة لولا التخاذل والانقسام الذي حصل في الساحة الفلسطينية وساحة الأمة؟ هذا التخاذل هو الذي مكّن الصهاينة من أن يفعلوا ما فعلوا مما يندى له جبين كل مسلم. هؤلاء الذين يُقتلون من الفلسطينيين في غزة، أليسوا بشرًا ومسلمين وعربًا؟ أليسوا مظلومين؟ هذه وسائل الإعلام تنقل لنا الصور المؤلمة المفجعة، أمهات تُكلن بأبنائهن، وعوائل كاملة تغنى بسبب القصف على منازلهم، عائلة من ثلاثين شخصًا في منزل واحد هدم على رؤسهم. فأين المسلمون؟ أين العرب؟ أين الغيرة والشهامة؟ لماذا يرضى المسلمون أن يحلّ بجزءٍ منهم وبإخوة لهم يدافعون عن وجودهم وأرضهم ما حلّ من فظائع ومآسٍ؟

المشكلة تكمن في الانقسام والتخاذل، وهذا أهم خطر يواجه الأمة في هذا العصر، ويستفيد منه أعداء الأمة، فالانقسام والخلافات والتمزق الذي يحصل في الأمة، هو الذي يصنع الأرضية لهيمنة العدو.

كما أن حالة الانقسام والتخاذل في ساحة الأمة هو الذي مكّن الأمريكيين أن يغزو العراق ويحتلوها، وأن يفعلوا ما فعلوا في العراق، فالحكم الجائر السابق

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٨٣.

في العراق صنع انقسامًا في وسط الشعب العراقي، بين الأكراد والعرب، وبين السنة والشيعة، وقد استغلّ الأعداء ذلك لتحقيق مآربهم، وهم يريدون أن يستغلّوا أي خلاف، وأي تفرقة وانقسام في أي بلد من بلدان المسلمين، ولذلك فإن على الواعين في كل بلد ووطن، أن يحموا ويحفظوا وحدتهم، وألا يسمحوا للانقسام وللصراعات أن تنتشر وتتفشى فيما بينهم، حتى لا يستغلّها الأعداء، فهم يعزفون على وتر الطائفية، وإثارة الخلاف بين السنة والشيعة، حتى يشغلوا المسلمين عمّا يفعل الصهاينة، وعمّا تفعل الإدارة الأمريكية السيئة ضد الإسلام والمسلمين، يريدون أن يشغلونا بخلافات داخلية، يريدون أن يقنعوا السنة بأن العدو الرئيس لهم هم الشيعة، وأن يقنعوا الشيعة بأن الخطر الأكبر عليهم هم السنة، وأن يقنعوا العرب بأن إيران هي الخطر عليهم، وأن يوحوا إلى الإيرانيين بأن العرب هم التحدي أمامهم؛ لأن الأعداء لا يريدون لهذه الأمة أن تتماسك وتتوحد، من هنا علينا ألا نعين الأعداء على أنفسنا.

□ في مواجهة خطر الطائفية

إن الموضوع الطائفي هو أكبر خطر تواجهه الأمة، ولذلك نجد في هذه السنوات بين وقت وآخر تهبّ عاصفة من العواصف الطائفية، عبر بيان يصدر هنا، وبيان يصدر هناك، وموقف من هنا، وموقف من هناك، وإثارة في هذا البلد، وإثارة في تلك البلد، كل ذلك من أجل أن تُوقد نار الفتنة علينا، ولذا ينبغي أن نكون يقظين واعين.

إن خطر الطائفية يتجلى في مظهرين، وينبغي إذا أردنا أن نواجه هذا الخطر أن نقف أمام هذين المظهرين:

المظهر الأول: التمييز الطائفي

في أي بلد يتنوع فيه المواطنون بين سنة وشيعة، لا يصح ولا يجوز أبدًا أن

يكون هناك تمييز بين المواطنين، بسبب انتماءاتهم المذهبية، بل ينبغي أن يعيش الناس المساواة ضمن حقوق المواطنة، وضمن تعاليم الشرع الشريف، أما إذا كان هناك تمييز، وهناك عدم تكافؤ في الفرص، بأن تكون لجماعة مواقع ومناصب لا تتاح لجماعة أخرى، فهذا من التمييز الطائفي.

وكذلك إذا كانت هناك ضغوط ومضايقات على الشعائر والممارسات العبادية، فهذا من التمييز الطائفي؛ لأن من حق كل مسلم أن يتعبّد الله حسب قناعته ومذهبه.

وحينما يكون هناك تمييز فإن العدو ينفذ من خلال هذه الثغرة، وعلى الأمة في مختلف الأوطان، أن ترصد هذه الحالة وتواجهها.

وكما أننا على المستوى الوطني حينما لاحظنا حالات الفقر بدأنا نتحدث حول الفقر، وأن تكون هناك برامج ومشاريع لمعالجة حالات الفقر، وحينما لاحظنا أن هناك انتهاكات لحقوق الإنسان، بدأت تتكون هيئات ومؤسسات للدفاع عن حقوق الإنسان. وحينما لاحظنا أن هناك تشددًا وغلًا وتطرفًا، بدأ العمل والتحرك ضده. كذلك ينبغي ألا نسكت على التمييز الطائفي، وأن نرفض حالات التمييز الطائفي، وأن نبادر إلى معالجتها، والوقوف أمامها، أما إذا تنكرنا لها وتجاهلناها وسكتنا عنها، فإنها تمثل أرضية الانقسام والفتنة، وهي التي تمكّن الأعداء من النفوذ.

المظهر الثاني: التعبئة الطائفية

بأن يقوم الخطباء والدعاة في كل مذهب بالتعبئة ضد الطرف الآخر، وإصدار البيانات والفتاوى ضد بعضهم بعضًا. ومع الأسف الشديد، نلاحظ وكأن هناك سوقًا رائجة لمثل هذه الخطابات والفتاوى التي تؤلب وتؤجج في مختلف المجالات، وهذا يضرّ الوحدة الإسلامية، والوحدة الوطنية، ولا بدّ من الوقوف أمام مثل هذه الآراء وهذه الفتاوى، ولا يصح السكوت عنها، سواء صدرت من طرف سني، أو من طرف شيعي.

نجد أن قيادات الشيعة في مختلف مناطقهم يعلنون موقفاً واضحاً ضد الآثار والتعبئة الطائفية، فهذا أكبر مرجع للشيعة وهو السيد السيستاني، قد أصدر العديد من البيانات والخطابات التي تُعالج هذه القضية، وآخر حديث له أكد فيه على «حرمة دم كل مسلم سنياً كان أو شيعياً وحرمة عرضه وماله والتبرؤ من كل من يسفك دمًا حراماً أيًا كان صاحبه»^(١).

وفي إيران، أعلى موقع هو قائد الثورة الإسلامية السيد الخامنئي له تصريح مهم نشر في جريدة الرياض في الصفحة الأولى يقول فيه: «لو خيل للذين يتهمون إخوانهم السنة ويسئون إليهم بأنهم يخدمون طائفتهم من خلال ذلك فإنهم مخطئون لأن ما يقومون به سيشعل نار العداوة والبغضاء وأن ذلك لا يعتبر دفاعاً عن الشيعة بل عن الولايات المتحدة وإسرائيل»^(٢).

وقيادات الشيعة في لبنان، كالعلامة المرجع السيد فضل الله، والسيد حسن نصر الله، خطاباتهم وبياناتهم تدين أي إساءة، وأي تفرقة بين السنة والشيعة. كما أن علماء من السنة لهم كلام إيجابي وحدوي، ولا يرضون بهذه الفتنة، ولكن هناك من لا يزال يؤلب، ويؤجج الفتنة. وعلينا جميعاً أن نقف أمام هذه الحالات؛ لأنها تضرنا جميعاً.

فالتخاذل والانقسام هو الذي يقف وراء مآسينا في التاريخ السابق والواقع المعاصر. فحينما يتخاذل المسلمون عن بعضهم بعضاً، ولا يقومون بواجب النصر، وينشغلون بخلافاتهم الداخلية، فإن النتائج لن تكون أفضل مما هي عليه اليوم.

من كان يتصور أن يحصل في كربلاء لأبي عبد الله الحسين عليه السلام ما حصل وجرى رغم عظمة الهدف الذي تحرك من أجله الإمام الحسين عليه السلام؟

(١) موقع السيد السيستاني www.sistani.org.

(٢) جريدة الرياض الصادرة بتاريخ ٢١ ذو الحجة ١٤٢٩ هـ العدد ١٤٧٨٨.

وعلينا جميعاً أن نضع هذا الهدف نصب أعيننا في كل عام حينما نحيي هذه الذكرى العظيمة، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»^(١).

علينا أن نتحمل مسئوليتنا تجاه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يصح لنا أن نسكت عن المنكرات وهي تنفسي في مجتمعاتنا، وهي تفترس أبناءنا وشبابنا، نحن الآن نواجه المنكرات الفادحة مثل المخدرات، التي بدأت تتسلل وتنتشر من أجل قتل شبابنا، وإفسادهم، فعلينا أن نتعاون للوقوف أمامها، فالمخدرات ليست مجرد معصية، وإنما هي شقاء وإنهاء لحياة الإنسان حينما يتورط فيها، الذين ابتلوا وأصبحوا مدمني مخدرات، يجب التعامل معهم كمرضى، يتعاون الجميع من أجل علاجهم وإنقاذهم، فلا ينبغي لنا أن نغفل عن هذه المسألة، فالأب عليه أن لا يغفل عن أبنائه، والمؤسسات الاجتماعية ينبغي أن تهتم بهذا الموضوع.

وكذلك الحال فيما يرتبط بالأمر بالمنكر الأخرى، كانت هناك مبادرة طيبة من ثلة من الشباب المؤمنين في القطيف، مع بعض العلماء والدعاة، ذهبوا إلى بعض الأسواق التي كانت تباع فيها سيديات وأشياء إباحية، واستطاعوا أن يضعوا لها حد، وهذا ما يجب أن يكون دائماً وأبداً، فلا يصح أن نسمح بأن تتداول هذه السموم بين أبنائنا، علينا أن نهبّ ضد المنكر، وأن ننشر المعروف، فهذا هدف أبي عبد الله الحسين عليه السلام الذي لم يتحرك من أجل مصلحة شخصية، ولا من أجل الحصول على سلطة ومنصب، وخطاباته يوم عاشوراء دليل واضح على ذلك.

وإذ تحضرون هذه المجالس لإحياء هذه المناسبة، عليكم جميعاً أن تتمثلوا هذا الهدف العظيم في حياتكم، نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لإحيائها عاماً بعد عام، في أمن وأمان، وأن يجعلنا من المستفيدين من هذه المناسبة بما ينعكس على إيماننا

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٢٩.

وديننا وسلوكنا ووحدتنا.

ولا بدّ لنا في هذه المجالس أن نستحضر مواقف الصمود والثبات التي وقفها أبو عبد الله الحسين عليه السلام، غير عابئ بحشود الجيش الأموي، ولا متردد في تقديم الضحايا والقرايين من أصحابه وأهل بيته، وقد عبّر عن موقفه العظيم بقوله: «ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة! يا بئى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإني زاحف بهذه الأسيرة مع قلة العدد وخذلة الناصر»^(١).

(١) السيد ابن طاووس. اللهوف في قتلى الطفوف، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، (قم: أنوار الهدى)، ص ٥٩.

الجماعات الشبابية والدور المطلوب

- دور الأصدقاء في حياة الإنسان
- اختيار ثلة الأقران
- الانفتاح على الجماعات الشبابية

﴿ وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا
وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ
فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٣]

□ دور الأصدقاء في حياة الإنسان

تتعدد أنواع ارتباط الإنسان مع من حوله، فهناك ارتباطٌ عفوي طبيعي كارتباطه بعائلته وأسرته، وجيرانه، وبزملائه في العمل.

وهناك ارتباط مصلحي؛ فالإنسان له مصالح في حياته العملية فيرتبط بأناس في تجارته، وعمله، ونشاطه، وإدارة حياته.

وهناك ارتباط عاطفي، وهو ما يعبر عنه بالأصدقاء، وهم الذين ينجذب إليهم الإنسان ويرتاح للعلاقة معهم، وقد تكون علاقته مع أصدقائه أكثر قرباً لنفسه من علاقته مع أسرته وأقربائه. وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «الصديق أقرب الأقارب»^(١)، فالارتباط النفسي العاطفي يختلف عن الارتباط الأسري والمصلحي وقد يحصل تداخل بين هذه الدوائر، فيكون الأصدقاء من الأقرباء أو ممن يتداخل معهم مصلحياً في مجال عمله ونشاطه المعيشي.

وعلماء النفس والاجتماع يتحدثون أن الأصدقاء لهم دور إيجابي كبير في حياة الإنسان، وأن من الضروري أن يكون للإنسان أصدقاء ينشد إليهم نفسياً وعاطفياً،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ج ١ ص ٣٦ حكمة ٧٢٥.

ويذكرون عدة فوائد:

الفائدة الأولى: في الإطار النفسي

فالأصدقاء وقيامة من المشاعر السلبية، ودعم للمشاعر الإيجابية في النفس، والإنسان الذي يعيش الوحدة والعزلة تنمو لديه في الغالب مشاعر سلبية، وحالة كآبة وقلق وسأم، وما أشبه من العقد والتوجهات غير السوية، بينما إذا كان عنده أصدقاء فهم يدعمون المشاعر الإيجابية في نفسه. ويذكر علماء النفس أن من أسباب ذلك إفصاح الإنسان عن ذاته، فالإنسان في داخل نفسه هموم ومشاكل وانطباعات، وإذا بقيت مكتومة في داخله تصبح عبئاً عليه، لذلك يحتاج إلى أن يتحدث عنها، ويفصح عن ذاته، وأن تكون هناك جماعة يعرفون مشاعره، ويعرضها عليهم، وقد لا تكون الأسرة والعائلة دائماً مجالاً مناسباً للإفصاح عن الذات، بل على العكس، فالكثير من الأولاد ذكوراً وإناثاً، لا يفصحون عمّا في نفوسهم لأهاليهم، في حين أن الأفضل أن تكون العلاقة بين الولد وأسرته علاقة شفافة، ومنفتحة، بحيث يتحدث لوأبيه عن كل شيء، إلا أن هذه الحالة المطلوبة لا تحصل غالباً، وقد يكون فارق السن بين الوالدين والأولاد سبباً لذلك.

ولهذا فإن مؤيدي الزواج المبكر يقولون إن من أهم فوائده ألا يكون هناك فارق سن كبير بين الإنسان وبين أبنائه؛ لأن فارق السن في بعض الأحيان يصبح حاجزاً وحاجباً عن الانفتاح، وتكون هناك هيبة كبيرة، أو فروق واسعة في نمط التفكير بسبب سعة الفاصل الزمني، مما يوجد مانعاً من أن يفتح الأبناء على الوالدين، وكلما كان الحاجز أكبر أصبح سبباً لمشاكل تربوية كثيرة عند الأبناء، فكثير منهم يواجهون في حياتهم مشاكل ويريدون حلاً ومعالجة لها، فلا يجدون مجالاً للانفتاح مع أهاليهم، لحياء، أو خشية من ردود الفعل، يستحي الابن من أبيه، أو يخاف من ردود فعله إن أخبره بما حصل له، وكذلك الفتاة تخشى أن تشرح لأهلها ما قد يحصل لها، وهذا من القضايا الخطيرة في مجال التربية والعلاقة مع الأولاد.

ولأن الإنسان من الناحية النفسية يحتاج إلى أن يفصح عن ذاته، وقد لا يجد مثل هذه الفرصة مع أهله، فتكون متاحة له مع أصدقائه، لذلك فإن أكثر أسرار الإنسان تجدها عند أصدقائه، يعرفون عنه كيف يفكر؟ وكيف يعيش؟ وكيف يفصح عن ذاته؟

الفائدة الثانية: تنمية المهارات

الإنسان عبر أصدقائه ينمي مهارات العلاقة مع الآخرين، والتعامل معهم، وبطبيعة الحال قد تحصل له مشاكل، فيتعلم من خلالها، تنمو عنده مهاراته الاجتماعية من خلال ذلك، وقد تنمو هواياته وميوله الفكرية والاجتماعية من خلال الأصدقاء، فكم من إنسان تذوق الشعر والأدب لمجالسته وصدافته مع أدباء، وكم من إنسان انخرط في نشاط استثماري اقتصادي بتأثير أجواء صداقاته، وهكذا سائر مجالات الخبرة والاهتمام.

الفائدة الثالثة: المساندة الاجتماعية

فالأصدقاء يساندون الإنسان اجتماعياً في أزماته ومشاكله واحتياجاته، ويدعمونه نفسياً ويقفون إلى جانبه عملياً، وهذا من فوائد محيط الأصدقاء حول الإنسان.

إن وجود الأصدقاء أمر مطلوب ومرغوب، وخاصة في مرحلة الشباب، فالشباب والشابة في حاجة إلى أن يكون لهم أصدقاء، إذ إن حالة العزلة والوحدة، حالة ضارة وغير سوية. ولهذا وردت النصوص الدينية التي تشجع الإنسان على أن يكون له أصدقاء، فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام «من لا صديق له لا ذخر له»^(١)، وورد عنه عليه السلام: «أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم»^(٢)، وجاء في وصية لقمان لابنه: اتخذ ألف صديق وألف

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ج ٢، ص ٢١٢، حكمة ١١٠٦.

(٢) نهج البلاغة. ص ٤٧٠، حكمة ١٢.

قليل، ولا تتخذ عدواً واحداً والواحد كثير»^(١).

بعض العوائل والأسر قد ينزعجون حينما يرون لولداهم أصدقاء، أو لا بنتهم صديقات، وهذا خطأ، فوجود الأصدقاء مع الأبناء والبنات أمر إيجابي ومحيد.

□ اختيار ثلثة الأقران

الأصدقاء يؤثرون على الإنسان وقد يتأثر بهم، أكثر مما يتأثر بعائلته، وخاصة في مرحلة الشباب، والبحوث الاجتماعية تشير إلى أن غالب توجهات الشباب تكون من وحي ثلثة الأقران التي يكونون فيها، أو حسب تعبيرنا الشعبي (الشلثة)، ورد عن النبي ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»^(٢).

يتأثر الإنسان بالأصدقاء من حوله في سلوكه وأفكاره وتوجهاته، وفي بعض الأحيان ينساق الإنسان ليرى نفسه وسط ثلثة معينة، لم يفكر جيداً في اختيارها، وسبب ذلك وجود مجاميع تريد أن تجتذب أفراداً وتستقطبهم، فيشتغلون على الشاب حتى يستقطبونه إلى ثلثهم.

إن على الإنسان أن يختار الثلثة التي ينتمي إليها، وإذا كان في وسط ثلثة رآها غير صالحة فعليه أن يقرر ترك هذه الثلثة، فهذا هو الأفضل لمستقبله وحياته؛ لأن الإنسان إذا كان في ثلثة سيئة وفاسدة، فمسار حياته سيكون فاسداً، وهذا ما حذرت منه النصوص الدينية، ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «الوحدة خير من قرين السوء»^(٣)، ويتحدث القرآن الكريم عن ندم بعض الناس في يوم القيامة الذين يكون مصيرهم أسوداً، بسبب قرناء السوء، يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ

(١) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ١٧.

(٢) مستدرک الوسائل ج ٨ ص ٣٢٧.

(٣) بحار الأنوار ج ٧١ ص ١٩٩.

الدِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿[سورة الفرقان، الآيات: ٢٧-٢٩]. وفي آية أخرى يتمنى الإنسان لو أنه كان بعيداً كل البعد عَمَّنْ كان قريباً منهم من أصدقاء السوء، يقول تعالى: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٨]، فإذا تورط الإنسان في ثلة فاسدة يكون مصيره ومستقبله إلى الشقاء في الدنيا والآخرة، ونجد كيف أن بعض الشباب وبعض الفتيات يكون مصيرهم سيئاً بواسطة الثلة الفاسدة، كم من إنسان كان صالحاً وجيداً، ولكنه ارتبط بمجموعة فاسدة، وشيئاً فشيئاً فقد صلاحه، وسار في خط الفساد. وفي بعض الأحيان يمضي الإنسان نفسه، بأنه لن يتأثر بهم، ولكنه ما يلبث أن يكون جزءاً منهم ومتأثراً بهم. فعلى الإنسان أن يتعد عن الشلل الفاسدة.

وهناك ثلة حتى لو لم تكن فاسدة إلا أنها تضيّع أوقات الإنسان، كبعض جلساء الديوانيات، فهؤلاء ليسوا سيئين بل يقضون أوقاتهم في المرح والأكل والمزاح، وهذا وإن كان أفضل من الثلة الفاسدة، لكنه مضيعة للوقت والجهد، ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من لم تنتفع بدينه أو دنياه فلا خير لك في مجالسته»^(١).

وهناك الثلة الصالحة التي يستفيد الإنسان من الانتماء إليها، وتكسبه فوائد في دنياه أو دينه، وهذا هو المطلوب. ولا يعني ذلك ألا يكون هناك مجال للترفيه، فالترفيه عن النفس أمر مطلوب، وما نقصده التوجه العام للثلة أو للمجموعة، أن يكون توجهاً صالحاً ومفيداً. وعلى الإنسان أن يفتش عن مثل هذه الثلة، وينتمي إليها، وخاصة بالنسبة إلى الشباب والشابات، يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٩]. فكونك مع الصادقين والأشخاص الصالحين يُتيح لك فرصة الاستفادة منهم، ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه

(١) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ٤٩.

قال: «أسعد الناس من خالط كرام الناس»^(١)، وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «خير إخوانك من سارع إلى الخير وجذبك إليه وأمرك بالبر وأعانك عليه»^(٢).

وهنا نشير إلى أنه في بعض الأحيان تكون الثلة التي ينتمي إليها الإنسان، حتى وإن لم تكن فاسدة، لكن طريقة تعامل وبرنامج هذه الثلة يكون على حساب مصلحة الإنسان، كالسهر إلى وقت متأخر من الليل على حساب الدراسة والعمل والأسرة، فينبغي توخي الاستفادة الإيجابية وتجنب السلبي منها. وهذا لا يتحقق إلا بامتلاك الشاب والشابة لوعي يؤهلها لذلك.

ومن اللافت للانتباه أن بعض الشباب ينساق وراء برامج الثلة التي ينتمي إليها دون أن يحسب حساباً لدوره الأسري، فتعيش زوجته وأولاده فراغاً كبيراً في غيابها، ليكونوا فريسة للتلفزيون والإنترنت وللشعور بالفراغ والجوع العاطفي، وتشكو بعض الزوجات من انشغال زوجها إلى وقت متأخر من الليل بالجلوس مع أصدقائه دون أن يحسب حساباً لحق زوجته، والاهتمام بأبنائه، وهذا خطأ كبير، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤكد أحقية الأسرة، بقوله: «وإن لأهلك عليك حقاً»^(٣) وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «جلوس المرء عند عياله أحب إلى الله تعالى من اعتكاف في مسجدي هذا»^(٤).

وعلى الزوجة أن تجتذب زوجها لها بحسن معاشرتها له، ليرى الزوج في جلوسه مع أسرته متعة لنفسه وراحة لقلبه مع أدائه للواجب الشرعي المسؤول عنه.

(١) بحار الأنوار ج ٧١ ص ١٨٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ص ٣٢٥ حكمة ٧٣.

(٣) سنن أبي داؤد ج ١ ص ٧٣٩ حديث ٢٤٣٢.

(٤) الحسيني، ورام بن فراس المالكي الأشتر. تنبيه الخواطر ونزهة المناظر، طبعة طهران ١٣٠٩ هـ، ج ٢، ص ١٢٢.

□ الانفتاح على جماعات الشباب

أكثر الشباب في هذا العصر يرتبطون بمجاميع، وبعضها تصدر منها تصرفات خاطئة وطائشة، بحيث أصبحت عندنا عصابات يثون برامج سلبية ضارة، لهم ولمجتمعهم، تضرهم في دينهم ودنياهم، هذه الجماعات المنحرفة تشكّل مصدر إزعاج وقلق على أمن المجتمع، فانتشار المخدرات وشياع حالات العنف والسرقة، ووجود تصرفات طائشة، وانتشار بعض الهويات الضارة، يكشف عن وجود من يغذيها، ومن يقف خلفها، فهي ليست أعمالاً فردية.

حدثني بعض الشباب ممن كانوا مبتلين بالمخدرات وإدمانها وعافاهم الله منها، كيف أن هذه المجاميع تتحرك وبشكل كبير في أوساط المجتمع، وأن لها برامج وأساليب للاستقطاب والاستغلال.

وهناك قسم كبير من الشباب يعيشون بلا انتماء أو في انتماءات عفوية طبيعية، من هنا فإنه يتوجب علينا أن نتحمل مسئوليتنا تجاه هذا الواقع.

أولاً: الدور العائلي

فعلى العائلة أن تنظر في علاقات أبنائها وبناتها، وأن تضع هذا الجانب في أهم أولوياتها، ويبادر الأب والأم لتوجيه الأولاد وإرشادهم والحديث معهم لفهمهم. فإن طريق الانحراف يبدأ بسبب انشغال العائلة عن أولادها، وعدم الاهتمام بتفاصيل حياتهم.

ثانياً: دور المجتمع

كما أن على المجتمع أن يهتم بالمجاميع الشبابية، وأن تكون لدينا مؤسسات مهتمة باستقطاب الشباب. وأن نشجع تكوين الجماعات الشبابية في الاتجاه الإيجابي، لما نلمسه من وجود عراقيل وعوائق في مجال إنشاء تجمعات إيجابية، فالحكومات لا تفتح مجالاً لتكوين مؤسسات المجتمع المدني.

يجب أن تتاح للشباب فرصة إنشاء مؤسسات إيجابية، لكي لا يكونوا فريسة وطعماً للتوجهات السيئة الفاسدة.

واعتقد أننا نعاني من هذه المشكلة في منطقتنا؛ لأن القنوات الإيجابية ليست مناسبة ومفتوحة أمام الشباب، أما الذين يتجهون الاتجاه الآخر فهم لا ينتظرون رخصة ولا إذناً، فيسيرون في اتجاهاتهم، لكن الاتجاهات الإيجابية تجد نفسها معنية بملاحظة الأنظمة والقوانين، ولذلك تُعاق حركتها.

على المجتمع أن يشجع الشباب على تكوين مثل هذه التجمعات، فالحالة الدينية في مجتمعنا - والحمد لله - أفضل من السابق، ففي الماضي كان الشباب المتدينون والصالحون يجدون عراقيل كثيرة أمام نشاطهم، وحين تكون الأبواب مؤسدة أمامهم فقد يتجهون باتجاه الفساد، الذي تكون أبوابه مفتوحة في الغالب.

فلنشجع الشباب أن ينشؤوا مختلف اللجان والهيئات والتجمعات الإيجابية، التي يخدمون بها دينهم ومجتمعهم، وينمّون من خلالها مواهبهم وطاقاتهم، وكلما فتحنا المجال للتوجهات الإيجابية، قلّصنا مساحة التوجهات السلبية، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، علينا أن ندعم الشباب في توجهاتهم الإيجابية في مختلف المجالات، ونفق على مشاريعهم من الحقوق الشرعية، والأوقاف والتبرعات، فكلما دعمناهم وشجعناهم؛ استقطبنا الشباب بالاتجاه الصالح، وهذا هو المطلوب من المجتمع.

ومن النماذج المشرقة في تاريخنا المعاصر المرجع الراحل السيد محمد الشيرازي رحمه الله الذي كان من ميزاته أنه يشجع الشباب على عمل اللجان والهيئات. وحين يزوره شاب يسأله: ماذا تدرس؟ ماذا تعمل؟ هل أنت عضو في لجنة؟ ثم يوجهه: لماذا لا تعمل لجنة أو موكباً؟ لماذا لا تؤسس هيئة لطباعة الكتب، أو لنشر المعارف، أو للتبليغ والإرشاد، أو لحماية البيئة؟ فلا يخرج الشاب من عنده إلا وهو متحفّز لنشاط إيجابي يخدم به نفسه ومجتمعه.

مهم جداً أن نشجع الشباب على أن تكون لهم تجمعات إيجابية؛ لأن الشباب لديهم طاقة فائضة، وينبغي أن نفتح لهم القنوات التي من خلالها يُصَرِّفون هذه الطاقة.

بالأمس زرت موكباً حسينياً في مدينة سيهات، ورأيت نشاطاً ضخماً جداً، حيث كان الشباب يعملون لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر، في مختلف المجالات، في النحت والخط والتصوير والمسرح، وفي المجالات المختلفة، فلو لم يكن لهم هذا الأفق الذي يصرفون فيه طاقاتهم في الاتجاه الإيجابي، فيما أن تتجمد هذه الطاقات التي عندهم، أو لا سمح الله تذهب في الاتجاه السلبي.

فلماذا لا نشجع الشباب ذكوراً وإناثاً، ونفتح أمامهم الآفاق.

وقد دعيت من قبل بعض الأخوات لافتتاح معرض للفن التشكيلي، فرأيت نشاطاً جيداً، فتيات يرسمن ويكتبن ولديهن خيال خصب، ومستوى فني جيد، فعلينا أن نشجعهن وندفعهن بهذا الاتجاه، حتى يفجّرن طاقتهن في الاتجاه الإيجابي.

نظرة الاحترام والإصلاح للشباب

كما أن علينا أن نرصد الجماعات والشلل التي قد تكون لنا ملاحظات عليها، إما سيئة أو أنها في طريقها إلى أن تكون سيئة، علينا أن لا ننظر إليها نظرة انتقام، فهذا خطأ كبير، بل علينا أن ننظر لهم نظرة عطف وشفقة، وفي هذا المجال ينقل عن معروف الكرخي أنه كان على الشاطئ وقد كان زاهداً عابداً فرأى مجموعة من الشباب على قارب صغير يغنون ويرقصون، فرفع يديه بالدعاء إلى السماء قائلاً: «اللهم اجعل أنسهم في الآخرة أعظم من أنسهم في الدنيا»، قالوا له: كيف تدعو لهم بهذا الدعاء؟ قال: وما يزعجكم من دعائي؟ فهو يستبطن أنهم يصبحون صالحين، ويؤنسهم الله تعالى برحمته.

علينا ألا ننظر إلى هذه الجماعات من الشباب منذ البداية نظرة ازدراء وانتقام،

قبل أن نؤدي واجبنا نحوهم، فنحن مسؤولون عنهم، إذ حينما نرى شباباً فاسدين منحرفين، علينا أن نراجع أنفسنا، فنحن قد قصرنا تجاههم وتركناهم لينحرفوا ولم نقم بواجبنا تجاههم، ولذا انساقوا إلى هذا الطريق، ولو أننا قمنا بواجبنا وأدينا ما علينا لما انحرف هؤلاء الأبناء والشباب، فكل واحد منا عليه أن يسأل نفسه: هل قمت بالواجب تجاه هذه المجاميع الشبابية؟

إن مجتمعنا مجتمع شاب، فأكثر من ٦٠٪ من أبناء المجتمع من الشباب، وما عليك سوى أن تقف أمام المدارس الثانوية عند انتهاء وقت الدراسة، لكي ترى هذه الجموع الغفيرة التي تخرج من مدارسها، فإلى أين يذهب هؤلاء؟ ومن يفكر فيهم ويحتضنهم؟ ومن يرعاهم ويوجههم؟

نحن نلومهم فقط وننظر إليهم نظرة شذراء، وهذا لا يحل المشكلة، علينا أن نتحمل الواجب تجاههم، وأن نفكر في الانفتاح عليهم، فبعض هذه المجاميع لديهم شهامة، يريدون أن يخدموا ويثبتوا وجودهم، إلا أنه لم يلتفت إليهم أحد.

وهنا أورد قصة جاءت في سيرة الإمام جعفر الصادق عليه السلام حول أحد أصحابه وهو المفضل بن عمر وكان في الكوفة، وقد كتب عدة من أهل الكوفة، ومنهم زرارة، وعبدالله بن بكير، ومحمد بن مسلم، وأبو بصير، وحجر بن زائدة، رسالة إلى الإمام الصادق عليه السلام يذكرون فيها أن المفضل بن عمر يجالس الشطار وأصحاب الحمام، وقوماً يشربون الشراب، فينبغي أن تكتب إليه وتأمره ألا يجالسهم. فكتب إلى المفضل كتاباً وختمه ودفعه إليهم، وأمرهم أن يدفعوا الكتاب من أيديهم إلى يد المفضل، فجاءوا بالكتاب إلى المفضل ففكه وقرأه، فإذا بالإمام يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، اشتر كذا وكذا، واشتر كذا» ولم يذكر فيه قليلاً ولا كثيراً مما قالوا فيه، فلما قرأ الكتاب دفعه إلى زرارة، حتى دار الكتاب على الكل، فقال المفضل: ما تقولون؟ قالوا: هذا مال عظيم، حتى ننظر ونجمع ونحمل إليك ثم لم ندرك ألا نزال بعد نظر ذلك، وأرادوا الانصراف. فقال المفضل: تغدوا عندي،

فأجلسهم لغدائه، ووجه المفضل إلى أصحابه من الشباب الذين سعوا بهم من الشطّار وأصحاب الحمام، فجاؤوا وقرأ عليهم كتاب أبي عبد الله ﷺ فرجعوا من عنده وجلس هؤلاء ليتغدوا، فرجع الفتیان، وحمل كل واحد منهم على قدر قوته ألفا وألفين وأقل وأكثر، فحضروا وأحضروا ألفي دينار وعشرة آلاف درهم قبل أن يفرغ هؤلاء من الغداء، فقال لهم المفضل: أتأمروني أن أطردهؤلاء من عندي، تظنون أن الله تعالى محتاج إلى صلاتكم وصومكم»^(١).

فالمسألة ليست مسألة صلاة وصوم فقط، إن المجتمع يحتاج إلى أناس لديهم روحية عمل، وهمة وإقدام وجرأة وشجاعة، ومجاميع الشباب رغم تصرفاتهم السلبية إلا أن أكثرهم لديه همّة وأريحية وشهامة، ويمكن أن نستقطبهم ونصلحهم ونستفيد منهم لمصلحة الدين والمجتمع، علينا أن نتجه إليهم، نحن نادراً ما نستقبل من يأتي إلينا في مساجدنا وحسينياتنا ومجالسنا، ومناسبة عاشوراء فرصة سانحة للانفتاح على الشباب؛ فعلينا أن ندفعهم للمشاركة في المجالس والمواكب، لكي يستثمروا طاقتهم في الطريق السليم.

ومن علمائنا الذين كان لهم دور في استقطاب الشباب السيد عبد الحسين شرف الدين، فحينما بدأ عمله في لبنان، اهتم بالشباب الرياضيين في الأندية والمقاهي، فقبل له: هذا لا يليق بمقامك! فقال كلمته المشهورة: «لا ينتشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال».

وينقل عن نبي الله عيسى بن مريم «على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام» أنه كان مع حواريه باتجاه فلسطين وكانت هناك قرية ليست من الصالحين، بينما منطقة الناصرة في فلسطين هي التي كانت المجتمع المتدين الصالح من أتباعه، وإذا بالنبي عيسى يسير باتجاه طريق القرية الفاسدة، قالوا له: يا رسول الله، هنا

(١) محمد بن عمر بن عبدالعزيز الكشي. رجال الكشي (كربلاء: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص

أتباعك، هنا الصالحون، قال: أولئك خلصنا منهم، هؤلاء أخرج إلينا من أولئك. ومع الأسف، فالشباب المتدين يعاني كثيراً من الانغلاق، وعدم الانفتاح، واستقطاب عناصر جديدة، فتجد مساجدنا ومجالس العلماء في الغالب ترتادها نفس الوجوه، وهذا يدل على ضعف القدرة على الاستقطاب وال جذب، بل في بعض الأحيان إذا كان أحدهم بعيداً عن الأجواء الدينية وجاء للمسجد أو الحسينية فإن العيون تلتهمه من الاستغراب،

و خلاصة الحديث، أن وجود الأصدقاء للإنسان مسألة مهمة، وينبغي أن نهتم بها على مستوى أبنائنا، وعلى المستوى الاجتماعي العام، والقرآن الكريم يخصص سورة في القرآن الكريم باسم سورة الزمر، والزمر تعني المجموعات ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [سورة الزمر: الآية ٧١]، ثم يتحدث عن المؤمنين ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ أي مجاميع وجماعات ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، وهذا دليل على أن الإنسان كما في الحياة الدنيا عنده ثلة وأقران، فإنهم قرناؤه في الآخرة أيضاً، وبعد الحساب، تواجه المجاميع مصيرها المشترك.

وسياتي الحسين يوم القيامة وحوله أصحابه الذين نالوا شرف نصرته يوم كربلاء، إنهم كانوا خير أهل الأرض في عصرهم، ووقفوا مع أبي عبد الله الحسين تلك الوقفة البطولية الصادقة، لم يربحهم القتل، ولم يكثر ثوا الضخامة حشود الجيش الأموي، بل تسابقوا إلى الشهادة بشغف وشوق، عن قناعة منهم بمآل السعادة الذي ينتظرهم.

المبتعثون للدراسة . . طموح التنمية والتقدم

- الهجرة للعلم ظاهرة إنسانية عالمية
- بالكفاءات تبني الأوطان
- إنجاح برنامج الابتعاث

”ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١).“

□ الهجرة للعلم ظاهرة إنسانية عالمية

الإنسان حين يدرك أهمية العلم وقيّمته فإنه يفتش عنه في كل مكان، على المستوى الفردي، وعلى مستوى الأمم والمجتمعات، وقد شاءت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون العلم مبعوثاً في مختلف المجتمعات، والشرائح الإنسانية؛ لأن العلم منتج للعقل والإدراك، وقد منح الله تعالى الإنسان هذه القدرة في مختلف أعراقه وقومياته ومجتمعاته وأوطانه، لذا قد يكون هناك علم في بلد لا يتوفر في بلد آخر، أو يكون في مستوى أعمق وأرفع.

كذلك فإن دورة الحضارة في التاريخ البشري تنتقل من مكان إلى آخر، تكون الحضارة عند أمة من الأمم في مستوى متقدم، لكن أمة أخرى قد تتفوق عليها فيما بعد، وهذه طبيعة الحياة وستتها، يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٠].

هناك حضارات كانت سائدة لكنها بادت أو تراجعت بعد تقدمها، وبرزت حضارات جديدة في تاريخ البشر، من هنا فإن أبناء البشر يستفيدون من بعضهم بعضاً، حينما يتجهون إلى قيمة العلم والمعرفة، لذا نجد أن رسول الله ﷺ يوجّه

(١) كنز العمال ج ١٠، ص ١٣٨، حديث ٢٨٦٩٧.

المسلمين في ذلك الوقت قائلاً: «اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم».

الصين وهي المكان البعيد جدًّا عن الجزيرة العربية، يأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يطلبوا العلم ولو بالهجرة إليه، وواضح أن المقصود ليس العلم الديني؛ لأن العلم الديني مصدره ومنبعه في المدينة عند رسول الله ﷺ، ولكنه العلم بمعناه الشامل الواسع، فإن «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وهذا هو ما يفتي به علماء المسلمين، أن كل علم يحتاجه المسلمون في حياتهم فطلبه أيضًا واجب على الأمة، كما أن طلب العلوم الشرعية والسعي للاجتهد فيها، واجب على المجتمع والأمة، كذلك العلوم الأخرى التي تحتاج إليها الأمة، وتحتاج إليها المجتمعات الإسلامية، بنفس الدرجة أيضًا هي واجب كفائي، إذا قام به البعض سقط عن الكل، وإلا فالجميع مطالبون بذلك كما يقرر الفقهاء.

بعثات الغربيين إلى الشرق

وقد كان أبناء الغربيين والمجتمعات الأخرى يأتون لطلب العلم في بلاد المسلمين، يوم كان لواء الحضارة بيد المسلمين، كانوا يأتون للدراسة في قرطبة في جامعة القيروان، وفي بغداد ودمشق والكوفة والبصرة، من مختلف أنحاء العالم يدرسون في بلاد المسلمين، كما هو مسجّل في كتب التاريخ عن فضل الحضارة العربية الإسلامية، على تقدم العلوم في الغرب، حيث أشار باحثون ومستشرقون غربيون إلى أنهم كانوا يفخرون بالدراسة في بلاد العرب والمسلمين، كما نفخر الآن بالدراسة في بلادهم، فهذا تخرج في جامعة هارفارد في أمريكا، وذلك في جامعة أكسفورد في بريطانيا.

كان التحاق أبناء عليّة القوم في أوروبا بالمعاهد العربية الإسلامية أمراً مألوفاً في تلك العصور، وممن تلقوا العلوم في هذه المعاهد الملك الفونسو السادس، وفريدريك الثاني الذي أصبح إمبراطوراً لروما سنة ١٢١٥ م.

وجاء في ترجمة سلفستر الثاني (٩٤٠ - ١٠٠٣ م) البابا الذي تم انتخابه عام ٩٩٩م، حيث اعتبر أول بابا فرنسي في تاريخ الكنيسة، واشتهر بذكاء غير عادي في حياته، وكان من أبرز فلاسفة وعلماء الرياضيات في عصره. هذا الرجل رحل إلى إسبانيا وهو في السابعة والعشرين من عمره ودرس في المعاهد العربية في قرطبة وقطلونيا، وشغف بالعلوم العربية الإسلامية المزدهرة آنذاك، ويعود إليه الفضل في نقل الأرقام العربية إلى أوروبا التي كانت في ذلك الوقت من بين أهم الإنجازات والمقدمات الرئيسة للعلم في القرون الوسطى الأوروبية.

كما تنسب إليه بعض المصادر أيضاً إدخال الإسطرلاب إلى أوروبا^(١).

جاء في كتاب «الحضارة الأوروبية وسياسية واجتماعية وثقافية» لمؤلفيه أساتذة الفلسفة جيمس وستفال توسون وفرانكلين شارلز بام وفان لو ستراند: «في خلال قرنين نقل إلى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمي على التقريب. وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقيه... وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربية تتسرب إلى أوروبا الغربية في أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر.

ولم يكن تسربها من أثر الغزوات الصليبية كما يسبق إلى الخاطر، ولكنه جاء عن طريق صقلية إلى إيطاليا، ومن إسبانيا المحمدية إلى إسبانيا المسيحية ثم إلى فرنسا. وتسابق الرجال من ذوي العقول اليقظة إلى بلارمة وطليلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية، والعجيب أن معظم هؤلاء الرجال كانوا من الإنجليز^(٢).

حركة الابتعاث العلمي

ولانتشار مراكز العلم والمعرفة في العالم فإن هناك هجرة متبادلة لطلاب العلم

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج ١٣، ص ٥٩.

(٢) عباس محمود العقاد. أثر العرب في الحضارة الأوروبية، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٤١.

بين الدول المتقدمة، وحسب إحصائية اليونسكو سنة ٢٠٠٥م يوجد في العالم ما يقرب من ثلاثة ملايين طالب يدرسون خارج أوطانهم في مختلف بلدان العالم، حتى البلدان المتقدمة في بعض المجالات، أبنائها يذهبون للدراسة في بلدان أخرى توازيها في التقدم، أو قد تقل عنها بشكل عام، لكنها تمتاز بتخصص معين، أو ميزات مشجعة.

فالولايات المتحدة الأمريكية، وهي أقوى دولة في المجال العلمي والتكنولوجي، تستقطب ثلثي الطلاب الأجانب على مستوى العالم، لكن أمريكا نفسها لها ٤٦ ألف طالب يدرسون خارج أمريكا.

واليابان، هذه الدولة المتقدمة التي تضم ٥٠٠٠ جامعة و ٦٠٠٠ كلية، مع ذلك فإن ٦٥ ألف ياباني يدرسون خارج اليابان.

الصين، هذا العملاق الاقتصادي الكبير الذي يتوقع له مستقبل ضخم على مستوى العالم، فإن أكبر عدد طلاب يدرسون في الخارج هم من الصينيين، حيث ذكر تقرير لليونسكو عن الحراك الطلابي نشر عام ٢٠٠٩م أفاد أن الصين تقدمت الدول من حيث الابتعاث بـ ٤٢١ ألف طالب وطالبة، يليها الهند بـ ١٥٣٣٠٠ طالب وطالبة، ثم كوريا الجنوبية بـ ١٠٥٣٠٠ طالب وطالبة^(١).

فوائد أخرى للابتعاث

إن مختلف الأمم والمجتمعات التي تسعى لكسب المعرفة والعلم، تبعث أبنائها إلى المناطق التي تتوافر فيها المعارف والكفاءات، كما أن الهجرة في طلب العلم فائدتها لا تنحصر في تحصيل العلم، وإنما هي إضافة إلى ذلك وسيلة للتبادل الثقافي والحضاري، ومدّ جسور التواصل بين الحضارات والمجتمعات.

فالطلاب الذين يدرسون خارج بلادهم، ينقلون شيئاً من ثقافة بلادهم إلى

(١) صحيفة عكاظ السعودية، الصادرة بتاريخ ٣٠ مايو ٢٠١٠م.

تلك المجتمعات، ويأخذون من ثقافة البلدان التي يدرسون فيها إلى بلدانهم ومجتمعاتهم، مما يشكل جسراً للتواصل الثقافي، والتبادل الحضاري بين المجتمعات.

وفيهما ميزة إضافية لصالح الطالب نفسه، حيث يتحدث الباحثون والخبراء أن من يدرس خارج وطنه ومجتمعه، يتوفر على ميزات معينة على المستوى الشخصي والعلمي، تتمثل في صقل شخصيته ونفسيته، إذ إنه حينما يعيش في مجتمع آخر، فإنه يعتمد على نفسه وذاته، ويواجه نمطاً جديداً في الحياة، وأجواءً لم تكن مألوفة بالنسبة له، كما أنه يكون أكثر تفرغاً وتوجهاً؛ لأن الإنسان حينما يدرس في منطقتهم ومجتمعه تكثر انشغالاته الاجتماعية والعائلية، فتأخذ شيئاً من وقته وجهده واهتماماته، بينما في الخارج يكون متفرغاً أكثر من الناحية النفسية، ومن ناحية الوقت، لدراسته واهتمامه الدراسي، وهذا شيء مجرب معروف.

إن الطالب إذا كان جاداً في دراسته، فإنه يستفيد من وجوده في الخارج من كل وقته وجهده، بينما إذا كان يدرس في منطقتهم فإن الانشغالات الاجتماعية المختلفة تأخذ من وقته وجهده، وخاصة في مجتمعاتنا التي تكثر فيها الأعراف والتقاليد، وتكثر فيها المناسبات، فإن الطالب يصرف بعض وقته وجهده في هذه الأمور الاجتماعية، وإذا أردنا أن نقرب الصورة أكثر فإن أبناءنا الذين يدرسون في داخل الوطن، لكن في مناطق أخرى، كونهم في منطقة بعيدة عن مجتمعهم يفرغهم أكثر للدراسة كما هو المفروض، أما إذا كانت دراسة الطالب في وسط مجتمعهم فإن عليه أن يتواصل في المناسبات القائمة، كالزواج والعزاء مثلاً خاصة إذا كانت من الأقرباء.

المبالغة في المناسبات الاجتماعية

في بعض المجتمعات ماتم العزاء يصرف عليها وقت محدود، مثلاً في إيران والعراق ولبنان وسورية، عادةً ما تكون مجالس العزاء في المساء لمدة ساعتين

تقريباً، أما في مجتمعنا فهي تستغرق عشر ساعات على الأقل، في الصباح والعصر والليل، حيث نواجه صعوبة في ترشيد بعض العادات والتقاليد، مثل أن تصبح مجالس العزاء عصرًا وليلاً بدل الصباح والعصر، وهي ليست مهمة صعبة، ولا تحتاج سنين حتى نقتنع بها، ولا تحتاج بحوثاً واستفتاءات حتى نطبقها، إنها نوع من العادة أو العرف، سابقاً لم يكن لأكثر الناس التزامات وظيفية، أما الآن فالناس أغلبهم موظفون ولهم التزامات، حضور مجالس العزاء في الصباح يكون على حساب التزاماتهم، خاصة أهل العزاء والقريبون منهم.

وكذلك الحال هناك شيء من المبالغة في المناسبات الدينية، وأجد هنا فرصة لكي أتحدث عن هذه النقطة، مع الأسف الشديد في مجتمعنا أيام المناسبات الدينية يحدث فيها الكثير من التسبب من قبل الطلاب، فلا يذهبون إلى مدارسهم، هناك بعض الناس في مجتمعنا يشجعون هذه الحالة، على اعتبار أنه نوع من إحياء الشعائر وتأكيد الهوية الخاصة للمجتمع، ومع الاحترام والتقدير لوجهة النظر هذه، إلا أنني أخالفهم بأن التساهل في الأمر إلى هذا المستوى، ليس في مصلحة أبنائنا وطلابنا، حتى في المجتمعات الشيعية الأخرى كإيران ولبنان والعراق أيام التعطيل عندهم للمناسبات الدينية محدودة، وليس كل مناسبة وعلى اختلاف الروايات فيها، ثم إن هؤلاء الطلاب إذا لم يذهبوا إلى المدرسة هل سيذهبون إلى مجالس إحياء المناسبات؟ كلا، إنهم في الغالب يقفون في البيوت أو الشوارع، فلماذا نضيع هذه الأوقات على أبنائنا؟

أئمتنا عليه السلام يُسرُّون أكثر حينما يجتهد أبنائنا في دراستهم، ويتفوقون فيها، ومع الأسف الشديد فإن بعض المعلمين، يشجعون هذه الحالة من التسبب، حتى يرتاحوا من التدريس، وهذا خطأ كبير، وخلاف تحمل المسؤولية. وقد أشرنا لهذه القضية استطراداً ضمن سياق مزاحمة الأعراف والالتزامات الاجتماعية للتفرغ العلمي الدراسي، وأن الطالب المغترب غير معني بهذه الالتزامات، مما يجعله

أكثر تفرغاً لدراسته، وذلك من ميزات الاغتراب والهجرة لطلب العلم.

□ بالكفاءات تبني الأوطان

كيف يُبنى أي وطن من الأوطان، وخاصة في هذا العصر؟

المال والثروة وحدها لا تبني الوطن، الإمكانيات الطبيعية المتوفرة لا تبني الوطن، التنمية والبناء يحتاج إلى الكفاءة، خاصة وأن مسيرة التطور العلمي والتكنولوجي والصناعي في العالم تسير بسرعة مذهلة، وتحتاج إلى متابعة وملاحقة، أي أمة وأي شعب يتأخر عن مسيرة العلم والتطور سيبقى غارقاً في تخلفه وفقره.

بلادنا - والحمد لله - فيها ثروات، وفيها عنصر بشري، وإمكانيات طبيعية، وما تحتاج إليه بلادنا هي الكفاءة في مختلف المجالات، في الطب، والهندسة والإدارة والتقنية والعلوم المختلفة.

على المستوى الطبي مثلاً تشير إحصائية إلى أن نسبة السعودة في المجال الطبي في السعودية لا تتجاوز ١٦٪ وهي نسبة منخفضة جداً، في الماضي كان جذب الكفاءات أمراً ميسوراً، أما الآن فقد أصبح صعباً، في الماضي كان يذهب شخص أو بعثة من قبل وزارة الصحة أو المستشفيات الخاصة إلى الخارج لجذب عدد من الأطباء، والكفاءات الطبية، وبالفعل يحصلون على ما يريدون من الكفاءات الممتازة، ويأتون بها، أما حالياً ليس من السهولة الحصول على كفاءات من الخارج؛ لأن الكفاءات على مستوى العالم أصبحت مطلوبة، كما أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بلادنا لم تعد مغرية، ولأن البلدان الأخرى تنافسنا في تقديم الامتيازات والإغراءات لهذه الكفاءات، فلماذا يأتون إلينا؟

إننا نعيش فقراً وحاجة ملحة للكفاءات والقدرات والطاقات، وإذا لم نسرع ونحث الخطى لردم هذه الهوة، فإن وضعنا سيصبح أصعب وأسوأ يوماً بعد آخر،

وسنة بعد أخرى، حتى لو بنينا مستشفى ضخماً واشترينا أفضل المعدات والأجهزة الطبية، لكن العلاج لا يتوفر ولا يتحقق بالمبنى الضخم وبالمعدات الجيدة، وإنما يحتاج إلى الكفاءة والخبرة والمعرفة، والأجهزة المتطورة تحتاج إلى من يحسن استعمالها وصيانتها، وواضح جداً كيف أن بلادنا قد أصبحت ميداناً لكسب الخبرة من قبل أبناء الشعوب والمجتمعات الأخرى، يأتون من مختلف البلدان بلا خبرة ولا تجربة، ويعملون في مختلف المجالات الفنية والعملية، فيكسبون الخبرة من عملهم، ونحن ندفع الثمن؛ لأن هذا العامل الذي يأتي للعمل في أي مجال من المجالات، وهو لا خبرة ولا تجربة له، حتى يتوفر على الخبرة والتجربة، كم من الأخطاء والخسائر ندفعها نحن؟

مثلاً في المجال الميكانيكي، بعض من يأتي لتصليح السيارات وليست له خبرة وتجربة، أو تحصل فقط على الشهادة النظرية، فيتعلم الجانب العملي على حسابنا ونتحمل أخطائه، وبعد مدة من الزمن حين يكسب الخبرة والتجربة، فإن بلداناً أخرى تنافسنا عليه. وقرأت تقريراً أنه في المجال الطبي، بعض الأطباء في مجال تخرجهم من بلدان أخرى، يأتون إلى بلادنا بقصد أن يحصلوا على شهادة خبرة، وممارسة العمل، ثم يذهب ليستفيد منها في دول متقدمة، هكذا أصبحنا مسرحاً للتجارب، ولتحصيل الخبرات، لماذا لا نبني طاقتنا وكفاءتنا؟ لماذا لا نكسب نحن الخبرة والتجربة؟ المجتمعات الأخرى التي كانت تعيش تخلفاً سلكت هذا الطريق، فاليابان استطاعت أن تبني نهضتها، جلبت القدرات، وبعثت أبناءها لكسب الخبرة، وأسرار التكنولوجيا من الدول الأخرى.

ومن التجارب المعاصرة الناجحة، تجربة كوريا الجنوبية، وهي بلد فقير في موارده المالية والطبيعية، وكان واحداً من أفقر ثلاث دول في آسيا إلى منتصف القرن الماضي، لكن كوريا الآن أصبحت ثالث أقوى اقتصاد في آسيا بعد اليابان والصين، صادراتها الصناعية تقدر بـ (بليون دولار) يومياً من السيارات والآلات

حسب إحصائية سنة ٢٠٠٥م، الذين كتبوا عن تجربة كوريا الجنوبية قالوا إن سرّ نهضتها وتقدمها يعود لعوامل مختلفة، لكن بالدرجة الأساس استفادوا من بعث أبنائهم للخارج، وهؤلاء الذين ذهبوا للخارج وعادوا، نقلوا المعرفة والعلم والتكنولوجيا إلى بلادهم، وأصبحت كوريا في هذا المستوى، من هنا لا بدّ أن نهتم أكثر ببناء الكفاءات، وإلا فإن بلادنا ستبقى في هذا الوضع المتخلف، وسنة بعد أخرى سنشعر بالتخلف أكثر.

ومن أفضل طرق بناء الكفاءات الاستفادة من أجواء التقدم العلمي والتكنولوجي في المجتمعات الأخرى، ولا يكفي أن تكون عندنا جامعات في بلداننا؛ لأن مستوى الجامعات في بلداننا لا يزال متأخرًا عن مستوى الجامعات في العالم المتقدم، كما أن المسألة ليست مستوى الجامعات فقط، وإنما البيئة بشكل عام، إذا عاش الطالب في بيئة متقدمة فإنه يكسب من أجوائها بشكل أفضل، مما يصقل كفاءته، ويمنحه الخبرة والتجربة، إننا بحاجة إلى أكبر عدد من الجامعات في بلادنا، وأن يتطور مستوى هذه الجامعات، في الوقت ذاته لا غنى لنا عن الاستفادة من أجواء التقدم والرقي في الجامعات الأجنبية بابتعاث أبنائنا إليها.

□ إنجاح برنامج الابتعاث

المستوى الذي عليه الابتعاث من بلادنا إلى الخارج، يعتبر منخفضاً وضيئلاً قياساً بالدول الأخرى، هناك مقياس عالمي يقيسون به عدد المبتعثين الذين يدرسون في الخارج، إلى مجموع طلاب التعليم العالي، هونغ كونغ مثلاً، نسبة المبتعثين من طلابها ٢٢٪ قياساً إلى عدد طلاب الدراسات العليا، المملكة المغربية نسبة المبتعثين فيها ١٤٪.

ونسبة المبتعثين في البحرين وقطر والكويت ١٣٪ حسب إحصائيات سنة

٢٠٠٥م.

أما بالنسبة للمملكة العربية السعودية فإن نسبة المبتعثين إلى الخارج ٦, ١٪، ومع البرنامج الجديد للابتعاث تصل إلى ٣٪، وهي نسبة منخفضة جداً، البلد في حاجة إلى عدد أكبر من المبتعثين، وليس عندنا عجز مالي - والحمد لله - بلدنا فيها موارد مالية وثروة كبيرة، وأفضل استثمار للثروة الموجودة في البلد هي في بناء الإنسان وكسب العلم والمعرفة، وقد ذكر أحد الباحثين أن برنامج الابتعاث في المملكة قائم على أساس كل سنة ٥٠٠٠ طالب، وهذه النسبة لا تكفي للتنمية في هذا البلد يجب أن تضاعف عشر مرات على الأقل، يعني أننا نحتاج في كل سنة لـ ٥٠٠٠٠ طالب يبتعث وليس ٥٠٠٠ طالب، إذا بعثنا ٥٠٠٠٠ طالب يدرسون في الخارج، تصل النسبة إلى ٢٠٪، أي نسبة المبتعثين إلى طلاب مرحلة التعليم العالي، ومع الوضع التنموي الذي نعيشه وحاجتنا إلى إسراع الخطى، فنحن بحاجة إلى توسعة هذا البرنامج، وزيادة رقعة المبتعثين.

(إن ابتعاث ١٠٠ ألف طالب خلال عشر سنوات سيعطينا ١٠ آلاف خريج سنوياً، وهو رقم متواضع قياساً بتجارب أخرى، ولعل قراءة تجربة كوريا الجنوبية تكشف لنا أهمية الأرقام، إذ استطاعت كوريا أن تحافظ على وجود ١٠٠ ألف طالب سنوياً في الجامعات الأمريكية وعلى مدى عشر سنوات، وحصلت في نهاية المشروع على مليون خريج من أهم الجامعات الأمريكية)^(١).

والمجتمع أيضاً يجب أن يدرك قيمة الاستثمار في العلم، وأهمية الابتعاث إلى الخارج، وأن يكون له دور، أي رب عائلة يجب أن يعرف أن مصلحته ومصلحة ذريته، ليس في بناء العمارات والعقارات، حتى إذا مات يخلف لأبنائه وأسرته أراضي وعمارات، وأسهم في البنوك والشركات، بل الأهم لأبنائه ولمجتمعه هو الاستثمار في العلم، إن بعض العوائل بالرغم مما تمتلكه من الخير والثروة لا تبادر إلى ابتعاث أبنائها.

(١) جريدة الحياة، ٤ مايو ٢٠١٠م، داود الشريان، أرقام المبتعثين لا تكفي.

بينما يتحدث الإعلامي الأستاذ جمال خاشقجي عن حضوره لحفل أقامته منظمة الطلبة العرب بالجامعة العريقة (MIT) في بوسطن الأمريكية، لتكريم الطلاب النابغين العرب في حقل العلوم والتقنية من الجامعة، وكان من بينهم طالب فلسطيني وهو الدكتور هشام كساب، الذي حصل على الدكتوراه في الهندسة الكهربائية، وأسس شركة، وأصبح استشارياً في البنك الدولي، وسجل اختراعاً باسمه، وألف عشرة كتب وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره، وفي كلمته تحدث عن والدته التي رعته عن بعد بدعائها، وعن والده الذي لم يمنعه فقر مخيم فلسطيني عاش فيه من تعليم ابنه أفضل تعليم، وإرساله إلى أفضل جامعة في العالم^(١).

دور المجتمع

وعلى المستوى الاجتماعي العام، فإن قوة المجتمع في قوة كفاءاته، وإنما يحترم المجتمع بمقدار ما لديه من طاقات وكفاءات، علينا أن نشجع أبناءنا على كسب الكفاءة، وأن نبذل قدراتنا وإمكاناتنا من أجل أن يكسب أبناءنا الكفاءة العلمية.

هل يصعب علينا في مجتمعنا أن نرصد مبلغاً من المال من أجل أن نشجع أبناءنا على الدراسة، وكسب المعرفة والكفاءة في الخارج، إما منحة أو قرضاً؟

في منطقة قريبة وهي مملكة البحرين، أنشأت مؤسسة مجموعة الحاج حسن العالي مكتباً للمنح الدراسية للابتعاث على حسابهم لأبناء مجتمعهم، هذا البرنامج مضى عليه عشر سنوات من سنة ١٩٩٨م، ابتعثوا حوالي ٥٠٠٠ طالب وطالبة على نفقتهم، أو بقروض ميسرة بدون فوائد، بين طلاب يدرسون دراسة جامعية كاملة، وطلاب يذهبون إلى دورة للتدريب من ستة أشهر فما فوق، هذه المؤسسة

(١) جمال أحمد خاشقجي. قصة نجاح عربي في بوسطن الأمريكية، جريدة الوطن، ٢٥/٤/٢٠٠٦م.

ميزانيتها السنوية للصرف على هذا البرنامج ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار بحريني، أي مليون ريال سعودي.

أليس مؤلماً أن بعض الطلاب وهم يدرسون داخل البلد، في بعض الجامعات أو المؤسسات الأهلية، يحتاج إلى تسديد قسط دراسته، وقد لا يجد من يساعده أو من يقرضه.

من ناحية أخرى، علينا أن نهتم بأبنائنا المبتعثين في الخارج، العوائل يجب أن تتابع هؤلاء الأبناء، لتشجيعهم وتفقد أحوالهم، وينبغي أن ننشئ مؤسسة أو لجنة تهتم بمتابعة شؤون هؤلاء الطلاب، نبعث لهم مرشدين، فيهتم بأوضاع الطلاب في كل منطقة أحد العلماء والموجهين، يقوم بزيارتهم، ويتفقد أمورهم، ويتواصل معهم.

إن جولة أي عالم لتفقد أوضاع الطلاب المبتعثين قد لا تكلف أكثر من مصرف مآتم أو مجلس من المجالس الكثيرة في بلادنا.

إلى طلابنا المبتعثين

النقطة الأخيرة ترتبط بطلابنا المبتعثين، نتخاطب معهم: يا أبناءنا الأعزاء وأنتم في الخارج، وضمن هذا البرنامج، عليكم أن تعرفوا مدى الآمال المعلقة عليكم، أنتم تصرفون من أموال بلدكم، من ثروات شعبكم، وعلى حساب عواطف أهاليكم، فالذي يفارق أهله وأسرته ليس أمراً هيناً عليهم.

الاجتهاد في الدراسة

أولاً: عليكم أن تجددوا وتجتهدوا في دراستكم، إن بعض طلابنا في الخارج يعتبر الابتعاث وكأنه رحلة وفرصة للنزهة، أن يرى بلداً آخر، ويرتاح، لا يحمل همماً كافياً للاجتهاد في دراسته، وفيما توجه من أجله، وبذلك يفوت على نفسه فرصة عظيمة، ويخيّب آمال مجتمعه ووطنه.

الالتزام بالقيم

ثانيًا: الالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية، الطالب الذي يذهب إلى مجتمع، يعيش وضعًا غير الوضع الذي كان يعيش فيه، تحصل له صدمة ثقافية، يرى الأجواء مفتوحة أمامه، قسم من الطلاب والمبتعثين ينهارون أمام هذه الصدمة، يفقدون التزامهم الديني والأخلاقي، لدينا طلاب نفخر بالتزامهم وبيدنيهم وأخلاقهم، ولكن هناك حالات سلبية لا ينبغي أن نسكت عنها، فبعض من يذهبون إلى هناك يتناسون القيم والالتزامات الشرعية، وربما كانت هذه النقطة إحدى المبررات للتوقف والتردد عن بعث الأبناء إلى الخارج من قبل بعض الأوساط الدينية، ولكن هذا ليس مبررًا صحيحًا؛ لأن الفساد ما عادت له جغرافيا، من تكون نفسه مهياة، ومن لا تكون تربيته بالمستوى المطلوب، من يخضع لإغراءات الشيطان، حتى وهو في بلده، وبين أهله، يمكن أن يطاله الفساد، صحيح أن الأجواء هناك مفتوحة، لكن ثبت بالتجربة أن الإنسان حينما يتوفر على تربية صالحة، ووعي وثقافة وتوجيه، فإنه في تلك المناطق يستثير تحديه في الالتزام بالقيم والمبادئ، يشعر بالتحدي أكثر، يحس بقيمة الدين والأخلاق في تلك المجتمعات أكثر، وأعرف أشخاصاً وطلاباً يوم كانوا يعيشون في البلد كان اهتمامهم الديني عادياً، وحينما ذهبوا إلى هناك ارتفعت عندهم درجة الالتزام، ومستوى الالتزام، أصبحت له لذة وقيمة؛ لأنه تحدّ، وليس استجابة للمألوف، والتقاليد والأعراف.

كسب الإيجابيات

ثالثاً: الاستفادة من إيجابيات تلك المجتمعات، المسألة لا تقتصر على الدراسة فقط، تلك المجتمعات متقدمة ومتحضرة، فيها جوانب من الإيجابيات، وهناك سلبيات بسبب الاختلاف بيننا وبينهم في الثقافة والقيم، ولكن لا يصح لنا أن نتضخم في أذهاننا السلبيات، وبتناسي الإيجابيات.

في تلك المجتمعات، هناك إيجابيات كبيرة، مثل الجدية في الحياة، الدقة في المواعيد، الاهتمام بالدراسة والعمل، الصدق والصراحة، بعض طلابنا حينما

يذهبون إلى هناك يصطدم الآخرون بهم؛ لأنهم ليسوا في مستوى هذه القيم الحضارية، تعود على عدم الدقة، يُسأل عن شيء معين فيجيب جواباً، وتختلف إجابته لنفس السؤال مرة ثانية، فيرصدونه ويأخذون عنه فكرة أنه ليس صادقاً.

في تلك المجتمعات هناك صدق وصراحة، وانضباط، على طلابنا وطلباتنا أن يستفيدوا من هذه الإيجابيات، إن بعض المبتعثين بدل أن يستفيد من الجوانب الإيجابية يأخذ بالجوانب السلبية، كالانحراف والانحلال والمفاسد الأخلاقية، يذهب بهذا الاتجاه، أرايتم كيف أن النحل يبحث عن الفواكه والثمار! ويمتص منها، أما الذباب يبحث عن الأوساخ، كل إنسان يبحث عن الأشياء حسب وعيه، ومستواه النفسي، نحن نريد أبناءنا الذين يذهبون إلى الخارج أن يكونوا نحلاً يمتصون الرحيق من الأزهار والورود والثمار، ويصقلون بها شخصياتهم، ويعودون بها لمصلحة أوطانهم ومجتمعاتهم.

كل مجتمع له عاداته وأعرافه، وينبغي أن نستفيد من العادات الإيجابية في تلك المجتمعات، وأن نتلافى العادات السلبية، حينما يلتقي الناس من مجتمعات مختلفة فإنهم ينظرون إلى تلك المجتمعات من خلال من يلتقون بهم، ولذلك فأبناؤنا وبناتنا هناك هم رسل لأمتهم ووطنهم ومجتمعهم، العالم ينظر إليهم، ومن خلالهم ينظر إلينا، فعليهم أن يقدموا صورة مشرقة، وألا يشوهوا هذه الصورة، ببعض التصرفات، بتساهلهم وتسيبهم الدراسي، أو بعدم انضباطهم الأخلاقي، فيكونون صورة مشوهة لأمتهم، وللدين الذي ينتمون إليه، قال الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه: «إنكم قد نسبتم إلينا كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً»^(١).

التلاحم والتعاون بين الطلاب

وفيما يرتبط بالعلاقة بين الطلاب أنفسهم، عليهم أن يدعموا بعضهم بعضاً، وأن يتعاونوا، ويتركوا الخلافات والفروقات الموجودة في بلداننا ومجتمعاتنا،

(١) بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٥١.

لأسباب مذهبية أو مناطقية أو مرجعية وثقافية، يفترض في أبنائنا وبناتنا هناك أن يتجاوزوا هذه الحالات، وأن يفتحوا على بعضهم، وأن يستفيدوا من تجاربهم، ويتداولوا التجارب، ويرفعوا معنويات بعضهم بعضاً، وأوجه الخطاب بالخصوص إلى أبنائنا الملتزمين دينياً، بأن يهتموا بإرشاد بقية الطلاب والطالبات، لا يكفي أن يكون الإنسان ملتزماً، وإنما يسعى بمقدار ما آتاه الله من معرفة ووعي، ومن قدرة لهداية الآخرين، والمساهمة في إصلاحهم وإرشادهم وتوجيههم، نسأل الله تعالى أن يوفق طلابنا وطالباتنا في الخارج، وأن ينجحهم في دراستهم، وأن يوفقهم للصمود والثبات على قيمهم وأخلاقهم ومبادئهم، وأن يعودوا لنا بحصيلة من العلم والخبرة والتجربة، تقرّ بها أعيننا، ويتقدم بها الوطن إن شاء الله.

إن مما يعمر قلوبنا بالأمل والتفاؤل أن نجد اهتمام بعض أبنائنا المبتعثين بإقامة الشعائر والمناسبات الدينية، التي تخلق في أوساطهم أجواء التفاعل الاجتماعي، وتقربهم من بعضهم بعضاً، وتشجّع حالة الالتزام الديني والقيمي.

وفي أيام عاشوراء نرى حرصاً من أبنائنا المبتعثين في مختلف الدول والبلدان على المشاركة في إحياء هذه المناسبة الحسينية العظيمة، بالحضور في المراكز والمؤسسات التي تقيم المجالس العاشورائية، وإن لم يكن في المنطقة مركز فإنهم يتداعون إلى الاجتماع فيما بينهم لإحياء ذكرى عاشوراء.

فهنيئاً لهم هذا الاهتمام الذي يدلّ على عميق ولائهم لأهل البيت عليهم السلام وعلى تأثير التربية الصالحة في نفوسهم.

إن إحياء ذكرى الحسين عليه السلام عوائدها على الإنسان عظيمة في الدنيا والآخرة.

شخصية الإنسان بين الفطنة والسذاجة

- الفطنة إدراك وانتباه
- تنمية الفطنة في المجتمع

” جاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال:

«المرء بفطنته لا بصورته»^(١). “

□ الفطنة إدراك وانتباه

حين يسير الإنسان في طريقٍ مظلم فإنه بحاجةٍ لنور يهتدي به، حتى لا يتعرض للتيه والضياغ، وحتى لا يعثر في حفرة من الحفر التي قد تكون في الطريق، وإذا لم يكن له نور يستضيء به، فإنه معرض لهذه الاحتمالات، كما أن درجة النور لها تأثير أيضاً، فكلما كان النور أكثر إضاءة، كان الطريق أكثر وضوحاً أمام السالك فيه.

وكذلك واقع الإنسان في هذه الحياة، فهي عالم جديد مجهول بالنسبة له، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ [سورة النحل: الآية ٧٨]، لذلك يحتاج في مسيرته إلى نور يستضيء به، وقد منح الله تعالى الإنسان هذا النور في أعلى درجاته، وهو يتمثل في العقل، فالعقل هو ذلك المصباح المنير، إلا أن الناس يتفاوتون في مدى التفاتهم لهذا النور، وفي مدى استضاءتهم به. وتلاحظون أن بعض المصابيح الكهربائية الآن نستطيع التحكم في درجة الاستنارة بها، فيمكن أن تكون إنارتها خافتة ضعيفة لوقت النوم والاسترخاء مثلاً، أو تكون قوية الإضاءة عند الحاجة للقراءة والكتابة، بينما هناك مصابيح لها درجة معينة من النور ثابتة.

ومن حكمة الله تعالى وكرمه أن أعطى الإنسان مجالاً للتحكم في مدى الاسترشاد بهذه القوة الهائلة وهي العقل. فإلى أي مستوى تستفيد من عقلك

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ج ١ ص ١١٩ حكمة ٢١٩٠.

وقدراته اللامتناهية؟ إن ذلك يعتمد عليك أنت وعلى جدك ومثابرتك.

وهنا يأتي مصطلح: الإنسان الفطن، وهو الذي يسترشد جيداً بعقله، والفطن من الفطنة، والفطنة هي الحدق والفهم، ومعرفة خلفيات الأمور، وهذا لا يتم إلا بالعقل. فالإنسان يكون فطناً حينما يسترشد بعقله، ويرفع درجة الاستنارة به، أما إذا غفل عن عقله، أو انخفضت درجة استنائه بعقله يقع في الحالة الأخرى، وهي السذاجة أو الغباوة، وبالتالي تضيع مصالحه في هذه الحياة، ويتعرض للتيه وللعثرات.

تجليات الفطنة في شخصية الإنسان

والفطنة تتجلى في مظاهر، منها:

أولاً: الوعي والمعرفة بما حول الإنسان: كلما كان الإنسان أكثر وعياً بما حوله من حياة وبشر وأوضاع، كان إدراكه للمعادلات الاجتماعية التي يعيشها أكبر، فيصبح أكثر فطنة، أما إذا كان إدراكه ومعرفته محدودة ضعيفة، فبنفس تلك الدرجة تكون فطنته، ويكون معرضاً لحالة السذاجة والغباوة.

لذلك ورد عن الإمام علي عليه السلام: «لا بد للعاقل من ثلاث: أن ينظر في شأنه ويحفظ لسانه ويعرف زمانه»^(١)، وفي رواية عن الإمام الرضا عليه السلام قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ينبغي للمسلم أن يكون مالكا لنفسه، مقبلاً على شأنه عارفاً بأهل زمانه»^(٢). وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»^(٣)، أي لا تلبس عليه الأمور، ولا تختلط أمامه الأوراق.

ثانياً: الانتباه والتركيز: مشكلة أكثر الناس أنهم لا يركزون، فيمرون على

(١) تحف العقول. ص ٢٠٣.

(٢) وسائل الشيعة. ج ١٦، ص ٢٤٧.

(٣) تحف العقول. ص ٣٥٦.

الأمر مرور الكرام، من دون انتباه، وهذا ما يتحدث عنه القرآن الكريم، ويطلق عليه مصطلح الغفلة، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [سورة يونس، الآية: ٧]، بمعنى: لا ينتبهون، ولا يركّزون.

وربما يمرّ حدث معيّن على شخصين أو على عدة أشخاص، أحدهم يركّز وينتبه، والآخر لا يركّز ولا ينتبه، وبالتالي فإن مقدار التركيز والانتباه هو مما يحدد مستوى فطنة الإنسان.

وفي هذا السياق يُحكى أن أعرابياً شرد منه جملة، وأخذ يبحث عنه فلقبه رجل فقال له: عمّ تبحث؟ قال: عن جمل لي شرد مني، فقال له الرجل: هل جملك أبتّر الذيل (أي مقطوع الذيل)؟ قال: نعم. قال له: هل فيه رجل عرجاء؟ قال: نعم. قال هل جملك أعور؟ قال نعم. فلما ذكر الرجل كل هذه الأوصاف في الجمل، أمسك به الأعرابي وقال: إذن أنت أخذت جملي. واقتاده إلى القاضي متهمًا إياه بسرقة الجمل.

فلما سأله القاضي وأنكر أنه أخذ الجمل، قال له القاضي: إذن من أين عرفت كل هذه الصفات عن الجمل؟ فقال الرجل: كنت سائرًا في الطريق فوجدت بعراً متجمعاً على غير عادة الجمال؛ لأن ذيل الجمل يفرق بعره يميناً ويساراً عندما ينزل منه، ولكنني وجدت هذا البعر متجمعاً في أكوام صغيرة، فعرفت أن صاحب هذا البعر جمل مقطوع الذيل.

فقال له القاضي: وكيف عرفت أن الجمل أعرج؟ قال الرجل: لأنني وجدت أن للجمل قدماً غائرة في الرمل، والأخرى قد لامست الرمل ملامسة خفيفة، فعرفت أنه أعرج. فسأله القاضي، وكيف عرفت أنه أعور؟ فقال الرجل: لأنني وجدته يترك الخضرة في جانب ويأكل من واحد فعرفت أنه يرى بعين واحدة^(١).

(١) محمد متولي الشعراوي. قصص الأنبياء ج ٢، ١٩٩٦م، (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي)، ص ١٤٢٠.

فبعض الناس يركّزون على الأشياء فيفهمونها بشكل دقيق، والبعض الآخر ليس لديهم تركيز، وعلى الإنسان ألا يأخذ الأمور بسهولة وإنما يركّز تأمله فيها. قبل أيام نشرنا في الصحف عن مريضة في المستشفى جاءت لها الممرضة بالدواء، ولها مقدار من الدواء تتناوله كل عدد معين من الساعات، هذه المريضة ركّزت قليلاً في الدواء الذي جاءت به الممرضة، فوجدته يختلف عن دوائها الذي يُصرف لها، فسألت الممرضة: هل أنت متأكدة أن هذا الدواء لي، قالت: نعم، وهذا لا يعنك، أنا ممرضة وأعرف تكليفي، هذا دواءك، رفضت المريضة أن تتناول الدواء، مع إصرار الممرضة على إعطائها الدواء، فاستدعوا الإدارة، وتبين بالفعل أن هذا الدواء الذي جاءت به لهذه المريضة بالخطأ، وهو دواء لمريض آخر ولو تناولته هذه المريضة لفضى على حياتها، وفتح تحقيق في المستشفى حول هذا الموضوع.

في المقابل كم من مريض في المستشفى يسلم أمره للممرض أو الممرضة، ويأخذ أدويته وهو مغمض عينيه، وكأن لا شغل له في الأمر، متجاهلاً ورود الخطأ. بينما نجد الناس في المجتمعات الأخرى يتعاملون مع الدواء بطريقة أكثر تركيزاً واهتماماً.

فالثقافة العامة للناس، والثقافة الصحية مهمّة جداً، وعلى الإنسان أن يتحلّى بالفطنة في هذا الجانب وفي كل جوانب الحياة، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): «الغفلة أضّر الأعداء»^(١).

ثالثاً: حماية الإنسان لحقوقه

على الإنسان ألا يتساهل في حقوقه، بل عليه أن يحمي حقوقه، فالمتساهل تضيع حقوقه ويُستغل، وهذا خطأ كبير. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ج ١، ص ٢٩، حكمة ٥٢٧.

«المغبون لا محمود ولا مأجور»^(١).

ورد في سيرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام أن رجلاً كان يحمل له متاعاً من البصرة، يقول: كنت أحمل المتاع من البصرة إلى الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فكان ربما يماكسني فيه - المماكسة: طلب تخفيض الثمن -، فلعلي لا أقوم من عنده حتى يهب عامته، قلت له: يا ابن رسول الله، أجيئك بالمتاع من البصرة تماكسني فيه، فلعلي لا أقوم حتى تهب عامته؟ فقال: إن أبي حدثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: المغبون لا محمود ولا مأجور»^(٢).

في رواية أخرى عن رجلٍ يسمى سواده قال: كنا جماعة بمنى فعزّت الأضاحي فنظرنا فإذا أبو عبد الله - جعفر الصادق عليه السلام - واقف على قطع يساوم بغنم ويماكسهم مكاساً شديداً، فوقفنا ننتظر، فلما فرغ أقبل علينا فقال: أظنكم قد تعجبتم من مكاسي؟ فقلنا: نعم، فقال: إن المغبون لا محمود ولا مأجور^(٣). وفي موضع آخر اعترض عليه أبو حنيفة قائلاً: عجب الناس منك أمس وأنت بعرفة تماكس ببدنك - البدن: الإبل - أشدّ مكاساً يكون، قال: فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «وما لله من الرضا أن أغبن في مالي»^(٤).

إذاً ينبغي أن يتحلى الإنسان بالفطنة في حمايته لحقوقه، ولدينا نصوص كثيرة على هذا الصعيد تدعو الإنسان إلى ألا يقع في الغبن والخديعة والغباء والغفلة حتى تكون شخصيته شخصية المستفيد من عقله وتفكيره.

□ تنمية الفطنة في المجتمع

من الملاحظ أن طبيعة الناس في بعض المجتمعات وسجيتهم فيها تُبيّن مدى

(١) كنز العمال. ج ٤، ص ١٩، حديث ٩٢٨٧.

(٢) ابن عساكر. ترجمة الإمام الحسين، ص ٩.

(٣) الكافي. ج ٤، ص ٤٩٦.

(٤) الكافي. ج ٤، ص ٥٤٦.

فِطْنَتُهُمْ فِي أُمُورِهِمْ، بَيْنَمَا بَعْضُ الْمَجْتَمَعَاتِ يَغْلِبُ عَلَى النَّاسِ حَالَةَ السِّدْجَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ مَلْحُوظٌ بِالنِّسْبَةِ لِاخْتِلَافِ الْأَفْرَادِ، وَاخْتِلَافِ الْمَجْتَمَعَاتِ.

فَكَيْفَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَنْمِيَ حَالَةَ الْفِطْنَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ؟ لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ هُنَاكَ عِدَّةُ أُمُورٍ:

الأول: مستوى الوعي الحقوقي في المجتمع: كلما كان الناس أكثر معرفة بحقوقهم، كانوا أبعد من أن يُستغفلوا، وإنما يُخدع الإنسان ويُستغفل لعدم معرفته بحقوقه، ولذلك فإن الوعي الحقوقي مهم جدًا في كل مجال من المجالات.

نجد في المجتمعات الأخرى أن كل معاملة يدخل فيها الإنسان هناك تحديد وتوضيح للحقوق التي له وعليه، فالسجين من بداية سجنه يُعطى قائمة بحقوقه التي له والتي عليه، بإمكانه أن يطلب محامياً، وبإمكانه ألا يجيب عن أي سؤال لا يرغب في الإجابة عنه، كل الحقوق تكون واضحة أمامه، أما في بلداننا فالسجين يسجن وليس له الحق في السؤال عن حقوقه، بل قد يخشى أن يسأل عن حقوقه.

وكذلك في مختلف المجالات: الطالب ينبغي أن يعرف حقوقه، والراكب في الطائرة لديه تذكرة مبين فيها حقوقه على الجهة الناقلة.

وهناك الآن تجربة جيدة في البلد، لبعض المؤسسات فيما يرتبط مثلاً بالتعليم، أصدرت وثيقة حول حقوق الطالب، بحيث يعرف الطالب ما هي حقوقه كطالب في مجال التعليم، وهذا مهم جداً، بأن يعرف كل إنسان ما هي حقوقه، أما التجهيل، وعدم الوعي الحقوقي، فهي التي تجعل الكثير منا يقع في المشاكل.

فمثلاً شخص موقوف للتحقيق في قضية معينة، يعترف ويوقع، وعند سؤاله لماذا توقع وتعترف؟ يقول: ماذا أعمل، قالوا لي إذا اعترفت القضية تسهل وتنتهي؟ فهذا تضليل، إذ يجب أن يُعرف من هو المخطئ، ومن هو المعتدي، فحينما توقع أنت على الاعتراف بجرم لم تقم به تكون قد ضللت الجهات المعنية بالوصول إلى

المعتدي الحقيقي، أو أنك وقعت في خديعة حين توقع عن غير معرفة بما يترتب على اعترافك.

علينا أن ننشر الوعي الحقوقي في مختلف الجزئيات والقضايا، فبالنسبة للعلاقات الزوجية مثلاً، نجد الكثير من الشباب والفتيات، من يتم عقد الزواج، والعقد يعني اتفاقاً بين طرفين، إلا أنه اتفاق على ماذا؟ لا يدري. والفتيات في هذا الجانب أكثر غفلة من الشباب، وهذا سبب لكثير من المشاكل وارتفاع معدلات الطلاق. ومن النماذج التي وضعت حدّاً للطلاق والخلافات الزوجية تجربة في ماليزيا تلزم كل مواطن قبل الزواج، أن يدخل في دورة لمدة شهر ليتعرف على الحياة الزوجية، من واجبات وحقوق، ويمكن خصم وقت حضوره في هذه الدورة من دوامه إذا كان موظفاً في الحكومة، أو في إحدى الشركات، فحصل بعد تطبيق هذا النظام أن نسبة الطلاق انخفضت؛ لأن الناس أصبحوا يعرفون ما لهم وما عليهم، وأيضاً في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، قبل إجراء عقد الزواج يقدمون للشباب والفتاة ملفاً، يتضمن نقاط الحقوق التي للزوج والتي للزوجة، يقرأها الزوجان، والمأذون الشرعي يسأل كلاً منهما عن الموافقة على بنودها وبعد ذلك يتم العقد.

أما في مجتمعنا فالأمر يسير بطريقة عفوية، وخصوصاً بالنسبة للفتيات حيث تزوج البنت ولا تعرف ماذا لها وماذا عليها! لأن جهات التوجيه الديني في الغالب هي من الرجال، ولذلك اعتدنا ألا نخبر المرأة بكل حقوقها، وأنا شخصياً تعرضت لهذا الأمر، فحينما أتحدث عن حقوق المرأة في الحياة الزوجية، يعترض البعض بقولهم: إنك تستشير نساءنا علينا وتريدهم أن يتمردوا علينا، إذا عرفوا هذا الكلام. لكن هذه حدود الله وهي حقوق للزوجة، ويجب أن تكون واضحة ومعروفة. فمثلاً: من حق الزوجة في عقد الزواج أن تشترط لنفسها الوكالة في الطلاق عن الزوج متى شاءت، هذا من حقها شرعاً، فحين ترى المرأة أن حياتها مع هذا الزوج لا تناسبها، وغير ممكنة لها، تستطيع أن تذهب وتجرى الطلاق، باعتبارها هي

وكيلة عنه في الطلاق، وإذا قبل الزوج بهذا الشرط في العقد؛ فإنه لا يمكن إلغاؤه، ويبقى هذا الحق ثابتاً للمرأة.

والآن لدينا الكثير من المشاكل والقضايا، يتعامل فيها الرجال بقسوة مع زوجاتهم، ويُجبرونهم على البقاء تحت سيطرتهم، مع عدم المعاشرة بالمعروف، ولا يقبل أن يطلقها، وهذا خلاف أمر الله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٩]، وفي بعض الأحيان إذا طلبت الزوجة الطلاق، أو الخلع، يطلب الزوج مبالغ طائلة، لتبقى المرأة ضائعة، وتضيع حقوقها، فلو أنها تشرط لنفسها منذ البداية أن تكون وكيلة عن الزوج في تطليق نفسها، لما وقعت في هذا المأزق. وطبعاً أكثر الناس لا يرون أنه من المناسب إخبار النساء بهذا الحق.

إن الوعي الحقوقي مهم جداً، في مختلف المجالات، وهو يساعد الناس على أن يكونوا فطنين، ويدافعوا عن مصالحهم وحقوقهم.

الثاني: بذل التجارب والخبرات للناس: يتوفر مجتمعنا على تجارب كثيرة، إلا أنها لا تتداول لتكون في متناول الجميع، فمثلاً: كم من فتاة تقع في حالات الابتزاز، وهناك مخرج من ذلك، إلا أن هذه الفتاة المسكينة لا تعرف ما هو الطريق لكي تتجاوز حالة الابتزاز! فتدوير التجارب يحمي الكثير من المآزق التي وقع فيها غيرهم.

الثالث: عامل التربية: ينبغي للعائلة أن تربي أبنائها على حالة الفطنة، بأن تحذرهم وتوعيتهم وتنبههم، ونحن الآن نعيش في عصر لا ينبغي فيه أن نتعامل مع الأمور بعفوية وسذاجة، نعيش في عصر فيه الكثير من التعقيدات والمشاكل، والكثير من النفوس الشريرة، ولذلك علينا أن نوعي أبنائنا. فموضوع التحرش الجنسي بالنسبة للأطفال، مثلاً، ينبغي أن تكون هناك توعية للأبناء تجاهه، هذا الطفل البريء لا يعرف عن الموضوع شيئاً، لذا يحتاج إلى توعية، إما من قبل العائلة أو عبر البرامج التدريبية التوعوية، بأن يحذر الطفل، ويُشرح له، وبدون ذلك

يقع الكثير من الأطفال والناشئين والناشئات في مثل هذه المآزق؛ لأنه لا معرفة ولا خبرة لهم، وليس هناك تربية، فحين تخجل العائلة من فتح مثل هذه المواضيع لأبنائها، يصبح الأبناء ضحايا للجهل والغفلة.

الرابع: قوة الشخصية: كلما كان الإنسان أقوى شخصية كان أبعد عن الوقوع في الاستغفال، وفي فخ التضليل. وهنا يأتي موضوع إثارة العقل في أوساط الناس، فالمجتمعات التي تحكمها العواطف غالباً ما يقع الناس فيها في فخ الاستغفال، بسبب العواطف، وإغفال العقل، ومجتمعاتنا العربية، وخاصة الخليجية منها، ينظر إليها من قبل الآخرين على أنها مجتمعات ساذجة، بالعواطف يمكن أن يؤخذ الكثير منها، ومن نماذج ذلك حالات التسول، فهناك شركات تأتي بأطفال ونساء إلى بعض مناطقنا، يتسولون ويطلبون الأموال، وقد كتب عن ذلك في الجرائد والمجلات، فيستغلون العاطفة في شهر رمضان المبارك، مثلاً، وفي أوقات معينة، وأماكن خاصة، عند المقابر والمجالس، والمساجد، بل اكتشف أيضاً أن بعض حالات الإعاقة هي مفتعلة، من أجل أن يستثيروا بها العواطف، واكتشف أيضاً أن بعض النساء اللاتي يطلبن في بعض الشوارع في الواقع ليسوا نساء، بل رجال في لباس النساء. والسبب في ذلك أن هناك من يراهن على السذاجة والبساطة في أوساط الناس، من أجل تحقيق مآربه.

ومن المظاهر أيضاً هؤلاء المشعوذون والدجالون والسحرة، وكتب الكثير عن هذا الأمر، فقبل أيام قرأت تحقيقاً في إحدى الجرائد المحلية، أن أحد السحرة من أصل أفريقي أوقفوه، وبعد التحقيق معه تبين أنه جاء بتأشيرة عمل للمملكة، ولم يجد فرصة عمل لمدة ستة أشهر، فأشار عليه البعض أن يمارس هذا الدور، فادّعى أنه يقرب بين القلوب، وأنه يوفق بين الأزواج، وأنه يفتح الطريق للنجاح في الحياة، ويعالج الكثير من المشاكل، ففوجئ بإقبال الناس عليه نساءً ورجالاً، وصار اسمه معروفاً، فتتصل به هذه المرأة، ويتصل به هذا الزوج، ويأخذ مبالغ من هذا وذاك،

وكوّن له ثروة طائلة.

يحصل في بعض الأحيان أن شخصاً يسلك طريق العلم الديني حتى يصير عالمًا، فلا يكون ناجحاً في هذا المسار لسبب أو لآخر، فيكتشف أن هذا أفضل طريق لكسب المال والثروة، فيستشير العاطفة عند الناس، ويستقبل الاتصالات فهذا يطلب منه أن يحل له مشكلة، وذاك أن يفتح له كتابًا، وغير ذلك. البعض من الناس يعترضون، إذ كيف يعمل هذا العمل وهو ضمن الوسط الديني، وقد جاءني جماعة يشتكون من بعض هذه الحالات، فقلت لهم: اللوم عليكم أنتم، لماذا تُستغفلون؟

وهناك قصة أسطورية مشهورة عن حمار الحكيم حينما سأله حماره: أيها الإنسان أنت تركبني وتمتطيني وتثقل ظهري، ألسنت أنا وأنت مخلوقين لله، فالله خلقني كما خلقك، قال: نعم، قال: إذا لماذا أنت تركب ظهري ولا يحصل العكس؟ قال له: هذا لا يحتاج إلى تفسير عميق، أركبك لأنك حمار.

فالإنسان حينما يكون مغفلاً ساذجاً، فإن الآخرين يستغفلونه، وإلا كيف يقبل هؤلاء الناس أن يحكوا أسرارهم لمن لا يعرفونه؟ وكيف يقبلون ادعاءاته؟

لدينا الكثير من المشاكل والقضايا في هذا المجال، شخص يوهمك بأنه قادر على أن يجعلك ثرياً في مقابل أن تعطيه مبلغاً من المال، وحالته يرثى لها، لماذا لا يثري نفسه إذا؟ كيف يقبل عقلك هذا الأمر؟ على الإنسان أن يحتاط لنفسه، كم من النصابين الذين أخذوا أموالاً من الناس على أساس استثمارها لهم، وفي البداية يخذعهم ويعطيهم بعض الأرباح، ويجمع له الملايين ثم يهرب.

مع أننا نجد في هذا الإطار أن أطول آية في القرآن الكريم هي الآية التي تتحدث حول موضوع توثيق الديون بين الناس، بأحكام تفصيلية، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ

يُمَلِّ هُوَ فَلْيُمَلِّ وَلِيَّهِ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْتِ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿سورة البقرة، الآية: ٢٨٢﴾.

فلماذا يتساهل الإنسان في حقوقه؟ ونسمع كل يوم عن محاولات نصب جديدة، فمثلاً في الإنترنت مواقع لشركات وهمية للشراء، وتنمية الثروة! وهناك من يتعامل معها فيقع في فخ النصب والابتزاز وتضييع أمواله وآماله؟

استغلال العواطف الدينية

وفي بعض الأحيان يكون هناك استغلال للعاطفة الدينية، فمثلاً رسائل بالجوات تقول: انشر هذه الرسالة ١٣ مرة، وإلا سيصيبك بلاء. وقبل مدة نقل إليّ أن هنالك رسائل تتداول بالجوات في شهر رجب، أن من كانت في بيته بنت اسمها زينب أو فاطمة فعليه أن يدفع صدقة في هذا الشهر، وإذا لم يدفع صدقة فقد يصبه بلاء! إن هذا كلام فارغ.

فالله تعالى أعطى الإنسان عقلاً، حتى يفكر به، وعليه أن يستثمره الاستثمار الأفضل.

وفي السيرة النبوية نقرأ أن رسول الله ﷺ حينما بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأجج ناراً وأمرهم أن يقتحموا فيها، فأبى قوم أن يدخلوها، وقالوا: إنما فررنا من النار، وأراد قوم أن يدخلوها، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لو دخلوها أو دخلوا فيها لم يزلوا فيها» وقال ﷺ: «لا طاعة في معصية الله،

إنما الطاعة في المعروف»^(١).

وأثنى قوم بحضرتة ﷺ على رجل حتى ذكروا جميع خصال الخير، فقال رسول الله ﷺ: كيف عقل الرجل؟ فقالوا يا رسول الله نخبرك عنه باجتهاده في العبادة وأصناف الخير تسألنا عن عقله؟ فقال: إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم»^(٢).

لذلك يجب أن نكون واعين، فلا نُستغل عبر العواطف الدينية، وباسم الدين، ينبغي للإنسان أن يكون فطناً، وألا يُستغفل، وألا يتنازل عن شيء من حقوقه بدون إرادة ووعي.

وهنا نقرأ هذه الرواية الجميلة عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين ﷺ حين أتى مولى له فقال له: أقرضني عشرة آلاف درهم إلى ميسرة، فقال: لا؛ لأنه ليس عندي ولكن أريد وثيقة، قال: فشق له ﷺ من رداءه هدبة (أي خيطاً) فقال ﷺ له: هذه الوثيقة، قال: فكأن مولاه كره ذلك فغضب ﷺ وقال: أنا أولى بالوفاء أم حاجب بن زرارة؟ فقال: أنت أولى بذلك منه، فقال ﷺ: فكيف صار حاجب يرهن قوساً وإنما هي خشبة على مائة حمالة وهو كافر فيني وأنا لا أفي بهدبة رداي؟! قال: فأخذها الرجل منه وأعطاه الدراهم، وجعل الهدبة في حق، فسهل الله عز وجل له المال فحمله ﷺ إلى الرجل ثم قال له: قد أحضرت مالك فهات وثيقتي فقال له: جعلت فداك، ضيعتها، فقال ﷺ: إذن لا تأخذ مالك مني، ليس مثلي من يستخف بدمته، قال: فأخرج الرجل الحق فإذا فيه الهدبة فأعطاه علي بن الحسين الدراهم وأخذ الهدبة فرمى بها وانصرف»^(٣).

(١) سنن أبي داود. ج ٢، ص ٤٦، حديث ٢٦٢٥.

(٢) بحار الأنوار. ج ٧٤، ص ١٥٨.

(٣) الكافي. ج ٥، ص ٩٦.

هكذا ينبغي أن يكون الإنسان يقظاً، وفي حديث مروى عن رسول ﷺ يقول:
«المؤمن كيّس فطن حذر»^(١)، كيّس يعني: لديه كياسة وفطنة.

ولو قرأنا التاريخ لوجدنا أن المجتمعات، إنما وقعت في المآزق بسبب انطلاء الخدع عليها، وغفلتها عن مصائر الأمور، فما الذي أوقع أهل الكوفة فيما وقعوا فيه، إذ كانت لديهم فرصة كبيرة وعظيمة، فأبو عبد الله الحسين ﷺ، سيد شباب الجنة، قدم إليهم ولو التفوا حوله ووقفوا إلى جانبه، لأعاد تجربة أبيه أمير المؤمنين ﷺ كما وعد، «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي»^(٢)، ولأقام لهم الدولة العادلة التي تحفظ كرامتهم وحقوقهم وحریتهم، لكن حالة من الخديعة والغفلة، أصابتهم فخذلوا الإمام الحسين ﷺ، ودفعوا الثمن باهظاً، ولو أنهم قاوموا ابن زياد في ذلك الوقت لكانت خسائرهم أقل مما دفعوه فيما بعد، في سني الدولة الأموية الطويلة.

وحده عبد الله بن عفيف انتفض في مجلس عبيد الله بن زياد، حينما سمعه يشتم علياً والحسين، في حضور أسارى أهل البيت، وبين يديه رأس أبي عبد الله الحسين ﷺ.

(١) كنز العمال. ج ١، ص ١٤٣، حديث ٦٨٩.

(٢) بحار الأنوار. ج ٤٤، ص ٣٢٩.

المحتويات

المظالم الكبرى في ذاكرة التاريخ	١٧
الموقف من ظلمات التاريخ	١٩
ضحايا الرأي	٢٥
فاجعة كربلاء في التاريخ الإسلامي	٣١
علي نفس الرسول	٣٥
قيمة القرب من رسول الله	٣٧
خصائص الإمام علي	٤٢
عليُّ حاجة العصر	٤٧
صناعة الإحسان	٥٣
الإحسان شريعة أخلاقية	٥٥
مجالات الإحسان وآلياته	٥٩
ثقافة الإحسان وتنميته	٦٥
تجربة في البناء والتغيير: الإمام الصدر نموذجاً	٧٣
القراءة الواعية لتجارب الآخرين	٧٥
الحالة الشيعية في لبنان	٧٨
دور الإمام موسى الصدر	٨٣

- ٩١ مواجهة أهل البيت لسياسة العزل والتهميش
- ٩٣ العزل والتهميش سياسة الظلم
- ١٠٠ برنامج أهل البيت لمواجهة هذه السياسة
- ١٠٩ عالم الدين وشجاعة الرأي- الإمام كاشف الغطاء نموذجاً
- ١١١ التعبير عن الرأي بين الحق والواجب
- ١١٤ العوائق والتحديات
- ١٢٢ الإمام كاشف الغطاء نموذجاً
- ١٢٩ شخصية الفرد
- ١٣١ بين الفردية والجمعية
- ١٤٣ الفرد الأمة
- ١٤٧ نقد الحالة الدينية
- ١٤٩ بين الدين والحالة الدينية
- ١٥١ النقد الذاتي في الحالة الدينية
- ١٥٥ كيف نتعامل مع النقد؟
- ١٦٥ الرحمة تصنع السعادة
- ١٦٧ الرحمة صفة ونعمة إلهية
- ١٧٧ الحضارة المادية تنشر العنف
- ١٧٩ العنف شقاء المجتمع
- ١٨٥ رسالة عاشوراء
- ١٨٧ فلسفة الشهادة
- ١٩٦ لماذا قُتل الحسين؟
- ١٩٧ في مواجهة خطر الطائفية

٢٠٣	الجماعات الشبابية والدور المطلوب ..
٢٠٥	دور الأصدقاء في حياة الإنسان ..
٢٠٨	اختيار ثلة الأقران ..
٢١١	الانفتاح على جماعات الشباب ..
٢١٧	المبتعثون للدراسة .. طموح التنمية والتقدم ..
٢١٩	الهجرة للعلم ظاهرة إنسانية عالمية ..
٢٢٥	بالكفاءات تبنى الأوطان ..
٢٢٧	إنجاح برنامج الابتعاث ..
٢٣٥	شخصية الإنسان بين الفطنة والسذاجة ..
٢٣٧	الفطنة إدراك وانتباه ..
٢٤١	تنمية الفطنة في المجتمع ..

صدر للمؤلف عن الإمام الحسين

١. الحسين ومسؤولية الثورة

- الطبعة الأولى: ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م، مطابع دار السياسة، الكويت.
- الطبعة الثانية: ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، مطابع دار السياسة - الكويت.
- الطبعة الثالثة: ١٤٠٠هـ-١٩٧٩م - أمريكا.
- الطبعة الرابعة: ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م - فرنسا.
- الطبعة الخامسة: ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م، طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.
- الطبعة السادسة: ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، دار الحوراء، بيروت - لبنان.
- الطبعة السابعة: ١٤١٢هـ-١٩٩١م، دار البيان العربي، بيروت - لبنان.
- الطبعة الثامنة: ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، مكتب سماحة الشيخ حسن الصفار، القطيف - السعودية.

٢. الإمام الحسين رمز التضحية والفداء

- الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، مكتبة الرسول الأعظم ﷺ، مطرح - سلطنة عمان.

الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م - الكويت.

٣. رسالة المجالس الحسينية

الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، دار الجزيرة للنشر، لندن - بريطانيا.

٤. الإمام الحسين الشخصية والقضية

الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، دار المحجة البيضاء، بيروت - لبنان.

الطبعة الثانية: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، مكتب سماحة الشيخ حسن الصفار،
القطيف - السعودية.

الطبعة الثالثة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، مكتب سماحة الشيخ حسن الصفار،
القطيف - السعودية.

٥. الحسين في وجدان الأمة

الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، مكتب سماحة الشيخ حسن الصفار،
القطيف، السعودية.

٦. عاشوراء خطاب التنمية والإصلاح

الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، دار المحجة البيضاء - بيروت.

٧. الحسين منهج الإصلاح والتغيير

الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، مكتب سماحة الشيخ حسن الصفار،
القطيف، السعودية.